kitabweb-2013.forumaroc.net

أنوار النبي ﷺ

أسرارها وأنواعها

تأليف
الشيخ الإمام القطب عبد الحق بن سبعين المرسي الأندلسي
(المتوفى سنة ٦٦٩هـ)

إعداد
الشيخ أحمد فريد المزيدي

دار الآفاق العربية

أنوار النبي ﷺ

أسرارها وأنواعها

ابن سبعين ، عبد الحق بن ابراهيم بن محمد بن نصر ، 1216 - 1270
انوار النبى صلى الله علية وسلم
تأليف عبد الحق بن سبعين المرسى الاندلسى
إعداد احمد فريد المزيدى
ط1 – القاهرة : دار الآفاق العربية 2007
287 ص ، 24سم
تدمك : 5 – 155 – 344 – 977
1- السيرة النبوية
أ- المزيدى ، احمد فريد (معد)
ب – العنوان
ديوى : 239
رقم الإيداع : 9499/ 2006
الترقيم الدولى :5 –155 – 344 – 977

الطبعة الأولى
1428هـ - 2007 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

دار الآفـــاق العــربيـــة
نشر - توزيع - طباعة
55 ش محمود طلعت من شارع الطيـران
مدينة نصر – القاهرة
تليفون : 2617339 - تليفاكس : 2610164
E-Mail : Daralafk @yahoo com

الإهــداء

إلى: سيدي وشيخي وقدوتي، وحبيب قلبي

أحد أركان هذه الطريق، وأعلام العلماء بها علماً وعملاً، وقالاً وحالاً، صاحب الحقائق الزاهرة، والمعارف الباهرة، والمراتب العلية في منازل القُرب، والمعَارج الرفيعة إلى محاضرة القُدس، والكُشوف الواضحة عن عَوالم الغيَب، صاحب الإشارات العالية، والهمم السامية، والأنفاس الصادقة، له اليد البيضاء في أحكام الولاء، والقدم الراسخ في درجات النهاية، القطب والغوث الكبير

مصطفى بن عبد السلام الملوي

قدّس الله سره

ونوّر ضريحه

أحمد فريد المزيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله المستوجب لكل كمال، المنعوت بكل تعظيم وجمال.

والصلاة والسلام على من جمع كل خَلقٍ وخُلُقٍ، فاستوى على أكمل الأحوال، واختص بجوامع الكلم في الأقوال.

وعلى من ائتم الناس به في التخلق بأخلاقه وشمائله الحسان، من الآل والأصحاب والتابعين لهم على مرِّ الزمان.

السيد الأكرم الذي شرَّف الناس بوجوده، هو سيدنا: محمد المختار نور الأنوار، صلوات الله وسلامه عليه.

وعلى آله الطيبين المكرمين، وصحبه السادة المقربين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فبين يديك أيها القارئ الكريم كتاب فريد في نوعه، جديد في مضمونه، متبحر مصنفه في كشفه ونطقه.

فقد كرس الشيخ ابن سبعين رسالة خاصة: «في أنوار النبي ﷺ»؛ لأن للنبي أنوارًا تختلف باختلاف متعلقاتها ومضافاتها.

وعدة أنواره التي يعددها ابن سبعين ثلاثة وثلاثون نورًا.

فالأول نور العزة، وهو نور الشهادة التي تقال مع شهادة الله.

والثاني نور الغاية الإنسانية، وهي الإسراء، والإسراء إلى المسجد الأقصى معناه بلوغ الغاية، الذي وصل به إلى محل الكروبين ثم إلى آخر العمارة الروحانية والجسمانية.

والثالث نور الإدراك فإنه أدرك الله وأبصره... إلخ.

وهكذا يستمر ابن سبعين في تعداد أنوار النبي، ويختمها بقوله إن النبي هو النور المحض.

ولأهمية هذه الرسالة التي قد سبق طبعها مع مجموع رسائل الشيخ المصنف، في باريس سنة ١٩٥٦ م.

قمت مسارعًا بالتحقيق، والشرح، حيث الجمع والترتيب، من كلام المشايخ أمثال: جعفر الكتاني، وأبو الحسن الحرالي، وأبو البركات الأحمدي، والموصلي، والشيخ الأكبر، ومحمد بن عمر القادري، والجيلي، وعمر العطار، والسيوطي، والشيخ القاشاني، والجامي، والقونوي، وسيدي محمد وفا، وغيرهم كثير، فضلاً عن أنفاس شيخنا سيدي **مصطفى عبد السلام**، قدس الله أسرارهم.

وقد قمت بالتحقيق والتخريج والتعليق على كثيرٍ مما نقلت وذكرت، ووضعت مقدمة في التعريف والدفاع عن المصنف ومنهج أهل الحقائق.

والردّ على من اتهمه بالوحدة المطلقة، والاتحادية، ودفع شبهة تكفير السادة المحققين من أئمة الصوفية كالشيخ المصنف وسيدي ابن عربي وابن الفارض والقونوي وغيرهم ممن وجه لهم تلك الاتهامات الباطلة..

هذا.. ثم أقول: اللهم صلِّ وسلم على سيدنا ومولانا محمد صلاة تتضمن شمول الآمال وتصلح لنا بها جميع الأحوال، وأدخلنا بفضيلتها في حضرة المقربين وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين، واحشرنا في زمرتهم بلا محنة يا أرحم الراحمين.

كتبه

أحمد فريد المزيدي

٠١٠١٤٦٣٠٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عبد الحق ابن سبعين

هو الإمام شيخ الإسلام القطب الوارث المحمدي سيدي: أبو محمد عبد الحق إبراهيم بن محمد بن نصر بن فتح بن سبعين، الإشبيلي المرسي، الرقوطي الأصل، الصوفي المشهور.

ولد في مرسية بالأندلس سنة ٦١٣ هـ.

وهو من أسرة نبيلة وافرة الغنى هي أسرة ابن سبعين التي تذكر بعض المصادر أنها تصعد في نسبها إلى النبي ﷺ، وقضى مطلع شبابه في الأندلس.

فدرس العربية والآداب بالأندلس، ثم ارتحل إلى سبته، وانتحل التصوف على قاعدة زهد الفلاسفة وتصوفهم، وجدَّ واجتهد، وجال في بلاد المغرب. وهو دون العشرين من عمره.

وأخذ التصوف عن أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن محمد بن الدهاق.

وأقام أولاً في سبته هو وجمع من أصحابه وأتباعه الذين كانوا قد بدءوا يلتفون حوله وهو لا يزال في الأندلس.

فإنه قضى الفترة الخصبة من حياته الروحية في المغرب، وفيها أيضًا ألف معظم رسائله، وجرت له المناظرات العنيفة مع فقهاء المغرب من أعداء الفلسفة والتصوف، فظهرت عليهم حجته وخصمهم بمتانة استدلاله وسعة اطلاعه حتى إن أحد تلاميذ ابن سبعين، ولعله يحيى بن محمد بن أحمد بن سليمان قال في رسالة دافع فيها عن أستاذه- وسماها:

«الوراثة المحمدية والفصول الذاتية»: إن من بين الأدلة على أنه كان لابن سبعين الوراثة المحمدية أن ابن سبعين «كان من بلاد المغرب، والنبي ﷺ قال: «لا يزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين إلى قيام الساعة».

وما ظهر في بلاد المغرب - هكذا يتابع تلميذه الدفاع - رجل أظهر منه، فهو المشار إليه بالحديث، ثم إن أهل المغرب أهل الحق، وأحق الناس بالحق، وأحق المغرب بالحق علماؤه؛ لكونهم القائمين بالقسط، وأحق علمائه بالحق محققهم وقطبهم، الذي يدور الكل عليه، ويعول في مسائلهم ونوازلهم، السهلة والعريضة، عليه. فهو أي ابن سبعين حق المغرب، والمغرب حق الله تعالى» انتهى.

وشاعت شهرته بالزُّهد والعلم، فأعجبت به سيدة صالحة ثرية من أهل سبته، وطلبت منه التزُّوج منها، فتزوجها. وأقامت له في بيتها زاوية للعبادة.

ويظهر أن شهرة ابن سبعين بالحقائق الإلهية والعلوم العقلية قد استطارت في الآفاق، بدليل ما ورد في مستهل كتاب: «المسائل الصقلية»، وهي المسائل التي كان الإمبراطور فردريك الثاني ملك النورمانديين في صقلية، قد وجهها إلى علماء المسلمين؛ تبكيتًا لهم فيما ذكر المقري، أو الاستفادة وحب الاستطلاع لما كانت عليه شهرة المسلمين حينئذ بالفلسفة والعلم كما نرى.

وهذه الأسئلة الفلسفية وجَّه فردريك الثاني نسخًا منها إلى المشرق ومصر والشام والعراق والدروب واليمن، لكن رجعت أجوبة حكماء المسلمين بما لم يرضه فريدريك الثاني، فسأل عن أفريقية «تونس» ومن بها، فقيل له: إنها عَرِيَّة من هذا الشأن: أي من الفلسفة، وسأل عن المغرب والأندلس، فقيل له: إن بها رجلاً يُعرف بابن سبعين.

فكتب فردريك للخليفة الرشيد من أولاد عبد المؤمن في أمرها.

فكتب أمير المؤمنين لعامله بسبتة، وهو: ابن خلاص، أن ينظر في الرجل المذكور أن يرد الجواب على الأسئلة.

وكان مالك الروم يعني فردريك قد وجه مع رسوله جملة مال. فاستدعى ابن خلاص الإمام قطب الدين، وأوقفه على الأسئلة بأمر الخليفة، فضحك ابن سبعين وألزم نفسه الجواب.

فدفع له ابن خلاص المال الذي جاء به رسول ملك الروم. فردَّه ولم يقبله، وقال: إنما

أجيب عنها احتسابًا لله، وانتصارًا للملّة الإسلامية، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُل لا أسألُكُمْ عَلَيْهِ أجْرًا إلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الأنعام: ٩٠] وجاوبه.

فلما بلغ الجواب للملك فردريك أرضاه ووجه بصلة عظيمة فردت عليه كالأولى».

وهذه المسائل الصقلية التي سأل عنها فردريك الثاني علماء المسلمين هي:

المسألة الأولى: عن العالم: هل قديم أو محدث؟.

والمسألة الثانية عن العلم الإلهي: ما هو المقصود منه، وما مقدماته الضرورية إن كانت له مقدمات؟.

والمسألة الثالثة عن المقولات أي شئ هي؟ وكيف يتصرف بها في أجناس العلوم حتى يتم عددها، وعددها عشر، فهل يمكن أن تكون أقل؟ وهل يمكن أن تكون أكثر؟ وما البرهان على ذلك؟.والمسألة الرابعة عن النفس: ما الدليل على بقائها وما طبيعتها؟.

ويتفرع عن هذه المسألة الأخيرة سؤال عن أين خالف الإسكندر الإفروديسي أرسطوطاليس.

ويظهر أن المكانة التي نالها ابن سبعين بهذا الجواب قد أوغرت صدور الفقهاء عليه. فراحوا يتهمونه بالكفر، مما اضطر حاكم سبته، ابن خلاص، إلى طرده منها فسكن في بجاية مدة، فلم يطب له المقام نظرًا لإغراء الفقهاء به، وتحريضهم عليه، وحسدهم له من كثرة اتباعه ومريديه، فضلاً عما بدا في كتاباته وأقواله من كلمات غريبة تشم منها رائحة الكفر.

وقد افتروا عليه أنه قال: لقد تحجر ابن آمنة واسعًا بقوله: «لا نبي بعدى» فيُقال: إنه نُفي من المغرب بسبب هذه الكلمة. وهذا الكتاب دليل على كذب هذه الدعوى، وكمال أدبه مع النبي ﷺ، فما هي إلا دسائس، فكان الله للشيخ ما أصبره على الأذى.

وكان خروجه من المغرب سنة ٦٤٢هـ، وهو حينئذ في الثلاثين من عمره.

ومعنى هذا أنه أقام بالمغرب حوالي خمس وعشرين سنة، فيها ألف جل كتبه إن لم

يكن كلها، باستثناء كتابه العظيم: «بد العارف» الذي قيل: إنه ألفه وهو ابن خمس عشرة سنة، والله أعلم.

ولا نعرف أنه ألف شيئًا بعد رحلته عن المغرب فيما عدا الرسالة التي بعث بها أهل مكة يبايعون فيها السلطان المستنصر بالله تعالى أبا عبد الله محمد بن سلطان زكريا عبد الواحد بن أبي حفص، ملك إفريقية وما إليها، تولى الملك في تونس سنة ٦٥٧ هـ حتى سنة ٦٧٤ هـ، وعلى رأسهم شريف مكة أبو نُمَي محمد الأول الذي كان شريفًا على مكة من شوال سنة ٦٥٢ هـ إلى صفر سنة ٧٠١ هـ، فهذه الرسالة بالبيعة كانت من إنشاء ابن سبعين، وقد سردها ابن خلدون بجملتها في مقدمته.

وارتحل ابن سبعين حينئذ عن بلاد المغرب فلجأ إلى المشرق. فمرَّ بمصر، وأقام بها مدة قصيرة فيها؛ لأن مقصده الأول كان الحج.

فقصد مكة المشرفة، وهناك لقي من شريف مكة، أبي نمي محمد بن أبي سعد الذي أصبح شريفًا على مكة في شوال ٦٥٢هـ عطفًا ورعاية، وشاع صيته بين أهل مكة بسبب سخائه، فإن أهل مكة كانوا يقولون عنه: «إنه أنفق فيهم ثمانين ألف دينار» وبسبب علمه وكثرة أتباعه ظل في مكة معتمرًا، ويقوم بالحج في مواقيته.

وكان أهل مكة يعتمدون على أقواله، ويهتدون بأفعاله.

واختلف في سفره إلى المدينة، فبعضهم ينكر ذلك؛ لأنه فيما روى أبو الحسن بن برغوش التلمساني، وشيخ المجاورين بمكة، وكانت له به معرفة تامة، وكان إذا قرب من باب من أبواب مسجد المدينة يهراق منه دم كدم الحيض، أو لأنه عاقه الخوف من أمير المدينة عن القدوم إليها.

ويظهر أن ابن سبعين كان بسبب موقفه السياسي مضطرًا إلى الإقامة بمكة.

فقد قال حين سُئل عن سبب إقامته بمكة: «انحصرت القسمة في قعودي بها، فإن الملك الظاهر يطلبني بسبب انتمائي إلى أشراف مكة، واليمن صاحبها لي في عقيدة، ولكن وزيره حشوي يكرهني».

وصاحب اليمن كان آنذاك الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر الذي تولى الملك في اليمن في ذي القعدة سنة ٦٤٧ هـ، حتى رمضان سنة ٦٩٤ هـ.

فظلّ ابن سبعين في مكة حتى تُوفي بها يوم الخميس تاسع شوال سنة ٦٦٩ هـ.

وقيل: بضع وستين، عن نحو خمسين سنة.

واختلف في سبب وفاته:

فذكر ابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات» قال: «سمعت عن ابن سبعين أنه فصد يديه، وترك الدم يخرج حتى تصفى» (١/٥١٧).

من كلامه:

اعلم أن جميع ما دون في التصوف والحكمة وغير ذلك مما يجري إلى هذا الشأن، وجميع ما سمعت من العلوم المضنون بها، والحكمة الإشراقية، وسر الخلافة، ونتيجة النتائج، كل ذلك في الوجه الأول من وجوه التصوف.

والتصوف تسعة أوجه، وبعدها حبل التحقيق. وبعد الحبل نبدأ بعالم السفر، وبعد السفر تقرع باب التحقيق، والنور المبين، والهرامسة خاصة عَلموه، والكتب المنـزلة أفادتهم، وأما الفلاسفة بأجمعهم، ورؤسائهم من المشائين، ورئيس المشائين أرسطو وأتباعه من غير ملة الإسلام: ثامسطيوس، والإسكندر الأفرودسي، وفرفريوس القبرسي، وأرسطاليس الصقلي، وأتباعه من ملة الإسلام مثل: الفارابي وابن سينا وابن باجه المذكور في آخر القلائد، والقاضي ابن رشد في بعض أمره، والسهروردى مؤلف «حكمة الإشراق»، والتلقيحات والنبذ في أكثره، والغزالي بوجه ما، وابن خطيب الرّي في بعض صنائعه، وجميع النبهاء فإنهم لم يصلوا إليه لقصورهم عنه، ولأن علومهم وصنائعهم دون ذلك كله، والله على ما نقول وكيل.

والصوفية كذلك، إلا السلف الصالح أعني صحابة سيد السادات محمد ﷺ فإنهم علموه، ومعلمهم هو العظيم الذي إذا نظر العارف في شأنه وتتبعه وتصفحه، وتأمله على ما ينبغي ويجمل به، ويصح في حقه علم أن أهل الحق كلهم نقطة من ذكره، وذرة من قفره.

وقال أيضًا: حافظوا على الصلوات، وجاهدوا النفوس في اتباع الشهوات، وكونوا عباد الله أوَّابين توَّابين، واستعينوا على الخيرات بمكارم الأخلاق، واعملوا على نيل الدرجات السنية، ولا تغفلوا عن الأحكام السنية، وخلصوا مخصص الأحوال الإلهية ومهملها، وذوقوا مفصل اللذات الروحانية ومجملها، ولازموا المودة في الله بينكم، وافعلوا الخير وأصلحوا ذات بينكم، وعليكم بالاستقامة على الطريقة، وقدموا فرض الشريعة على الحقيقة، ولا تفرقوا بينهما فإنهما من الأسماء المترادفة، واكفروا بالحقيقة التي في زمانكم هذا، وقولوا عليها وعلى أهلها لعنة الله، فإنها حقيقة كما سمي اللديغ سليمًا وأهلها يهملون حد الحلال والحرام، ويستخفون بأشهر الحج والصوم والأشهر الحرم.

قال تعالى: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

قد غلبت عليهم أحكام الجهل، وأكثروا من جمع الأعراض للولد والأهل، وحرموا مزية الرحمة والعون، وأسعفوا بسيرة أبي جهل وفرعون.

واعلموا أن القريب إليَّ منكم من لا يخالف سنة أهل السُّنة، ويوافق طاعة من له العزة والمنّة، ويؤمن بالحشر والنار والجنة، ويفضل الرؤية على كل نعمة، ويعلم أن الرضوان بعدها أصل كل رحمة، ويطلب اللذات بعد الأدب مع الصفات والأفعال، ويغبط نفسه بالمشاهدة في القوم والروح في كامل الأحوال.

وكل مخالف بان منه التخلف والفساد وإن كان من إخوانكم، فاهجروه في الله، ولا تلتفتوا إليه، ولا تسلموا له في شيء، ولا تسلموا عليه حتى يستغفر الله العظيم بحضور الكل منكم، ويرضى عن نفسه وحاله وعنكم، ويخرج عن صفاته المذمومة، ويترك نظام دعوته المحرومة.

وأنا أشهد الله أني قد خرجت عن كل مخالف سخيف العقل واللسان، ولا نسبة بيني وبينه في الدنيا ولا في الآخرة، فمن زل قدمه يستغفر الله ولا يخدعه قدمه.

واغتبطوا بما أنتم عليه، فما في العصر من يصل إليه، والقوي الذنب منكم لا تقبلوا له توبة إلا بحلق الرأس، ولبس الصوف، والوقوف من المغرب إلى العشاء الآخرة، والصمت.

ومن يسمع منكم من يتكلم القبيح في التحقيق وأهله فازجروه واهجروه ووبخوه وذموه، وتغافلوا عنه ولا تقبلوا بعد ذلك منه.

واعلموا أنه لا حاجة لي في السموات ولا في الأرض، ولا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا في الأمل المقدر، ولا في الكون المكون، ولا في النظام القديم، ولا في التعليق الصرف، ولا في الشأن المُشار إليه، ولا في الجسوم المقيدة، ولا في الذوات المجردة، ولا في الأعراض المبددة، ولا في الكمالات الممتدة، ولا في الحروف المعتدة إلا في ذات الله، وفي ذات من صحبني من أجله.

والسلام على من صلحت نسبته، واستقامت سنته، ورحمة الله تعالى وبركاته!.

ومن كلامه ﷺ: مَنْ طَلَب ظفر، ومن ظفر ربح، ومن ربح تأنس، ومن تأنس نشط، ومن نشط زاد طلبه، ومن زاد طلبه أخرج ما لم يقصده ولا يخطر له على قلب، وهو كماله الأخير، ومن حصل له كماله الأخير كان من السعداء، ومن كان من السعداء اشتدّ طلبه، وزاد شوقه، وعاين الذوات المجردة، وكشف له عالم الأمر، وطالع النظام القديم، ومن طالع النظام القديم وقف طلبه من حيث عادته وصفاته، وتحرك من حيث خرق عادته وصفاته بجوهره، ومن خرج للفعل من كل الجهات شاهد الذات القديمة بتخرب نظام الحادثة حتى من خبر خبرها، ومن إشارتها ومشيرها ووحّد وركب التوحيد بالسلب الموجد، وجميع ما يعلم سوى الواحد ﷻ، وقال: لا اله إلا الله، بالقضية المستقبلة وهو بالماضية وطلبه بالحاضرة.

ومن كلامه ﷺ: العقل عند الأشعري غير الروح، وعند الحكيم قولك عقل وقوة مجردة، ونفس ناطقة، أو روح أسماء مترادفة.

والروح عند علماء الصوفية غير ما ذكر: تارة يطلقونها على الحق الذي قامت به السموات والأرض، وقيل: هي صفةٌ من صفات الذات، وتارة يطلقون عليها الكلمة، وتارة القضية الجزئية ضابطة النظام فيها كان كل موجود ليست بفيض، وكانت متحدة تعم الأشياء، وليست باتحاد، وإن كانت ألزم للشيء من ذاته، وليست بحالة، وإن كانت

جزء ماهية من الشيء المُضاف إليها، وإليها يشيرون حيث قولهم: إن في كل شيءٍ سرًّا من سره: جمد في الجمادات، وظهر في النبات، وتحرك في الحيوان، وأُعْلِن في الإنسان.

مؤلفات الشيخ ابن سبعين ﷺ والإشكالية فيها.

لابن سبعين طريقة غريبة في الكتابة: فكلامه مفكك، قليل الاتصال، حتى قال قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد: «جلست مع ابن سبعين من ضحوة إلى قريب الظهر وهو يسرد كلامًا تعقل مفرداته، ولا تعقل مركباته».

وكذلك يتسم كلامه بكثرة ما يرد فيه من ألغاز وإشارات بحروف أبجد، وله تسميات مخصوصة في كتبه هي نوع من الرموز» كما قال صاحب «عنوان الدراية».

فمن كلامه الغريب مثلاً ما يكرره في كتاب «الإحاطة» من عبارة: «إيه!» أو قوله: «الله فقط» وتكرار لكلمة «إيه» اثنتي عشرة مرة في سطرٍ واحدٍ، واستعماله حروف أبجد بطريقة من الصعب استخراجها، كقوله في رسالة «الألواح»: «علمه في الإنسانية إنسان، وفي ح ح، وفي ن ن، وفي ج ج، وفي العالمية علم، وفي العاقلية عقل».

ومن أغرب كلامه الشاطح قوله في ختام «الرسالة الفقيرية»: «السلام على المنكر والمسلم، والعالم والمتعالم، والغالط والمتغالط».

قلت: فالشيخ ابن سبعين من أهل الاستغراق، وهذا حالٌ من أحوالهم، ولا ينقص ذلك من شأنه فهو وارثٌ محمديٌّ، ومتحققٌ ربانيٌّ، وصاحب ذوق نوراني ﷺ.

فمن كتبه ورسائله:

- الكلام على المسألة الصقلية.
- رسالة النصيحة (النورية).
- عهد ابن سبعين.
- الإحاطة.

- بد العارف.
- الرسالة الفقيرية.
- الحكم والمواعظ.
- الرسالة القوسية.
- رسالة في أنوار النبي ﷺ وأنواعها.
- الألواح المباركة.
- الوصية لتلامذته.
- الرسالة الرضوانية.
- رسالة في عرفة.
- رسالة خطاب الله بلسان نوره.
- نتيجة الحكم.
- الرسالة الإصبعية.
- الكلام على الحكمة.
- حكم القصص.
- رسائل مختلفة.

قال الصفدي: وله عدة رسائل بليغة المعنى فصيحة الألفاظ جيدة منها رسالة العهد.. فذكرها.

قلت: هذا وإن الشيخ ابن سبعين كثر عليه الاعتراض من علماء أهل الظاهر، ومن الذين لم يفهموا كلامه ﷺ.

منهم: ابن تيمية، وابن قيم، وابن كثير، وابن حجر العسقلاني، وابن دقيق العيد، والتقي الحوراني، والذهبي، ومرعي بن يوسف الكرمي، وابن ناصر الدمشقي، وابن الملقن، وغيرهم كثير.

ولهذا فقد رماه بعضهم بالكفر والزندقة، لعدم فهمهم كلامه وظنهم فيه الاتحادية ووحدة الوجود على وجه الحلولية والثنوية، وهذا ليس بصحيح.

وطعنوا في المدرسة الصوفية التي منها الشيخ الأكبر والصدر القونوي والعفيف التلمساني وابن سبعين وصاحبه محمد بن عبد الرحمن السيوفي، والششتري، وابن الفارض، وابن أبي واصل، وغيرهم كسيدي علي وفا، وابنه سيدي محمد وفا قدَّس الله أسرارهم.

ونحن الآن نذكر أولاً: الرد على شبهة التكفير الباطلة:

قال الشيخ الشعراني:

وقد سُئل الشيخ أبو الحسن الأشعري ﷺ عن: تكفير المتأولين والمتفوهين بالكلام على الذات والصفات من غلاة الصوفية، فتوقف في الجواب.

وقال: حتى أنظر وأتَثَبَّت، فإنه دينٌ.

وقال زاهر ابن أحمد السرخسي: لما دنت وفاة الإمام أبي الحسن الأشعري رحمه الله في داري ببغداد دعاني ومن حضر من العلماء، وقال: اشهدوا عَلَيَّ بأني لا أقول بكفر أحدٍ من أهل القبلة؛ لأني رأيتهم كلهم يشيرون إلى معبودٍ واحدٍ، والإسلام يشملهم ويعمُّهم[1].

فانظر كيف سماهم مسلمين، وهذا الإمام الشافعي والإمام أبو حنيفة وغيرهما يقولون نقبل شهادة من قال بالوعيد، والخوارج إلا الخطابية، وهم قومٌ يشهد بعضهم لبعضٍ من غير معرفةٍ إذا اتفقوا في المذهب.

---

(١) انظر: تبيين كذب المفتري لابن عساكر (ص١٤٩).

وكان المزني أحد أصحاب الإمام الشافعي يمتنع من تكفير أهل الأهواء، ويقول:

إن المسائل التي يقعوا فيها لطافٌ تدقُّ عن النظر العقلي.

وكان إمام الحرمين يقول: لو قيل لنا فصِّلوا لنا ما يقتضي التكفير من العبارات مما لا يقتضيه.

لقلنا: هذا طمعٌ في غير مطمع؛ فإن هذا بعيد المدرك، وعر المسلك، يستمد من تيار بحار التوحيد، ومن لم يحط علمًا بنهايات الحقائق لم يتحصل من دلائل التكفير على وثائق.

وكان لسان حال أهل التوحيد من الأكابر يقول:

تركنا البحارَ الزخراتِ وراءنا فمن أين يدري النَّاسُ أين توجَّهنا[1]

وكان أبو المحاسن الروياني وعلماء بغداد قاطبة يقولون:

لا نكفِّر أحدًا من أهل المذاهب المختلفة؛ لأن رسول الله ﷺ قال:

«**مَنْ صلَّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فله ما لنا، وعليه ما علينا**[2]».

وقد سأل الشيخ شهاب الدين الأذرعي: سيدنا ومولانا شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله عن تكفير أهل الأهواء والبدع؟

فقال: اعلم يا أخي أن كل مؤمنٍ يستعظم الأمر بالتكفير؛ لأنه أمرٌ هائلٌ عظيم الخطر.

وهو كما قال الله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

أو من كفَّر إنسانًا فكأنه أخبر عنه أن عاقبته في الآخرة العقوبة الدائمة أبد الآبدين، وأنه في الدنيا مباح الدم والمال، لا يُمكَّن من نكاح مسلمة، ولا يجرُّ عليه أحكام أهل الإسلام في حياته وبعد مماته.

---

(١) من كلام الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه.

(٢) رواه البخاري (١/١٥٣)، والنسائي في الكبرى (٧/٧٦)، والطبراني في الكبير (٢/١٦٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/٤٢٨).

واعلم يا أخي أن الخطأ في ترك ألف كافر أهون عند الله من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**لأن يخطئ الإمامُ في العفو أحب إلى الله من أن يخطئ في العقوبة**[١]».

وفي الأثر: «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام لما سأله أن يبني بيت المقدس أنه لا يبني بيتي من سفك الدماء، فقال داود عليه السلام: يا ربِّ؛ ألم يكن ذلك في الجهاد في سبيلك؟! قال: بلى، أليسوا بعبادي؟! فقال: يا ربِّ، اجعل بناء ذلك على يد ولدي سلميان؟ قال: نعم».

ثم إن تلك المسائل التي يحكم فيها بالتكفير لهؤلاء القوم في غاية الدقة والغموض؛ لكثرة شعبها واختلاف قرائنها، وتفاوت دواعيها، والاستقصاء في معرفة الخطاب من سائر صنوف وجوهه، والاطِّلاع على حقيقة التأويل وشرائطه في الأماكن، ومعرفة الألفاظ المحتملة التأويل وغير المحتملة، وذلك يستعدي معرفة طرق اللسان من سائر قبائل العرب في حقائقها ومجازاتها، واستعاراتها، ومعرفة دقائق التوحيد، وعوارضه إلى غير ذلك مما هو متعذرٌ جدًّا.

وكثيرًا ما يتكلّم العارفون بالله تعالى حين تهب على قلوبهم النفحات الإلهية بالكلام الذي لا يفهم العاقل منهم إلا الخطأ والتناقض، فلا يقبله عقله، وكان الأولى له التسليم؛ لأن العلم الخاص بدائرة الولاية يباين العلم الذي عند العقلاء من العلماء، فالأولياء يقرؤون علم العلماء؛ لمرورهم على معناه حال السلوك والترقي عنه، والعلماء بالعكس؛ وذلك لأن طريق القوم مبنيٌّ على ما يَقرُب من طريق المعتزلة والجبرية في بعض الحالات، وهي حالة شهود غيبة الصفات في شهود وحدة جمال الذات، حتى كأن لا صفات.

فعُلِمَ مما قررناه: إنه ليس فوق علم العارفين بالله علمٌ إلا علم الله ﷻ؛ فافهم.

---

(١) رواه الترمذي (٣٣/٤)، ومالك في الموطأ (٧٦/٣)، والدارقطني في السنن (٨٤/٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٥١٢/٥).

وكان الشيخ محيي الدين العربي رحمه الله ينشد كثيرًا:

عقــدَ الخلائــقُ في الإله عقائدَ وأنــا علمــتُ جميعَ ما اعتقدوه

ومراد الشيخ: الاطّلاع على ما استندت إليه عقائد الخلق، لا أنه يعمل بجميع عقائدهم مما يخالف السنة؛ إذ كل عارف يلزمه بعد الظهور تحقق الحق، وإبطال الباطل، وإعطاء المراتب حقّها.

وقد قلنا في كتابنا المسمى «بالجواهر والدرر»: أن من أراد الترقي إلى دائرة الولاية فليمحُ من قلبه كل علمٍ كان طريقه العقل والنظر الفكري، فإذا فعل ذلك فقد تعرض لدخول تلك الحضرة واستنشاق هواها، وبعيد على من أمعن النظر والفكر في علوم النقول حتى انتقشت تلك العلوم وانطبعت في مرآة قلبه أن يشمّ رائحة من فهم كلام أهل دائرة الولاية؛ لأن الموازين العقلية وظواهر الموازين الاجتهادية تَرُدُّ كثيرًا من علوم أهل الله ﷻ؛ إذ علوم الأولياء فوق طور العقول، وميزان العقول والأفكار لا تعمل هناك.

وبالجملة: فمن أقوى دليلٍ على أن ظواهر المشي على الشريعة لا يغني عن علم الحقيقة قول موسى للخضر عليهما السلام: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف:٦٦]، ولم يكتفِ بما عنده من علم الشريعة.

ثم تأمَّل في إنكار السيد موسى على الخضر عليهما السلام علمه الذي آتاه الله له من لدنه، ففي ذلك كفايةٌ لكل معتبرٍ.

وكلام الشيخ محيي الدين العربي وأتباعه وسيدي عمر ابن الفارض وابن سبعين وغيره غالبه من علوم الخضر عليه السلام.

وقد ذكرت: من علوم الخضر عليه السلام في كتابنا المسمى بـ(**الجوهر المصون**) نحو ثلاثة آلاف علمٍ لا يمكن لغير وليٍّ أن يخوض فيها، ولا في علمٍ منها، ولا يعرف اسمه، فضلاً عن الخوض فيه، فتَطَلَّبْهُ؛ فإنه كتابٌ ما أظن أن أحدًا صنَّف في الإسلام مثله، فلله الحمد على ذلك.

ثم اعلم يا أخي: أن القول بالتكفير يحتاج إلى أمرين عزيزين:

أحدها: تحديد المعتقد، وهو صعبٌ من جهة الاطّلاع على ما في القلب، وتخليصه مما يشوبه.

الثاني: أن الحكم بأن ذلك كفرٌ صعبٌ من جهة صعوبة علم الكلام، ومواضع استنباطه، وتمييز الحق فيه من غيره كما تقدم، وإنما يحصل ذلك لرجلٍ جمع صحة الذهن، ورياضة النفس، حتى خرج عن الميل إلى الهوى، والتعصب، بالكلية بعد الامتلاء من علوم الشريعة وأسرارها، وقَلَّ أن يوجد مثل هذا، وإذا كان الإنسان يعجز عن تحرير اعتقاده في نفسه فكيف يقدر على تحرير اعتقاد غيره في هذا الزمان الذي صار الناس فيه من كثرة النكد الواقع لهم فيه يشكون في وقت مستهلِ شهورهم وأعيادهم في مدينة مصر مع كثرة ما فيها من العلماء والصلحاء وأكابر الناس؟! نسأل الله اللطف.

فالقول بتكفير شخصٍ معينٍ بما فهمه العلماء من كلامه في غاية الصعوبة؛ لتعلقه بالمعتقد الباطن، مع أنه يشترطُ في القول بالتكفير اعتراف قائله بما أضمره في قلبه، وهيهات أن يحصل.

وأما البينة فلا تكفي في ذلك؛ لأنها لا تتعلق إلا بالأمور الظاهرة، لا بما طريقه الفهم.

وإذا رأينا كتابًا أوّله: (بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين) والشهادتان، وختمه صاحبه بالصلاة والتسليم على رسول الله ﷺ، وما بين ذلك كلامٌ مغلقٌ لا يُفهم منه شيءٌ أحسنا الظن به وتركناه، مع أن جميع ما في كتب القوم لا يتعلق شيءٌ منه بأحكام الشريعة المطهرة، ولا يَرد شيء منها، ولا يأمر أحدًا بترك وضوء ولا صلاة، ولا زكاة، ولا صيام، ولا حجٍّ، ولا جهاد، ولا غير ذلك مما يهدم تركه الدين أبدًا.

ثم أن الغالب على أهل الأهواء والبدع إنما هو التقليد والانتماء إلى مذاهب أكابرهم على طريقة عوام الفقهاء من عين إحاطة بكنه ذلك المذهب، وما هو مستمدٌّ منه من الكتاب أو السنة أو الحقيقة أو المجاز، والقول بتكفير مثل هؤلاء يجرُّ إلى فساد عظيم؛ لعسر تشخيص الكفر وعدم الإيمان في قلب شخصٍ تسمعه يقول: أشهد لا إله الله، وأن محمدًا رسول الله.

قد علمتَ من جميع ما قررناه:

إن جميع الأئمة المتقدمين قد مالوا إلى ترك التكفير لأحد من المسلمين، فبهداهم يا أخي اقتدهِ، ولا تغترُّ بقول مجازف يوهمك التعصب للدين، ويحط على عقائد كُمَّل

العارفين، ويخرجهم عن دائرة الإسلام جهلاً وظلمًا وحسدًا وعدوانًا.

فقد كان العارف بالله أبو تراب النخشبي[١] يقول: إذا ألفَ العبد الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله، ولذلك كان أهل الله ﷻ لا يشتغلون قط بالردِّ على أحد من أهل الإسلام مقالته في الله ﷻ، أو في شيء استنبطه من أحكام الشريعة، عكس ما عليه أهل الجدال، وإنما شأن أهل الله أن يبحثوا عن مستند كل قول في العالم، من أين أخذه صاحبه، وماذا استند ذلك القول إليه من حضرات الأسماء الإلهية؛ فإنه محالٌ أن يوجد في العالم قولٌ الآن إلا وهو مستندٌ إلى حقيقة إلهية، فليس عند أهل الله أن أحدًا يغلط في الأحكام الشرعية، إنما يغلط في وجه النسب؛ لأن حكم الله معصومٌ حتى بذلك القول من الله ﷻ، فأهل الله يأخذون تلك المسألة التي غلط فيها صاحبها، فيجعلونها في موضعها، كما قصَّ الله علينا ذلك في شأن موسى والخضر عليهما السلام؛ فإن الخضر لما أخبر موسى بتأويل أفعاله تبيَّن أن ما فعله الخضر كان في محله، فلأهل الله الاطِّلاع على منــزع جميع النحل والملل والمذاهب اطِّلاعًا عامًّا، فما تظهر نحلةٌ من منتحلٍ ولا ملةٌ من الملل في الله أو في أحكامه ما تناقض منها وما اختلف إلا ويعلمون من أين أُخذت، فينسبوها إلى واضعها، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فتحفظ يا أخي: من تجريح عقائد أحد المسلمين، واحمِ سمعك ولسانك وقلبك، ولا تحكم بخروج أحد من الإسلام إلا إن ترك ما به دخل، فقد نصحتكم، والسلام.

والحمد لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا، اللَّهُمَّ آته الوسيلة والمقام المحمود الذي وعدته يا أرحم الراحمين، وأدخلنا في شفاعته، آمين[٢].

وثانيًا: مسألة وحدة الوجود.

قال الشيخ الكتاني: ذكر المتكلمون على وحدة الوجود أن هاهنا وحدات ثلاثًا:

---

(١) نسبة إلى نخشب بلدة بما وراء النهر، وكان شيخ عصره بالاتفاق، جامعًا بين العلم والدين والزهد والتصوف بلا شقاق، صحب حاتمًا الأصم والخواص والطبقة وكتب الحديث الكثير، وتفقَّه على مذهب الشافعي، وأخذ عنه أحمد بن حنبل وابن الجلاء وآخرون من الأجلاَّء.

(٢) انظر: الميزان الذرية المبينة لعقائد الفرقة العلية (ص١٣٥) بتحقيقنا.

الأولى منها: وحدة كل موجود على انفراده ومعناها أن كل فرد من أفراد الموجودات الظاهرة والباطنة من حيث هو له من الله تعالى وجه خاص يلقي إليه منه ما يشاء لا يشاركه فيه أحد وله منه أيضًا وجهة معينة وصفة مخصوصة لا تكون لغيره بها يتميز عن غيره من سائر المخلوقات وهذه الوجهة هي حقيقته المختصة به وصفته المخصوصة.

قال في «الفتوحات» في الفصل الخامس عشر من الباب الثامن والتسعين ومائة ما نصه: وأما الله تعالى فهو مع كل شيء فلا يتقدمه شيء ولا يتأخر عنه شيء وليس هذا الحكم لغير الله تعالى ولهذا له إلى كل موجود وجه خاص لأنه سبب كل موجود وكل موجود لا يصح أن يكون اثنين، انتهى.

يشير إلى هذه الوحدة وإن شئت زيادة بيان لها فقل إنه ما من عين مخلوقة إلا ولها من الله خاصية وعلامة تميزها عن غيرها من كل ما خلقه الله من الأعين من ابتداء الوجود إلى انتهائه كما أن لها منه مادة مخصوصة لا يشاركها فيها عين أخرى، وإن قلنا: إن هذه العين مثل هذه كزيد مثلا مثل عمرو أو هذه الحبة من البر أو غيره مثل هذه فما هي مثلية حقيقية إذ كل واحد منهما لابد له من مميز يدرك ذلك من خالطه المخالطة الخاصة أو تأمله كذلك أو فتح الله عين بصيرته وذلك المميز هو وجهه المختص به وهو حقيقته الخاصة وصفته المخصوصة فهذه هي وحدة كل موجود.

الثانية: وحدة جميع الموجودات الكونية من حيث جملتها وهي وحدته ﷺ ومعناها أن العالم كله من أوله إلى ما لا نهاية له منه شيء واحد بالذات أعني نورانيته واحدة وحقيقة متحدة متضمنة لجميع الحقائق وهي نورانيته ﷺ وحقيقته المفاضة من الذات العلية فيضانا متحدا بالفيض الأقدس أولاً في العلم ثم بالفيض المقدس ثانيًا في العين والخارج وما لها من التفاصيل والوجوه والقيود والاعتبارات والخيالات العارضة لا يعددها ولا يكثرها كالذات الواحدة الإنسانية فإنها حقيقة واحدة لا يكثرها ويعددها ما لها من الأعضاء والحواس الظاهرة والباطنة وإن كانت متعددة، وهذا معنى ما بلغنا عن بعضهم من أنه كان يقرر وحدة الوجود فيه ﷺ وكان بعض أشياخنا ممن جمع بين الظاهر والباطن يومئ إليها فيقول: إذا رأى إنسانا مقبلاً عليه أي إنسان كان مرحبا بالنور المحمدي حتى صار يلقب بهذا اللقب فيقال له: النور المحمدي وكان يشير بذلك إلى أن الأكوان كلها إنما هي

مظاهره ﷺ وأنوراه المتحدة بالذات، وإن تعددت بالاعتبارات، وأن وجوده إنما هو بوجوده ﷺ وإمداده المستمد من الحضرة العلية التي هي حضرة الأحدية.

وفي «الجامع» لأبي عبد الله محمد بن المشري نقلاً عن شيخه أبي العباس التيجاني قال: الحقيقة المحمدية هي الكون بأسره فلو رفع الحجاب لم تر إلا الحقيقة المحمدية بارزة وحدها عليها أفضل الصلاة والسلام انتهى.

يريد أنها سارية فيه كسريان الماء في العود الأخضر بحيث لو زال هذا السريان لصار عدما محضًا في الحال قبل المآل ولو زالت هذه المظاهر التي هي الحاجبة عنها لم تر إلا هي بارزة وحدها وإلى هذه الوحدة يشير في «الفتوحات» عقب ما مرَّ عنه في الوحدة قبلها بقوله: وهو واحد فما صدر عنه إلا واحد فإنه في أحدية كل واحد وإن وجدت الكثرة فبالنظر إلى أحدية الزمان الذي هو الظرف، فإن وجود الحق في هذه الكثرة في أحدية كل واحد فما ظهر عنه إلا واحد، فهذا معنى لا يصدر عن الواحد إلا واحد ولو صدر عنه جميع العالم لم يصدر عنه إلا واحد فهو مع كل واحد من حيث أحديته، وهذا لا يدركه إلا أهل الله، وتقوله الحكماء على غير هذا الوجه وهو مما أخطأت فيه، انتهى منه بلفظه.

وقد ذهب الأشاعرة والمتكلمون إلى جواز استناد آثار متعددة لمؤثر واحد بسيط لأنهم قائلون بأن جميع الممكنات المتكثرة كثرة لا تحصى مستندة بلا واسطة إلى الله تعالى مع كونه منـــزها عن التركيب والحكماء منعوا هذا أعني جواز استناد الآثار المتعددة إلى المؤثر البسيط الواحد الحقيقي من جميع الجهات، وقالوا: إنه لا يجوز أن يستند إليه إلا أثر واحد، وقالوا في معنى ما صدر عن الواحد إلا واحد أن الحق تعالى ما خلق إلا واحدًا وهو العقل الأول، والعقل الأول أوجد الفلك الأول بمادته وصورته ونفسه الناطقة المدبرة له وأوجد العقل الثاني ثم العقل الثاني أوجد فلكه ومادته وصورته ونفس والعقل الثالث، وهكذا إلى العقل العاشر، ثم خلق العقل العاشر العناصر الأربعة، والمواليد الثلاثة بأنواعها الكثيرة ونفوسها وقواها، وغير ذلك إلى ما شاء الله. هذا ما قالوا.

وحمل الأكثرون كلامهم هذا على الظاهر من إثبات فاعل ومؤثر غير الله تعالى عما لا يليق به وحقق المحقق الدواني في بعض رسائله أن تحقيق مذهبهم أنه لا فاعل في الوجود إلا الله تعالى وبين ذلك بالبيان الشافي فلينظر.

وأهل الله تعالى يقولون معنى ما صدر عن الواحد إلا واحد أن وجوده تعالى في أحدية كل واحد وأنه مع كل واحد من حيث أحديته كما قاله الشيخ الأكبر، أو أنه ما صدر عن الحق تعالى إلا واحد وهو الوجود المفاض من الذات العلية فيضانا متحدا والعقل الأول وغيره من سائر الموجودات سواء في هذا الوجود المفاض كما قاله غيره.

وقال العارف الجامي في «الدرة الفاخرة الملقبة بحط رحلك» في ترجمة القول في صدور الكثرة عن الوحدة: الظاهر أن الحق ما ذهب إليه الحكماء من امتناع صدور الكثرة عن الواحد الحقيقي ولذا وافقهم الصوفية المحققون في ذلك لكن خالفوهم في كون المبدأ الأول كذلك فإنهم يثبتون له تعالى صفات ونسبًا تغايره عقلاً لا خارجًا كما سبق فيُجَوِّزُون أن يصدر عنه باعتبار كونه مبدءا للعالم كثرة من حيث كثرة صفاته واعتباراته وأما من حيث وحدته الذاتية فلا يصدر عنه إلا أمر واحد من تلك الصفات والاعتبارات أي وهو نسبة العموم والانبساط للوجود المفاض المعبر عنه بالعما قال وبواسطته يلحقه سائر الاعتبارات وبواسطة كثرة الاعتبارات كثرة وجودية حقيقية انتهى منه بلفظه.

وقال صدر الدين القونوي في رسالة «مفتاح الغيب» في ترجمة فصل شريف يشتمل على علم غزير خفي لطيف ما نصه: الوجود في حق الحق عين ذاته وفي من عداه أمر زائد على حقيقته وحقيقة كل موجود عبارة عن نسبة تعينه في علم ربه أزلا وتسمى باصطلاح المحققين من أهل الله عينًا ثابتة.

وفي اصطلاح غيرهم ماهية والمعدوم الممكن والشيء الثابت ونحو ذلك والحق سبحانه من حيث وحدة وجوده لم يصدر عنه إلا واحد لاستحالة إظهار الواحد غير الواحد وإيجاده من كونه واحدًا أكثر من واحد لكن ذلك الواحد عندنا هو الوجود العام المفاض على أعيان الممكنات ما وجد منها وما لم يوجد معًا سبق العلم بوجوده وهذا الوجود مشترك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود عند الحكيم المسمي بالعقل الأول وبين سائر الموجودات وليس كما يذكره أهل النظر من الفلاسفة بأنه ما ثم عند المحققين إلا الحق والعالم، والعالم ليس بشيء زائد على حقائق معلومة لله تعالى أولاً كما أشرنا إليه من قبل متصفة بالوجود ثانيًا فالحقائق من حيث معلوميتها وعدميتها لا توصف بالجعل عند

المحققين من أهل الكشف والنظر أيضًا؛ إذ المجعول هو الموجود فما لا وجود له لا يكون مجعولاً، ولو كان كذلك لكان للعلم القديم في تغير معلوماته فيه أزلاً أثر مع أنها غير خارجة عن العالم بها، فإنها معدومة لا نفسها، لا ثبوت لها إلا في نفس العالم بها، فلو قيل بجعلها لزم إما مساواتها للعالم بها في الوجود، أو أن يكون العالم بها محلاً لقبول الأثر من نفسه في نفسه، وظرفًا لغيره أيضًا، وكل ذلك باطل؛ لأنه قادح في صرافة وحدته سبحانه أزلاً، وقاض بأن الوجود المفاض عرض لأشياء موجودة لا معدومة، وكل ذلك محال من حيث أنه تحصيل للحاصل، ومن وجوه أُخر لا حاجة إلى التطويل بذكرها فافهم، فثبت أنها من حيث ما ذكرنا غير مجعولة، وليس ثمة وجودان كما ذكر بل الوجود واحد، وهو مشتركٌ بين سائرها مستفاد من الحق سبحانه وتعالى.

ثم إن هذا الوجود الواحد العارض للممكنات المخلوقة، ليس بمغاير في الحقيقة للوجود الحق الباطن، المجرد عن الأعيان والمظاهر، إلا بنسب واعتبارات، كالظهور والتعين والتعدد الحاصل له بالاقتران، وقبول حكم الاشتراك، ونحو ذلك من النعوت التي تلحقه بواسطة التعلق بالمظاهر انتهى المراد منه بلفظه، وقد نقله ببعض حذف منه الجامي في «الدرة الفاخرة».

وفي «لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام» في الكلام على الأمر الوحداني ما نصه: هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وأمره الواحد عبارة عن تأثيره الوحداني بإفاضة الوجود الواحد المنبسط على الممكنات القابلة الظاهرة به، والمظهرة إياه متعددًا متنوعًا بحسب ما اقتضته حقائقها المتعينة في العلم الأزلي، وذلك لأن الحق من حيث وحدة وجوده لا يصدر عنه إلا واحد؛ لاستحالة إيجاد الواحد من كونه واحدًا ما هو أكثر من واحد إلا أن أرباب النظر العقلي من الفلاسفة، يرون أن ذلك الواحد هو العقل الأول، وعلى قاعدة الكشف هو الوجود العام، وينبغي أن تعلم أنه ليس المراد بالعموم أنه كلي، لا يمنع تصور مفهومه من وقوع الشركة فيه، فإن ذلك مما لا يصلح أن يكون موجودًا في الأعيان، بل المراد بالعموم اشتراك جميع الممكنات في أنه هو المفاض عليها، المضاف إليها ما وجد منها، وما لم يوجد مما سبق العلم بوجوده، وهذا

الوجود مشترك بين القلم الأعلى الذي هو أول موجود المسمى بالعقل الأول، وبين سائر الموجودات؛ إذ ليس ثم إلا الحق والعالم، العالم ليس بأمر زائد على حقائق معلومة الحق أولاً متصفة بالوجود ثانيًا انتهى منه بلفظه.

وقد تعرض في «جواهر المعاني» في الفصل الثالث من الباب الخامس نقلاً عن شيخه أبي العباس التجاني لإيضاح هذه الوحدة، وبيانها على مذهب القوم، وإبطال ما قاله أهل الظاهر من إحالتها، وإبطال ما ألزموه لمن قال بها، وهو أنها تستلزم تساوي الشريف والوضيع، واجتماع المتنافيين والضدين إلى غير ذلك مما قالوه.

وحاصل كلامه: إن العالم الكبير كذات الإنسان في التمثيل، وهي إذا نظرت إليها وجدتها متحدة مع اختلاف ما تركبت منه في الصورة والخاصية، وما ذكروه لا يلزم؛ لأنه وإن كانت الخواص متباعدة، والأحكام مختلفة، فالأصل الجامع لها ذات واحدة كذات الإنسان، سواء بسواء، وأيضًا فلوحدته وجه ثان وهو اتحاد ذاته في كونه مخلوقًا لله تعالى، وأثرًا لأسمائه وصفاته، فلا يخرج فرد من أفراد هذا العالم عن هذا الحكم، وإن اختلفت أنواعه، فإن الأصل الذي برز عنه واحد، ووجه ثالث، وهو اتحاد وجوده من حيث فيضان الوجود عليه من حضرة الحق فيضانًا متحدًا، ثم اختلفت خواصه وأجزاؤه بحسب ما تفصل ذلك الوجود، فإنه يتحد في عين الجملة، ويفترق في حال التفصيل. راجع كلامه، وراجع أيضًا كتاب «الجامع» لابن المشري، فإنه تعرض فيه أيضًا لهذه الوحدة وبيانها نقلاً عن شيخه المذكور.

الثالثة: وحدة الوجود الذي به يتحقق حقيقة كل موجود، وهي وحدة الحق سبحانه، ومعناها أن الوجود من حيث هو حقيقة واحدة، وهي لله تعالى وحده لا مشارك له فيها، فهو الموجود على الإطلاق، ووجود هذه الكائنات إنما كان باستنادها إليه، واستمدادها منه، واستنشاقها لروائح الوجود من وجوده، وإشراق شعاع وجوده عليها، فهي موجودة بهذا الوجود الذي له تعالى لا بوجود آخر ثان، فلم تكن غيرًا من كل وجه؛ لأن الغير في عرفهم هو الذي يكون له الوجود من ذاته، ويتصور أن يكون له بنفسه قوام، وهي وجودها ليس من ذاتها، ولا يتصور أن يكون لها قوام بنفسها.

وقد قال الشيخ الأكبر في كتاب «التجليات» له: من لم يكن له وجود من ذاته فمنـــزلته منـــزلة العدم، وهو الباطل قال: وهذا من بعض الوجوه التي بها يمتاز الحق تعالى عن الخلق، وهو كونه موجودًا أعني وجوده من ذاته انتهى.

كما أنها ليست عينًا لما بين التقييد والإطلاق من تقابل التضاد، وعليه فإثبات الوجود لها توهم؛ لأنه يتوهم الجاهل بحالها، وحقيقتها أن لها وجودًا وفي الحقيقة ونفس الأمر ما ثم إلا وجوده تعالى؛ لأن به ظهرت الأشياء كلها، ولذا قيل:

هـــذا الوجـــود وإن تعـــدد ظاهرًا ... وحـــياتكم مـــا فـــيه إلا أنـــتم
أنـــتم حقـــيقة كـــل موجود بدا ... ووجودهـــا ذي الكائـــنات توهم
في بســاطني مـــن نوركم ما لو بدا ... أفــــني بسفك دمي الذي لا
ولـــو أنـــني أبدي سرائر جودكم ... قال العـــواذل ليس هـــذا مسلـــم

وفي «الإحياء» في كتاب التوحيد والتوكل في الكلام على قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ما نصه: أي كل ما لا قوام بنفسه، وإنما قوامه بغيره، فهو باعتبار نفسه باطل، وإنما حقيقته، وحقيقته بغيره لا بنفسه، فإذًا لا حق بالحقيقة إلا الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء، فإنه قائمٌ بذاته، وكل ما سواه قائم بقدرته، فهو الحق وما سواه باطلٌ انتهى.

وقال القاشاني في «لطائفه» في مبحث التحقيق ما نصه[1]:

التحقيق هو رؤية الحق بما يجب له من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، قائمًا بنفسه، مقيمًا لكل ما سواه، وأن الوجود بكمالات الوجود: أي التي هي القوى والمدارك، إنما هو له تعالى بالحقيقة والأصالة، ولكل ما سواه بالمجاز والتبعية، بل تسميته غيره غير أو سوى مجاز أيضًا؛ إذ ليس معه غير، بل كل ما يُسمّضى غيرًا، فإنما هو فعله، والفعل لا قيام له إلا بفاعله، فليس هو بنفسه، ليُقال فيه غيرًا وسوى، فكان مرجع التحقيق أن ليس في الوجود

(١) انظر: لطائف الأعلام للقاشاني (ص١٢٥).

إلا غين واحدة، قائمة بذاتها، مقيمة لتعيناتها، التي لا يتعين الحق بها؛ لاستحالة الانحصار عليه أو التقييد، فهو تعالى الظاهر في كل مفهوم، والباطن عن كل فهم، إلا عن فهم من قال: إن العالم صورته وهويته، فلهذا صار صاحب التحقيق، لا يثبت العالم ولا ينفيه: أي لا يثبت العالم إثبات أهل الحجاب، ولا ينفيه نفي المستهلكين، فافهم. انتهى منه بلفظه.

فهذا المعنى هو مراد أهل الله بوحدة الوجود، وبالوحدة المطلقة وغير ذلك من العبارات التي يذكرها العارفون من أهل التحقيق، وليس مرادهم المعنى الفاسد الذي عند أهل الزندقة والإلحاد، وقد أنكرته عليهم علماء الأمة، وقد كشف عن هذا الشيخ عبد الغني النابلسي في رسالة له سمّاها: «إيضاح المقصود عن معنى وحدة الوجود»[1].

وفي «الحكم العطائية»[2]: الكون كله ظلمة: أي عدم صرف بالنظر إلى أصله، وحقيقة ذاته، قال: وإنما أناره يعني أظهره، وأزال ظلمة العدم عنه ظهور الحق فيه: أي تجليه عليه أولاً بأنوار الإيجاد، وتوجهه إليه ثانيًا بما يقوم به، ويدوم به وجوده من أنواع الإمداد، فلم يكن وجوده لنفسه وذاته حتى يعد وجودًا مستقلاً، وإنما كان وجوده تعالى، وبظهور هذا الوجود في الأشياء ظهرت، وبإشراق شعاعه عليها أشرقت على حسب ما تقتضيه طبائعها وقابليتها، واستعداداتها الثابتة في العلم، ثم قال في الحكم، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده أعوزه وجود الأنوار، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار يعني أن من نظر إلى الكون، ولم يشهد الحق تعالى ببصيرته فيه، أو عنده أو معه كما هو حال أهل التوسط الذين يرون الله في الأشياء، أو عندها أو معها ويقولون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله فيه أو عنده أو معه أو يشهده قبله، كما هو حال أهل الشهود والعيان الذين يرون الأشياء بالله، ويقولون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله أو يشهده بعده، كما هو حال أهل الدليل والبرهان الذين يرون الله بالأشياء، ويقولون: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده، كان معدودًا من أهل الظلام، محجوبًا عن الله تعالى

---

(١) طبعت بدار الآفاق العربية، القاهرة.

(٢) الحكمة رقم (٢٠٣).

بسحب الكون أو الجهل والغفلة والآثام، ومن شهده في كل شيء أو عنده أو معه أو قبله أو بعده أو فيه، وعنده ومعه وقبله وبعده كان من أهل الأنوار، وممن لم تحتجب عنهم شموس المعرفة بسحب الآثار، ومن زال عنه الوهم والعناء، وكان في مقام المحو والفناء، وغلب عليه شهود الوجود الحق الحقيقي، الذي به كل شيء موجود يرى الله وحده، ولذا ينفي ما عداه، ولا يثبت شيئًا سواه، ويقول: ما رأيت شيئًا سوى الله.

ومن قول بعضهم في الدار غيره ديار وقول آخر سوى الله والله ما في الوجود ويقول عما سواه أنه ظل، وأنه خيال، وأنه سراب، وأنه هالك، وأنه مضمحل زائل أو لا وجود له أصلاً، وهو صادق في ذلك كله؛ لأن وجود ما سوى الحق إنما هو بالفرض والتقدير، أو الوهم والتخييل، والوجود الحق الحقيقي إنما هو وجوده تعالى، ووجود ما عداه بوجوده لا بوجود آخر، مما عداه ليس له من نفسه وجود أصلاً، فهو بالنظر إلى نفسه عدم صرف، وبالنظر إلى إشراق شعاع الوجود المطلق عليه كالظل له تابع له، والتحقق بهذا المعنى هو زبدة التوحيد، وعمدة أهل التفريد، وفي ذلك يقول قائلهم:

الله قــل وذر الوجــود وما حوى	إن كنــت مــرتادًا بلوغ الكمال
فــالكل دون الله إن حققــته	عــدم عــلى التفصيل والإجمال
واعــلم بــأنك والعــوالم كلها	لــولاه في محــو وفي اضــمحلال
مــن لا وجــود لذاتــه من ذاته	فوجــوده لــولاه عــين محــال
فالعــارفون فــنوا ولمــا يشهدوا	شــيئًا ســوى المتكــبر المــتعال
ورأوا ســواه على الحقيقة هالكا	في الحــال والماضــي والاستقبال

وقد حُكي عن الصديق ﷺ أنه كان يقول ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله.

وعن عمر ﷺ أنه كان يقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله بعده.

وعن عثمان ﷺ أنه كان يقول: ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله معه.

وعن علي ﷺ أنه كان يقول: لا نعبد ربًا لم نره يعني لم نشهده.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «كان الله ولا شيء معه، وكان الله وحده بلا شيء»[١].

وفي «الإحياء» في كتاب المحبة والشوق في ترجمة بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله تعالى ما نصه:

وأما من قويت بصيرته و لم تضعف منته: أي قوته، فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى، ولا يعرف غيره، ويعلم أنه ليس في الوجود إلا الله تعالى، وأفعاله أثر من آثار قدرته، فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل، ويذهل عن الفعل من حيث أنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث أنه صنع الواحد الحق، فلا يكون نظره مجاوزًا له إلى غيره، كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه، ورأى فيها الشاعر والمصنف، ورأى آثاره من حيث أنه أثره لا من حيث أنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف، وكل العالم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه من حيث أنه فعل الله، وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث أنه فعل الله، لم يكن ناظرًا إلا في الله، ولا عارفًا إلا بالله، ولا محبًا إلا لله، وكان هو الموحد للحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من حيث أنه عبد الله، فهذا هو الذي يُقال فيه: إنه فني في التوحيد، وإنه فني عن نفسه أيضًا، وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا، وبقينا بلا نحن. انتهى منه، وقد نقله السيوطي أيضًا في «تأييد الحقيقة العلية».

وفي كلام بعض العارفين أبي المحققون أن يشهدوا غير الله، لما حققهم به من شهود القيومية، وإحاطة الديمومية.

وقال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع؛ فإنه لا غير معه حتى أشهده معه.

ومن كلام مولانا عبد السلام بن مشيش لوارثه أبي الحسن الشاذلي: حدد بصر الإيمان

(١) سيأتي تخريجه والكلام عليه.

تجد الله تعالى في كل شيء، وعند كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وتحت كل شيء، وقريبًا من كل شيء، ومحيطًا بكل شيء بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته.. إلى آخر ما قال.

وقال بعض العارفين: الحق تعالى منـــزَّهٌ عن الأين والجهة والكيف والمادة والصورة، ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ولا كم ولا كيف ولا جسم ولا جوهر ولا عرض؛ لأنه للطفه سار في كل شيء، ولنورانيته ظاهر في كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيفٍ، غير متقيدٍ بذلك، ومن لم يرَ هذا ولم يشهده فهو أعمى البصيرة، محروم من مشاهدة الحق انتهى.

ومن كلام القطب سيدي علي وفا ﷺ:

هـــو الحـــق المحـــيط بكل شيء ... هـــو الـــرحمن ذو العرش المجيد

و الـــنور المـــبين بغـــير شـــكه ... هـــو الـــرب المحجـــب في العبيد

هـــو المشـــهود في الأشياء يبدو ... فيخفـــيه الشـــهود عن الشهيد

هـــو العـــين العـــيان لكل غيب ... هـــو المقصـــود مـــن بيت القصيد

جمـــيع العـــالمين لَـــه ظـــلال ... ســـجود له في القريب وفي البعيد

وهـــذا القـــدر في التحقيق كاف ... فكـــف الـــنفس عن طلب المزيد

واعلم أن الإيمان بالله هو التصديق الجازم بوجوده أولاً، وبوحدانيته ثانيًا، وباتصافه بصفات الكمال اللائقة به ثالثًا، وبتقديسه عن سمات الحوادث رابعًا، وهذا التصديق له مراتب ذكر في «القوت» و «الإحياء» أنها ثلاثة وهي في الحقيقة تسعة لأن كل مرتبة من المراتب الثلاث منقسمة إلى ثلاثة، وذكر الغزالي في آخر كتابه «إلجام العوام» ستة منها وهي أقسام المرتبتين الأوليين، وأما المرتبة الثالثة فذكرها بأقسامها في كتابه «مشكاة الأنوار»، ونحن إن شاء الله تعالى نذكر خلاصة المرتبتين الأوليين مع التوسع في المرتبة الثالثة؛ لأنها المقصودة هنا.

فنقول المرتبة الأولى: مرتبة إيمان العوام، وهو إيمان التقليد المحض.

وفيها ثلاث مراتب لأنه:

١- إما أن يكون مستندًا إلى السماع ممن حسن فيه الاعتقاد بسبب كثرة ثناء الخلق عليه كالعلماء والأولياء.

٢- أو إلى أمارة يظنها العامي دليلاً كالقرائن الشاهدة له.

٣- أو غير مستند إلى شيء أصلاً كأن يسمع القول فيناسب طبعه وأخلاقه فيبادر إلى التصديق به لمجرد موافقته لطبعه.

وهذه أضعف التصديقات لأنه فيما قبله استند إلى دليل ما وإن كان ضعيفا.

المرتبة الثانية: مرتبة إيمان المتكلمين وهو الإيمان الممزوج بنوع من الاستدلال وفيها أيضًا ثلاث مراتب لأنه:

١- إما أن يكون حاصلاً بالبرهان المحرر المستقصي لشروطه بأصوله ومقدماته.

٢- أو بالأدلة الرسمية الكلامية المبنية على أمور مسلمة مصدق بها لاشتهارها بين أكابر العلماء وشناعة إنكارها.

٣- أو بالأدلة الخطابية التي جرت العادة باستعمالها في المحاورات والمخاطبات الجارية في العادات.

المرتبة الثالثة: مرتبة إيمان العارفين، وهو المشاهد بنور اليقين وفيها أيضًا ثلاث مراتب.

الأولى: مشاهدة أن الوجود كله لله وأنه لا شريك له فيه أصلاً لأن كل ما سواه إذا اعتبرت ذاته فهو من حيث ذاته لا وجود له بل وجوده مستعار من غيره، ولا قوام لوجود المستعار بنفسه بل بغيره ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض فإذا انكشفت هذه الحقيقة للعبد بنور اليقين علم أن الوجود كله له تعالى لا مزاحم له فيه أصلاً وأن نسبته لغيره مجاز لا حقيقة.

الثانية: ترقى أصلها من حضيض المجاز إلى ارتفاع الحقيقة واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله وأن كل شيء هالك إلا وجهه أزلا وأبدًا لا

يتصور فيه إلا ذلك لا أنه يصير هالكا في وقت من الأوقات لأن كل ما سواه إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم صرف، وإذا اعتبرت من الوجه الذي يسري إليه الوجود من الأول فهو موجود لا من وجهه وذاته، بل من الوجه الذي يلي موجده فيكون الموجود هو وجه الله فقط وحينئذ فلكل شيء وجهان وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه فهو باعتبار وجه نفسه عدم، وباعتبار وجه ربه موجود، فإذًا لا موجود إلا الله ووجهه كما قال: ﴿كُلُّ شيء هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] يعني فليس بهالك.

وهؤلاء يفتقروا لقيام القيامة ليسمعوا نداء الباري لمن الملك اليوم لله الواحد القهار، بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبدًا، و لم يفهموا من معنى قوله الله أكبر أنه أكبر من غيره حاش الله إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون أكبر منه، بل ليس لغيره رتبة المعية، بل رتبة التبعية، بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه، فالوجود وجهه فقط، فمحال أن يكون أكبر من وجهه، بل معناه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة، وأكبر أن يدرك غيره كنه كبريائه نبيًا كان أو ملكًا بل لا يعرف كنهه إلا هو تعالى.

الثالثة: أهلها بعد ما عرجوا إلى سماء الحقيقة، و لم يروا في الوجود تحقيقا إلا الواحد الحق وأفعاله، لكن منهم من كان له هذا الحال عرفانا علميا، ومنهم من صار له ذلك ذوقًا حاليًا، وانتفت عنهم الكثرة بالكلية استغرقوا في الفردانية المحضة واستلبت فيها عقولهم، فصاروا كالمبهوتين فيها، و لم يبق فيهم متسع لذكر غير الله، ولا لذكر أنفسهم أيضًا ، فلم يكن عندهم إلا الله ، فسكروا سكرا وقع دون سلطان عقولهم، فقال أحدهم: أنا الحق.

وقال الآخر: سبحاني ما أعظم شاني[1].

وقال الآخر: ما في الجبة إلا الله.

وكلام العشاق في حال السكر يطوى ولا يحكى، فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذي هو ميزان الله في الأرض عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد، بل يشبه الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرط عشقه: أنا من أهوى، ومن أهوى أنا.

(١) انظر: روضة الحبور ومعدن السرور لابن الأطعاني (ص٨٠) بتحقيقنا.

وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة فناء، بل فناء الفناء لأنه فني عن نفسه، وفني عن فنائه، فإنه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال، ولا بعدم شعوره بنفسه، ولو شعر بعدم شعوره كان قد شعر بنفسه وتسمى هذه الحالة بالنسبة إلى المستغرق بها بلسان المجاز اتحادًا وبلسان الحقيقة توحيدًا وانظر: «مشكاة الأنوار» لأبي حامد الغزالي، و «شرح الإحياء» للشيخ مرتضى الزبيدي في أول نصفه الثاني وفي مبحث السماع.

وفي «لطائف الأعلام في إشارات أهل الإلهام» للقاشاني بعد ما ذكر فيه الاتحاد وأنه يطلق ويراد به عدة معاني ما نصه: ومنها أن يراد بالاتحاد جميع الموجودات في الوجود الواحد من غير أن يلزم من ذلك ما يظن من انقلاب الحقائق أو حلول شيء في شيء، بل المراد من ذلك أن كل ما سوى الحق سبحانه لا حقيقة له إلا بالحق سبحانه بمعنى أن الوجود الذي صار به كل موجود موجودا إنما هو الوجود الواجب، وهذا منكر عند أرباب العقول المحجوبة بظلمة الأكوان، فإنهم لا يشاهدون وجهه تعالى في الأشياء لوقوفهم معها، وإلى وحدة الوجود المشترك بين جميع الماهيات المتكثرة أشار الأكابر بقولهم الوحدة للوجود والكثرة للعلم أي للمعلومات فإنما هي التي كثرت الوجود الواحد المظهر لها بها انتهى منه بلفظه.

وفيها أيضًا ما نصه: وحدة الوجود، يعني به عدم انقسامه إلى الواجب والممكن وذلك أن الوجود عند هذه الطائفة ليس ما يفهمه أرباب العلوم النظرية من المتكلمين والفلاسفة، فإن أكثرهم يعتقد أن الوجود عرض، بل الوجود الذي ظنوا عرضيته هو ما به تحقق حقيقة كل موجود، وذلك لا يصح أن يكون أمره غير الحق عز شأنه انتهى المراد منه بلفظه أيضًا.

وقال السعد في شرح المقاصد بعد أن أبطل الحلول والاتحاد ما نصه: وها هنا مذهبان آخران يوهمان الحلول والاتحاد وليسا منه في شيء.

الأول: السالك إذا انتهى سلوكه إلى الله، وفي الله استغرق في بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته في ذاته وصفاته في صفاته ويغيب عن كل ما سواه ولا يرى في الوجود إلا الله، وهذا الذي يسمونه الفناء في التوحيد، وإليه يشير الحديث الإلهي:

«فإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ[1]».

وحينئذ فربما صدرت منه عبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان تلك الحال، وتعذر الكشف عنه بالمقال، ونحن على ساحل التمني نغترف من بحر التوحيد بقدر الإمكان، ونعترف بأن طريق غيرنا فيه العيان دون البرهان.

الثاني: إن الواجب هو الوجود المطلق وهو واحد لا كثرة فيه أصلاً وإنما الكثرة في الإضافات والتعينات التي هي بمنـــزلة الخيالات والسراب إذ الكل في الحقيقة واحد يتكرر على الظاهر لا بطريق المخالطة والانضمام ويتكثر في النواظر لا بطريق الانقسام ولا حلول هنا ولا اتحاد لعدم الاثنينية والغيرية انتهى على نقل شارح الإحياء والله أعلم. انتهى.

قلـــت: مسألة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود قد كثر فيها الكلام من العالم والجـــاهل، فكثر الكلام، وتخبطت الآراء، وتنازعت، وبمجرد إطلاق لفظ وحدة الوجود يـــتوهم الجاهل القول بالحلول والاتحاد، ونسبها ظلمًا وعدوانًا الكثير من الجهلة قديمًا إلى سيدنا الشيخ الأكبر وأكابر الأولياء: كالشيخ سيدي عبد الكريم الجيلي، والشيخ القوني، والشـــيخ ابـــن سبعين، والشيخ ابن الفارض، وغيرهم رضي الله عن جميعم، وتبعهم على ذلك أتباعهم من المتأخرين.

وإن شئت قلت: أعوانهم في تلك الجهالة، وكان مدخلهم إلى هذه النسبة وتلك الاعتراضات وتجرؤهم على ما يجهلونه من علوم الأولياء نظرهم إلى علوم القوم باعتبار أنها علومٌ فلسفيةٌ، مصدرها الفكر والعقل، وكأنهم لم يسمعوا قول الله تعالى:

﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، ولا قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف:٦٥]، ولا قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف:١٠٨]، ولا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩]، ولا قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:٢٤].

(١) سبق تخريجه.

ولا ما روي عن أبي جحيفة قال: سألت عليًا ﷺ: هل عندك عن النبي ﷺ شيء سوى القرآن؟ فقال: «لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في القرآن وما في هذه الصحيفة».

قلت: وما في هذه الصحيفة؟ الحديث، ولا ما روي في البخاري: حدثنا إسماعيل قال: حدثني أخي عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم»، و لم يبلغهم مما ورد في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ مما يقرر اختصاص الحق سبحانه لمن شاء من عباده بما شاء من عطاياه، سواء كان المُعطَى محسوسًا أم معنويًا كالعلم بالله والفهم في كتابه، فراحوا ينكرون كل ما يجهلونه، وكأنهم أحاطوا بما عند الله، أو تحكموا على الله في ألا يعطي أحدًا من خلقه إلا بعد أن يستأذنهم، ولا يُفهِمُ أحدًا في كتابه إلا بما فهمُوه هم بفهمهم السقيم لا غير، فسبُّوا ولعنُوا أولياء الله، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥]، وجعلوا يستشهدون بأقوال أهل الكفر المستشرقين الذين ما أرادوا بالإسلام والمسلمين خيرًا قطُّ على أئمة الهدى المسلمين، فينسبون العلم اللدني الوارد ذكره في كتاب الله وفي سنة رسول الله تارةً إلى المسيحية، وتارةً إلى الفلسفة اليونانية، وأخرى إلى الاستنباطات العقلية تبعًا لهؤلاء المستشرقين، الذين أدركوا حقيقة علوم التصوف، وما لها من العظمة بحيث يعجز غير المسلمين عن الإتيان بشيء منها، وكيف لا وهي من السيد الأعظم ﷺ متلقاةٌ، وأن التصوف الإسلامي منذ عهد الصحابة إلى الآن السبب الأقوى والفعَّال في دخول جموع الناس في دين الله أفواجًا، وهذا ما يشهد به التاريخ، فراحوا ينسبوها إلى أنفسهم أو إلى عقلٍ وفكرٍ كما مرَّ محاولين بذلك التقليل من شأن العلم في قلوب المسلمين، ولكن هيهات هيهات: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف:٨] ببعضٍ من النظريات التي يكذبها التاريخ، وتأباها عظمة الدين الخاتم:

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

فترى دافع المتقدمين إلى الإنكار: الحقد، والحسد، وحب السمعة، والمتأخرين: الجهل الذي ملأ قلوبهم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩] فتراهم ينقلون أقوال إخوانهم الذين يمدونهم في الغيِّ دون أدنى معرفة بالدليل الذي استند إليه العلماء بالله، ولا يستبرئ لدينه فيبحث عنه، بل أخذوا يكررون ويرددون الأقوال المنكرة في حقِّ سادات الأمة المحمدية ورثة الأنبياء تلك الأقوال العارية بالطبع عن دليل القوم، وكان الأحق بهم قبل أن يؤذيهم الله بمحاربته بإيذائهم لأوليائه أن يأخذوا العلم من أهله؛ وخصوصًا أن علوم القوم موضوعها العقائد المتعلقة بمعرفة الله ورسوله ﷺ، وتلك أمورٌ محلها القلب، فلا اطّلاع عليها إلا لصاحبها.

ولا تظن يا أخي أن علوم القوم خاليةٌ عن تأييد الشرع، أو عاريةٌ عن الدليل، كما صوَّرها هؤلاء الجهلة، بل الحق الذي لا مرية فيه أنه لا توجد عقيدةٌ قررها القوم في كتبهم إلا وهي محاطةٌ بالدليل الشرعي، والمتتبع لأقوالهم نفعنا الله بهم يجدها مصحوبةً بالدليل.

فتبرًّا لدينك يا أخي، وإيَّاك أن تعترض على أحد من العلماء بالله بجهلك في أمر جهلته من كلامهم، أو أن يكون لك أيُّ نسبة تربطك بهذا الاعتراض فالأمر جدٌّ وليس بالهزل.

وانظر كيف نُسبوا إلى الله في تسميتهم، بل وحقيقتهم في قول: أولياء الله، أو العلماء بالله، أو العارفين بالله، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، فما عاديت في الحقيقة إلا ما نُسب لله؛ فانتبه من رقدتك.

واعلم أني ما ذكرت لك تلك المقدمة في هذا الموضع إعلامًا منِّي بأن واحدًا من العلماء بالله يقول بالحلول أو الاتحاد معاذ الله، ولكن لأوضح لك حقيقة الخلاف، والله يتولى هداك وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وإليك نصوص ما ذكره ساداتنا العلماء بالله في نفيهم للحلول والاتحاد المتوهَّم في حقهم الشريف فأقول وبالله التوفيق:

قال سيدنا في «الفتوحات» في باب الأسرار: من قال بالحلول فهو معلولٌ؛ فإن القول

بالحلول مرضٌ لا يزول، ومن فَصَلَ بينك وبينه فقد أثبت عينك وعينه، ألا ترى قوله: «كنتُ سمعَه الذي يسمع به»، أثبتك بإعادة الضمير إليك ليدلك عليك، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول فإنه أثبتك حالاً ومحلاً، فمَنْ فَصَلَ نفسهَ عن الحق فنعْمَ ما فَعل.

وقال في باب الأسرار أيضًا: الحادث لا يخلو عن الحوادث، لو حلَّ بالحادث القديم لصحَّ قول أهل التجسيم، فالقديم لا يَحِلُّ ولا يكون مَحَلا، ومن ادعى الوصل فهو في عين الفصل اهـ.

وقال في هذا الباب أيضًا: أنت أنت، وهو هو، فإيَّاك أن تقول كما قال العاشق: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا»، فهل قدر هذا أن يرد العين واحدةً؟ لا والله ما استطاع فإنه جهلٌ، والجهل لا يتعقلُ حقًّا، ولا بدَّ لكلِ أحدٍ من غطاءٍ ينكشف عند لقاء الله.

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلامٍ طويلٍ: وهذا يدلك على أن العالَم ما هو عين الحق، ولا حلَّ فيه الحق؛ إذ لو كان عين الحق أو حلَّ فيه لما كان تعالى قديمًا ولا بديعًا انتهى.

وقال في الباب الثاني والتسعين ومائتين: من أعظم دليلٍ على نفي القول بالحلول والاتحاد أنك تدرك عقلاً أن الشمس هي التي أفاضت على القمر النور، وأن القمر ليس من نور الشمس شيئًا مشهودًا؛ لأنها لم تنتقل إليه بذاتها، وإنما القمر محلا لها، فكذلك العبد ليس فيه شيءٌ من خالقه، ولا حلَّ فيه اهـ.

وقال في الباب الرابع عشر وثلاثمائة: لو صحَّ أن يرقى الإنسان عن إنسانيته والملك عن ملكيته ويتحد بخالقه تعالى لصحَّ انقلاب الحقائق، وخرج الإله عن كونه إلهًا، وصار الحق خلقًا، والخلق حقًّا، وما وثق أحدٌ بعلمه، وصار المحال واجبًا، فلا سبيل إلى قلب الحقائق أبدًا اهـ.

وقال في الباب الثامن والأربعين: لا يصحُّ أن يكون الخلق في رتبة الحق تعالى أبدًا، كما لا يصحُّ أن يكون المعلول في رتبة العلة اهـ.

وقال سيد الطائفة الجنيد ﷺ: التوحيد إفراد القدم عن الحدوث.

وقال سيدي عبد القادر الأمير ﷺ في «مواقفه» في حديث مسلم: «**إن الحق تعالى يتجلى لأهل المحشر** ..إلخ»: وفرقةٌ تقرُّه في الدنيا والآخرة: أي التحول المذكور في الحديث من غير حلول ولا اتحاد ولا امتزاج ولا تولُّد، مع اعتقاد:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وهم العارفون بالله تعالى أهل التجلي والشهود في الدنيا اهـ (ص٣٥٣).

وقال أيضًا: الموقف الثلاثون: قال لي الحق: «أتدري من أنت؟ فقلت: نعم، أنا العدل الظاهر بظهورك، والظلمة المشرقة بنورك. فقال لي: عرفت؛ فالزم، وإيَّاك أن تدَّعي ما ليس لك، فإن الأمانة مؤداةٌ والعارية مردودةٌ، واسم الممكن منسحبٌ عليك أبدًا، كما هو منسحبٌ عليك أزلاً» اهـ.

ثم قال في شرح حديث (كنت سمعه): وإنما هي الأحكام العدمية التي ظهر الوجود الحق بها لا غير، ولا اتحاد كما يفهمه العميان، ولا تأويل كما يقول صاحب الدليل والبرهان اهـ.

وقال في الكلام على حديث «ما وسعني..إلخ»: قلب العارف الكامل المحقق الواصل يصير عين معروفه، وعين ما حققه، مع بقاء التمييز: إلهٌ ومألوهٌ، ربٌّ وعبدٌ اهـ.

وقال سيدي عليُّ بن وفا نفعنا الله به: إنما كانت القلوب السليمة تحنُّ إلى التنزيه أكثر من التشبيه لأن التنزيه هو الأصل، والتشبيه إنما هو تنزُّلٌ للعقول، ومن شأن الذات الإطلاق لذاتها، وتساوي النسب لصفاتها؛ فاعلم ذلك، ونزِّه ربَّك عن صفات خلقه اهـ.

وقال سيدي أيضًا: المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم: فناء مراد العبد في مراد الحق تعالى، كما يقال: بين فلان وفلان اتحادٌ، إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه.

ثم أنشد:

وعلمُك أنَّ كل الأمر أمري هو المعنـــى المسمَّى باتحـــاد

وقال سيدي أيضًا: الاتحاد لفظٌ يطلق ويراد به أعلى درجات قرب العبد من الرب.

وانظر يا أخي رحمك الله إلى ما قاله هؤلاء السادات في الحلول والاتحاد؛ كي تعلم حقيقة مرادهم بتلك اللفظة، على فرض وقوعها في كلامهم، هو استخدام اللفظ ليس إلا، ودليلي فضلا عمَّا ذكرته من نفي القوم لذلك: قال سيدي عليٌّ ﷺ: (إن الاتحاد لفظٌ) ولم يقل معنًى أو حقيقةٌ، فاعلم تلك الأقوال، وعضَّ عليها بالنواجذ، واجعلها أساسًا تحمل عليه كلام القوم.

وانظر قول الشيخ الشعراني: وعندي أن هؤلاء القائلين بالاتحاد كلهم لم يصحُّ لهم اتحادٌ قطُّ إلا بالوهم، وانظر كلامهم تجده من أوله إلى آخره لا يبرح من الثنوية، فإنه لا بدَّ من مُخاطِب ومخاطَب.

وفي كلامه ﷺ ما يغني عن التعليق من نفي تلك الاعتقادات المتوهمة، وقولي المتوهمة إنما هو بالنظر للمنكر، فإننا إذا أمعنا النظر في كتابات المعترضين على أقوال الكُمَّل رضي الله عنهم نجدها منصبَّةً حول معنًى غير مقصود بالمرة للقائل، ولو ذكرت للقائل معنى تلك المقولة بتفسير المنكر لها؛ لكان من أول المنكرين لها وأشد الناس اعتراضًا عليها، فإذن تلك العقائد المعترض عليها ليس لها وجودٌ إلا في عقل المنكر، فإنه اعترض على ما فهمه هو، لا على حقيقة المراد باللفظ.

فإذن الخلاف ليس في المعاني، وإنما هو خلافٌ نشأ عن استخدام تلك الألفاظ، ودليلي في ذلك ما ذكرته لك من أقوال هؤلاء الأئمة، فخذ تلك القواعد واحكم عليهم بمقتضى قولهم تجدهم جميعًا أقرب الخلق إلى الله وإلى رسوله ﷺ وأعرفهم بالله ورسوله ﷺ.

فإن قلت: فكيف العمل في تلك الأقوال الكثيرة المشحونة باستخدام تلك الألفاظ الموهمة؟!

أقول لك: بعد ما تقدم ذكره من القول إن لم تستطع قبول تلك الأقوال ولم تفهم المعنى الموافق للشرع الذي هو يقينًا مراد القائل فتأولها بما يوافق الشرع، فإن الكتب

الفقهية والشرعية مليئةٌ بالتعارض والترجيحات وتأويل الأقوال والأدلة المتعارضة، فقس على ذلك والله هو الموفّق.

واعلم يا أخي أني لم أذكر لك جميع كلام القوم في نفي الحلول والاتحاد ووحدة الوجود المتوهمة وإنما ذكرت لك طرفًا منه، فإنهم نبَّهوا عليه كثيرًا فاختر يا أخي لنفسك، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

ووالله لا ينسب القول بالحلول أو غيره من القبائح إلى القوم بعدما ذكرناه من كلام إلا معاندٌ مكابرٌ، فحمل كلامهم على مرادهم لا غير، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، والسلام.

بحث في ردِّ شبهِ المنكرين على السادة المتحققين:

قال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

قال الكلبي: لا تقل ما ليس لك به علمٌ.

وقال البيضاوي: لا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليدًا أو رجمًا بالغيب؛ ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦]: أي كل هذه الأعضاء كان عنه سؤلاً.

قال الوالبي عن ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين: يسأل الله العباد فيما استعملوها، وفي هذا زجرٌ عن النظر إلى ما لا يحلُّ، والاستماع إلى ما يحرم، وإرادة ما لا يجوز، كذا ذكره الواحدي.

وقال ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب:٦٩].

قال البيضاوي: فأظهر براءته من مقولهم يعني: موآده ومضمونه، وذلك أن قارون حرَّض امرأةً على قذفه بنفسها، فعصمه الله تعالى، أو اتهمه ناسٌ بقتل هارون عليه السلام لما خرج معه إلى الطور، فمات هناك، فحملته الملائكة، ومرُّوا بهم حتى رأوه غير مقتول،

وقيل: أحياه الله تعالى، فأخبرهم ببراءته، أو قذفوه بعيب في بدنه من مرض أو أدرة لفرط تستُّره حياءً، فأطلعهم الله على أنه بريءٌ، وكان عند الله وجيهًا ذا قرابة ووجاهة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [الأحزاب:٧٠]، قاصدًا إلى الحق، ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧١]، يوفِّقكم للأعمال الصالحات، أو يُصلحها بالقبول والإثابة عليها، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، ويجعلها مُكفِّرة باستقامتكم في القول والعمل، ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في الأوامر والنواهي ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾، يعيش في الدنيا حميدًا، وفي الآخرة سعيدًا.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانَ يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليقلْ خيرًا أو ليسكتْ[1]» رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «من دعا رجلاً بالكفر أو قال عدوُّ الله وليس كذلك إلا حار: أي رجع عليه[2]» رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «مَنْ قفَّى مُسلمًا بشيءٍ يريد به شينه: أي عيبهُ حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال[3]».

وقال ﷺ: «مَنْ رمى مُسلمًا بشيءٍ يريد شينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال[4]».

وفي تفسير البيضاوي قال ﷺ: «مَنْ قفَّى مؤمنًا بما ليس فيه حبسه الله في ردْغَة الْخَبال حتى يأتيَ بالمخرج[5]». والرَّدْغة بسكون الدال وفتحه والغين المعجمة: الوحل

(١) رواه البخاري (٥/٢٣٧٦)، ومسلم (١/٦٩)، وأبو داود (٣/٣٢٢)، والترمذي (٤/١١٠)، والنسائي في الكبرى (٤/٣٩٤).

(٢) رواه مسلم (١/٦٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١/١٥٥)، وأحمد (٥/١٦٦).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/١٩٤)، وابن المبارك في الزهد (١/٢٣٩).

(٤) رواه أبو داود (٤/٢٧٠)، وأحمد (٣/٤٤١).

(٥) رواه أبو داود (٣/٣٠٥)، وأحمد (٢/١٧٦)، والبيهقي في الكبرى (٦/٨٢).

الشديد، **والخبال**: صديد أهل النار.

وقال ﷺ: «مَنْ أكل برجلٍ مُسلمٍ أكلةً: أي بأن يغتابه عند عدوِّه، أو يسبَّه عنده، فيطعمه بسبب ذلك فإن الله يُطعمه مثلها من جهنم، ومن كسا ثوبًا برجلٍ مسلمٍ: أي بأن يغتابه أو يسبَّه عند عدوِّه فيكسوه بسبب ذلك فإن الله يكسوه مثله من جهنم، ومن قام برجلٍ مسلمٍ مقام سمعه: أي يقول أنه مرائي، وأقواله وأفعاله رياءٌ لأجل عدوِّه فإن الله تعالى يقوم له مقام سمعةٍ ورياءٍ يوم القيامة[1]». رواه النسائي.

قال ﷺ: «**إيَّاكم والظن؛ فإنَّ الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسَّسوا ولا تنافسوا**[2]» رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «**حسنُ الظنِّ من حسنِ العبادة**[3]» رواه النسائي والترمذي وأبو داود: أي اعتقاد الخير والصلاح في حق المسلمين عبادةٌ حسنةٌ من جملة العبادات.

قال الشيخ مجد الدين رحمه الله تعالى: لا يجوز أن يُنكر على القوم ببادي الرأي؛ لعلوِّ مراقبتهم في الفهم والكشف، ولم يبلغنا عن أحدٍ منهم أنه أَمَرَ بشيءٍ يهدم الدين، ولا نهى أحدًا عن الوضوء ولا الصلاة، ولا غيرها من فروض الإسلام ومستحبَّاته، إنما يتكلمون بكلامٍ يدقُّ عن الأفهام، وكان يقول: قد يبلغ القوم في المقامات ودرجات العلوم إلى المقامات المجهولة والعلوم المجهولة التي لم يُصرَّح بها كتابٌ ولا سنَّةٌ، ولكن أكابر العلماء العالمين قد يردون ذلك إلى الكتاب والسنَّة بطريقٍ دقيقٍ لحُسن استنباطهم وحسن ظنِّهم بالصالحين، وكان يقول: كما أعطى الله تعالى الكرامات للأولياء التي هي فرع المعجزات، فلا بدع أن يعطيهم من العبادات ما يعجز عن فهمها فحول العلماء.

وكان شيخ الإسلام المخزومي رحمه الله تعالى يقول: لا يجوز لأحدٍ من العلماء

(١) رواه أبو داود (٤/٢٧٠)، وأحمد (٤/٢٢٩).

(٢) رواه البخاري (٣/١٠٠٩)، ومسلم (٤/١٩٨٥)، وأبو داود (٤/٢٨٠)، وأحمد (٢/٢٤٥).

(٣) رواه أبو داود (٤/٢٩٨)، وأحمد (٢/٣٠٤)، وابن حبان (٢/٣٩٩).

الإنكار على الصوفية إلا إن سلك طريقهم، ورأى أفعالهم، وأقوالهم مخالفةً للكتاب والسنَّة، وإما بالإشاعة عنهم، فلا يجوز الإنكار عليهم، ولا سبُّهم، وأطال في ذلك، ثم قال: وبالجملة: فأقل ما يحقُّ على المنكر حتى يسوغ له الإنكار على أقوالهم، أو على أفعالهم، أو على أحوالهم أن يعرف سبعين أمرًا، ثم بعد ذلك يسوغ له الإنكار منها غوصه في معرفة معجزات الرسل عليهم السلام على اختلاف طبقاتهم، وكرامات الأولياء على اختلاف طبقاتهم، ويؤمن بها ويعتقد أن الأولياء يرثون الأنبياء في جميع معجزاتهم إلا ما استثنى منها.

ومنها: اطّلاعه على كتب تفسُّر القرآن سلفًا وخلفًا؛ ليعرف أسرار الكتاب والسنَّة، ومنازع الأئمة المجتهدين، ويعرف التفسير والتأويل وشرائطه، ويتبحَّر في معرفة لغات العرب في مجازاتها واستعاداتها حتى يبلغ الغاية.

ومنها: كثرة الاطّلاع على مقالات للسلف والخلف في معنى آيات الصفات وأخبارها، ومن أخذ بالظاهر، ومَنْ أوَّل، ومَنْ دليله أرجح من الآخر.

ومنها: تبحُّره في علم الأصوليين، ومعرفة منازع أئمة الكلام.

ومنها: وهو أهمها معرفةُ اصطِّلاح القوم فيما عبَّروا عنه مِنْ التجلِّي الذاتي والصوري، وما هو الذات وذات الذوات، ومعرفة حضرات الأسماء والصفات، والفرق بين الحضرات، والفرق بين الأحدية والواحدية، ومعرفة الظهور والبطون، والأزل والأبد، وعالم الغيب والكون، والشهادة والشئون، وعالم الماهيَّة والهويَّة، والسُكر والمحبَّة، ومَنْ هو الصَّادق في السُكر حتى يسامح، ومن هو الكاذب حتى يؤاخذ وغير ذلك، فمن لم يعرف مرادهم كيف يحلُّ كلامهم، أو ينكر عليهم بما ليس هو من مرادهم انتهى.

وقد شرح الحافظ بن حجر العسقلاني رحمه الله تعالى بعض أبيات من تائية الشيخ عمر بن الفارض، وقدَّمها إلى الشيخ أبي مدين؛ ليكتب عليهم إجازةً، فكتب له على ظاهرها: ما أحسن ما قال بعضهم:

سارتْ مشرقةً وسرتُ مَغربًا ... شتَّانَ بين مشرقٍ ومغربِ

ثم أرسلها إلى الحافظ، فتنبَّه الشيخ لأمرٍ كان عنه غافلاً، ثم أذعن لأهل الطريق، وصحب لله الشيخ أبا مدين حتى مات رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

ونقل الإمام القزويني في كتابه «سراج العقول» عن إمام الحرمين: أنه سُئل عن كلام الصوفية، فقال: لو قيل لنا: فقولوا ما يقتضي التكفير من كلامهم مما لا يقتضيه لقلنا هذا طمعٌ في غير مطمعٍ؛ لأن كلامهم بعيدُ المدرك وعين المسلك، يغترف من تيار بحر التوحيد، ومن لم يُحط علمًا بنهايات الحقائق لم يحصل من دلائل التكفير على وثائق، كما أنشد بعضهم في هذا المعنى:

تركـنا البحارَ الزَّاخراتِ وراءنا فمن أين يدري النَّاس أين توجُّهنا

وسُئل شيخ الإسلام تقي الدين السبكي عن حكم غلاة المبتدعة وأهل الأهواء والمتفوِّهة بالكلام على الذات المقدَّسة؟ فقال: اعلم أيها السائل أن كل مَنْ خاف من الله ﷻ استعظم القول بالتكفير لمن يقول لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله؛ إذ التكفير أمرٌ هائلٌ عظيم الخطى؛ لأن مَنْ كفَّر شخصًا فكأنه أخبر أن عاقبته في الآخرة الخلود في النار أبد الآبدين، وأنه في الدنيا مُباح الدم، والمال لا يملك مسلَّمةً، ولا تجري عليه أحكام المسلمين في حياته ولا بعد مماته، والخطأ في ترك ألف كافرٍ أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم امرئٍ مسلمٍ، وفي الحديث: «**لأن يُخطئ الإمامُ في العفو أحبُّ إلى الله تعالى من أن يخطئ في العقوبة**[1]».

ثم أن تلك المسائل التي يُفتى فيها بتكفير هؤلاء القوم في غاية الدقة والغموض؛ لكثرة سعتها، واختلاف قرائنها، وتفاوت دعاويها، والاستقصاء في معرفة الخطإ من سائر صنوف وجهه، والاطِّلاع على حقائق التأويل وشرائطه في أماكنه، ومعرفة دلائله في التوحيد وغوامضه إلى غير ذلك مما هو مُتعذِّرٌ على أكابر علماء عصرنا، فضلاً عن غيرهم، وإذا كان الإنسان يعجز عن تحرير معتقدٍ في عبارةٍ فكيف يحرِّرها اعتقاد غيره من عباراته! فما بقي الحكم بالتكفير إلا لمن صرَّح بالكفر، واختارهُ دينًا، وجحد الشهادتين، وخرج

(١) رواه البيهقي في الكبرى (٨/٢٣٨).

عن دين الإسلام، وهذا نادرٌ وقوعه؛ فالأدب الوقوف عن تكفير أهل الأهواء والبدع والتسليم للقوم في كل شيءٍ قالوه مما لا يخالف صريح النصوص انتهى.

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في «مقدمة الطبقات» قال: أخبرني الشيخ أمين الدين الإمام بجامع «الغمري» بمصر أن شخصًا وقع في عبارةٍ موهمةٍ للتكفير، فأفتى علماء مصر بتكفيره، فلما أرادوا قتله قال السلطان: هل بقي أحدٌ من العلماء لم يحضر؟ فقالوا: نعم، الشيخ جلال الدين المحلي أشاح المنهاج، فأرسل السلطان وراءه فحضر، فوجد الرجل في الحديد بين يدي السلطان، فقال الشيخ: ما هذا؟ فقالوا: كفر. فقال: ما مستند مَنْ أفتى بكفره؟ فبادر الشيخ صالح.

وقال: قد أفتى والدي شيخ الإسلام الشيخ سراج الدين البلقيني في مثل ذلك بالتكفير. فقال الشيخ جلال الدين المحلي: يا والدي أترى أن يُقتل رجلٌ مسلمٌ مُوحدٌ يحبُّ الله ورسوله بفتوى أبيك؟! حلّوا عنه الحديد. فجرَّدوه، فأخذه الشيخ جلال الدين بيده، وخرج والسلطان ينظر فما تجرَّأ أحدٌ أن يتبعه.

وكان الشيخ محيي الدين العربي قُدِّس سرُّه يقول كثيرًا: ما تهبُّ على قلوب العارفين نفحاتٌ إلهيةٌ، فإن نطقوا بها جَهَّلهم بها كُمَّل العارفين، وردَّها عليهم أصحاب الأدلَّة من أهل الظاهر، وغاب عنهم أن الله سبحانه وتعالى كما أعطى أولياءه من الكرامات التي هي فرع المعجزات فلا بدع أن يُنطق ألسنتهم بالعبادات التي تعجز العلماء عن فهمها.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى: ومن شكَّ في هذا القول فلينظر في كتاب «المشاهد»[1].

أو كتاب «عنقاء مغرب»[2] للشيخ محيي الدين.

---

(١) هو المشاهد القدسية من أعظم كتب الشيخ، وقد حققناه لأول مرة مع شرحه الفخم العظيم للست عجم بنت النفيس البغدادية العامية الأمية، وهو تحت قيد الطبع بدار الكتب العلمية.

(٢) قد شرحها أكثر من واحد، كالشيخ الداموني، يسر الله لنا تحقيقه.

أو كتاب «**الشعائر**»[١] لسيدي محمد وفا.

أو كتاب «**خلع النعلين**»[٢] لابن قسي.

فإن أكبر العلماء لا يكاد يفهم منه معنًى مقصودًا لقائلٍ أصلاً؛ بل خاصٌّ بمن دخل مع ذلك المتكلم حضرة القدس، فإنه لسانٌ قدسيٌّ لا يعرفه إلا الملائكة، أو من تجرَّد عن هيئة البشرية، أو أصحاب الكشف الصحيح.

وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول بعد اجتماعه على الشيخ أبي الحسن الشاذلي وتسليمه للقوم: من أعظم الدليل على أن طائفة الصوفية قعدوا على أعظم قواعد الشرع وأساسه ما يقع على أيديهم من الكرامات والخوارق، ولا يقع شيءٌ قطُّ من ذلك لفقيهٍ إلا إن سلك طريقهم كما هو مشاهدٌ.

وكان الشيخ عز الدين قبل ذلك ينكر على القوم ويقول: وهل لنا طريقٌ غير الكتاب والسنة؟ فلمَّا ذاق مذاقهم وقطع سلسلة الجدل بكراسة الورع صار يمدحهم كل المدح، ولما اجتمع الأولياء والعلماء في وقعة الفرنج بالمنصورة قريبًا من ثغر دمياط جلس الشيخ **عز الدين بن عبد السلام** والشيخ **مكين الدين الأسمر** والشيخ **تقي الدين بن دقيق العيد** وأضرابهم وقد قرأ بعضهم عليهم رسالة القشيري، وصار كل واحدٍ يتكلم، إذ جاء الشيخ أبو الحسن الشاذلي قُدِّس سرُّه فقالوا له: نريد أن تُسمعنا من معاني هذا الكلام. فقال: أنتم مشايخ الإسلام، وكبراء الزمان، وقد تكلمتم فما بقي لكلام مثلي موضعٌ. فقالوا: لا بدَّ من ذلك. فحمد الله، وأثنى عليه، وشرع يتكلَّم، فصاح الشيخ عز الدين من داخل الخيمة، وخرج ينادي بأعلى صوته: هلمُّوا إلى هذا الكلام القريب العهد من الله تعالى، رحمة الله عليهم أجمعين.

وذكر الإمام الغزالي في «الإحياء» عن بعض العارفين أنه كان يقول: من لم يكن له

---

(١) وهو شعائر أهل العرفان، تحت قيد الطبع بتحقيقنا.

(٢) وهو من الكتب المهمة في الحقيقة المحمدية، أتم الله لنا تحقيقه، ورزقنا سر العلم وفضله.

نصيبٌ من علم القوم يخاف عليه من سوء الخاتمة وأدنى نصيب منه التصديق به والتسليم لأهله إذا علمت ذلك فأقول وبالله التوفيق مما نسب المنكرون إلى الشيخ محيي الدين والشيخ عمر بن الفارض وغيرهما القول بالحلول والاتّحاد.

قال الشيخ عبد الغني الشامي رحمه الله تعالى: وحاشاهم من ذلك؛ بل حاشا أدنى مريدٍ سالكٍ في طريق الصوفية الصَّادقين إلى يوم القيامة مِنْ خطور ذلك في بالهم، أو من إمكانه عندهم، وكيف أمر مستحيل عند المتمسّكين بالعقول من علماء الكلام وغيرهم فما بالك بالذين هم أعلى منهم مِنْ المتمسّكين بالإيمان، والفتح، والكشف، والإلهام بعد القيام بحسن المعاملة الشرعية في الظاهر والباطن من غير بدعة مع الإخلاص، واليقين، والزهد، والورع، وإن أشبهت كلماتهم على غير أهل طَريقهم، وفَهِمَ منها علماء الإنكار المنكبُّون على الدنيا قبائح المفهومات، فإن الأعمال بالنيَّات، ولكل امرئٍ ما نوى، والمرء عدوٌّ ما جهله:

وكــم من عائبٍ قولاً صحيحًا وآفـــتهِ مِـــنَ الفهـــم الســـقيمِ

ولعمري: لو يَفهم ذلك علماء الظاهر لعذرتهم في أمرهم؛ فإنهم يعتقدون كما تعتقد العوامّ من أن الله تعالى موجودٌ، وكل مخلوقٍ من مخلوقاته موجودٌ أيضًا سبحانه وتعالى، والوجود عندهم جنسٌ عامٌّ مشتركٌ بين القديم وبين الحوادث، وإنما يتميَّز القديم عن الحوادث بالقدم في ذاته وصفاته، وتتميز الحوادث بالحدوث من العدم في ذواتها وصفاتها وفي حال وجودها هي مشاركةٌ للقديم، تعالى في الوجود العام المطلق وهم يعلمون ماذا يترتب على اعتقادهم هذا؛ لأنهم أهل عقولٍ وأفكارٍ، فإذا قيل لهم يلزم على قولكم هذا تركت الحق سبحانه وتعالى من عامٍّ وخاصٍّ كبقية الماهيات الحادثة انتحلوا بعقولهم جوابًا أسكتوا به خصمهم، وبقوا على اعتقادهم ذلك، والله يعلم المفسد من المصلح، فإن الحلول على الحقِّ سبحانه وتعالى في الحوادث يتصور عندهم عقلاً، فيحتاجون إلى إقامة الدليل على استحالته وامتناعه، ويتكلّفون في ذلك كما بسط الكلام عليه في كتب علم الكلام، وأما عند المحققين من أهل الله تعالى أصحاب الأذواق الوجدانية فلا يتصور الحلول عندهم أصلاً، فلا يحتاجون إلى إبطاله؛ لعدم تصوره عندهم، وعدم خطورهُ في بالهم؛ فإن وجود

الحق تعالى وجودٌ حقيقيٌّ ليس بمفهومٍ لهم أصلاً، وإنما عندهم التصديق به على المغيب، ووجود الحوادث أثرٌ من آثار قدرته، وذلك بالنسبة إلى وجوده تعالى عدم صرفٌ، فكيف لوجودٍ يحلُّ في العدم حاشا وكلا! وإذا بطل الحلول بطل الاتحاد بالأولى، وكل الضلالات التي تفهمها علماء الظاهر من كلام المحققين من أهل الله تعالى، ويشنِّعون بها عليهم بين العوامِّ والجهَّال؛ لتنقص رتبتهم عندهم، ويحظون بالرفعة في الدنيا، والله يؤتي ملكه من يشاء والله ذو الفضل العظيم انتهى كلامه.

وقال الشيخ محيي الدين قُدِّس سرُّه في «عقيدته الصغرى»: تعالى الله أن تحلّه الحوادث أو يحلّها.

وقال في «عقيدته الوسطى»: اعلم أن الله تعالى واحدٌ بالإجماع، ومقام الواحد يتعالى أن يحلَّ فيه شيءٌ، أو يحلَّ هو في شيءٍ، أو يتحد بشيءٍ.

وقال في الباب الثالث من «الفتوحات»: اعلم أنه ليس في أحدٍ من الله شيءٌ، ولا يجوز ذلك عليه بوجهٍ من الوجوه.

وقال في «باب الأسرار»: لا يجوز لعارفٍ أن يقول: أنا الله، ولو بلغ أقصى درجات القُرب، وحاشا العارف عن هذا القول حاشاه، إنما يقول: أنا العبد الذليل في المسير والمقيل.

وقال في الباب التاسع وستين ومائة: القديم لا يكون محلاً قطُّ للحوادث، ولا يكون حالاً في المحدث.

وقال في باب الأسرار: من قال بالحلول فهو معلولٌ؛ فإن القول بالحلولِ مرضٌ لا يزول.

وقال فيه أيضًا: الحادث لا يخلو عن الحوادث، ولو حلَّ بالحادثِ القديم لصحَّ قول أهل التجسيم، فالقديم لا يحلُّ ولا يكون محلاً، ومَنْ ادَّعى الوصل فهو في عين الفصل.

وقال فيه أيضًا: اعلم أن العاشق إذا قال: أنا مَنْ أهوى وَمَنْ أهوى أنا فإن ذلك كلامٌ بلسان العشق والمحبة لا بلسان العلم والتحقيق، ولذلك يرجع أحدهم عن هذا القول إذا صحا من سكرته.

وقال في الباب الثاني والتسعين ومائتين: مِنْ أعظم دليلٍ على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلاً أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيءٌ، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها، وإنما كان القمر مجلّى لها، كذلك العبد ليس فيه من خالقه شيءٌ ولا حلّ فيه.

وقال في الباب التاسع والخمسين وخمسمائة بعد كلامٍ طويلٍ: وهذا يدلك على أن العالم ما هو عين الحق، ولا حلّ فيه الحق؛ إذ لو كان عينُ الحق أو حلّ فيه لما كان تعالى قديمًا ولا بديعًا.

وقال أيضًا في الباب الثاني والسبعين والثلاثمائة بعد كلامٍ طويلٍ: وبالجملة، فالقلوب به هائمةٌ، والعقول فيه حائرةٌ.

ثم قال: وبذلك ظهرت عظمته سبحانه وتعالى.

وقال الشيخ عمر بن الفارض قُدِّس سرُّه في قصيدته نظم السلوك[١]:

وكيف وَباسْمِ الحقِّ ظلَّ تحلُّقي	تكون إذا جيف الضَّلالُ مخيفتي
وها دحيةُ وافى الأمين نبيَّنا	بصورته في بدءِ وحي النبوَّة
أجبريلُ قلْ لي كان دحيةُ إذ بدا	لمهدي الهدى في صورةٍ بشريَّة
وفي علمه عن حاضريه مزيَّةٌ	بماهية المرئي مِنْ غيرِ مريَّة
يرى مَلَكًا يُوحي إليه وغيره	يرى رجلاً يدَّعي إليه بصحبته
ولي من أتمِّ الرؤيتين إشارةٌ	تنزِّه عن رأي الحلول عقيدتي
وفي الذكر ذِكرُ اللبس ليس بمنكرٍ	ولم أعد عن حكمي كتابٍ وسنة

قلت: فَكَذَبَ والله وافترى مَنْ نسب القول بالحلول والاتحاد إلى الشيخ محيي الدين والشيخ عمر بن الفارض رضي الله تعالى عنهما، وهذه نصوصهما تُكذِّب هذا المفتري، والله أعلم.

---

(١) انظر: شرح تائية ابن الفارض الكبرى للشيخ القيصري (ص٧٢) بتحقيقنا، طبع العلمية.

قال الفاضل المحقق ابن حجر في «شرح الهمزية»: واعلم أن من الكفر الصريح ما حُكي عن بعض الكراميَّة: أن الولي غير النبي قد يبلغ درجة النبوة.

وعن بعض المتصوفة الجهلة: إن الولاية فوق رتبة النبوة، وأن الولي قد يبلغ حالةً يسقط عنه فيها التكليف.

قال الغزالي: وقتل الواحد من هؤلاء خيرٌ من قتل مائة كافر؛ لأن ضرر أولئك أشدُّ في الدين، وليس من أولئك العالمان العارفان المحققان الوليان الكبيران **المحيوي ابن العربي**، **والسراج ابن الفارض** وأتباعهما بحقٍّ خلافًا لمن زلَّ فيهم قدمه، وطغى قلمه إلا أن يكون أراد بما قاله الذبَّ عن اعتقاد ظواهر عباراتهم المتبادرة عند من لا يحيط باصطلاحهم انتهى.

قال الشيخ عبد الغني الشامي رحمه الله تعالى: وأما قول الشيخ الأكبر أنه تعالى أوجد الأشياء وهو عينها فهو مبنيٌّ عنده على اصطلاحه في معرفة الأشياء ومعرفة الحق سبحانه وتعالى؛ فإن الأشياء كلها عنده مجرَّد تقديرات وتصويرات قائمة به تعالى الذي هو مقدِّرها ومُصوِّرها لا مبنيٌّ ذلك على اصطلاح غيره من أن الأشياء كلها أعراضٌ وأجسامٌ مستقلةٌ بنفسها في الوجود لها الاستناد العقلي إلى الحق تعالى بالإيجاد؛ فإن الوجود في اصطلاح الشيخ الأكبر واحدٌ، وهو: الوجود الحقيقي لله تعالى حقيقةً ولغيره بطريق المجاز الذي هو استعمال الشيء في غير ما هو له، فالأشياء كلها عنده يقال لها: موجودات بطريق المجاز، والوجود المنسوب إليها نسبةً مجازيةً عدم محض، وإنما الوجود الحقيقي الذي هو مستعملٌ فيما هو له إنما هو وجود الله تعالى، واصطلاحه هو الذي جاءت به نصوص الكتاب والسنَّة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨]: أي ذاته.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦،٢٧]: أي ذاته سبحانه وتعالى، وذاته سبحانه وتعالى هو الوجود الحقيقي الواحد الأحد، الحق المطلق المنـزه عن مشابهة كل شيء، والأشياء كلها هي الهالكة

الفانية في حدِّ ذاتها، وقال ﷺ: «**كانَ الله ولا شيءَ معه، وهو الآن على ما عليه كانَ**[١]».

وقال ﷺ: «**أصدقُ كلمةٍ قالها الشاعر لَبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ**[٢]».

والباطل خلاف الحق، والله سبحانه وتعالى هو الحق، والأشياء كلها هي الباطل، فكل شيءٍ عينه من حيث الوجود القائم به ذلك الشيء، وذلك الشيء غيره سبحانه وتعالى من حيث الصورة والشيئية الهالكة الفانية، فَصدَقَ حينئذ عند العارف أنه تعالى أوجد الأشياء وهو عينها: أي عين وجودها التي هي موجودةٌ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل انتهى.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه «اليواقيت والجواهر»: ومما أنكره المتعقِّبون على الشيخ بحسب الإشاعة قولهم: أن الشيخ محيي الدين يقول بفساد قول لا إله إلا الله، وذلك كفرٌ.

والجواب بتقدير صحة ذلك عنه: إن المراد أن الحق سبحانه وتعالى ثابتٌ في الألوهية قبل إثبات المثبت، ومن كان ثابتًا لا يحتاج إلى إثباتك؛ إذ ما ثمة من تثبت ألوهيته من الخلق حتى يُنفى، وإنما تعبَّد الله المؤمن بذلك على سبيل التلاوة؛ ليأجره الله على ذلك، وحاشا الشيخ أن يصرِّح بفساد قول لا إله إلا الله هذا لا يقوله عاقلٌ؛ لأنها من القرآن العظيم؛ فافهم.

ومن ذلك دعوى المنكرات الشيخ يقول في كتبه مرارًا: لا موجود إلا الله.

والجواب: أن معنى ذلك بتقدير صحته عنه: أنه لا موجود قائمٌ بنفسه إلا هو سبحانه وتعالى وما سواه قائمٌ بغيره، كما أشار إليه:

(ألا كل شيء ما خلا الله باطلٌ).

---

(١) رواه البخاري (١١٦٦/٣)، والحكيم الترمذي في النوادر (١٠٤/٤)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (١٧١/٢) بنحوه.

(٢) رواه البخاري (١٣٩٥/٣)، ومسلم (١٧٦٨/٤)، والترمذي (١٤٠/٥)، وأحمد (٢٤٨/٢).

ومن كان حقيقته كذلك فهو إلى العدم أقرب؛ إذ هو وجودٌ مسبوقٌ بعدمٍ، وفي حال وجوده مترددٌ بين وجودٍ وعدمٍ لا يخلص لأحد الطرفين، فإن صحَّ أن الشيخ قال: لا موجود إلا الله، فإن ذلك عند من تلاشت عنده الكائنات حين شهوده الحق سبحانه وتعالى بقلبه كما قال أبو القاسم الجنيد: مَنْ شَهِدَ الحق لم يرَ الخلق.

ومن ذلك دعوى المنكرات، الشيخ محيي الدين جعل الحق تعالى الخلق واحدًا في قوله في بعض نظمه:

فيحمدني وأحمده ويعبدُني وأعبدُهُ

والجواب: بتقدير صحته عنه أن معنى يحمدني: يشكرني إذا أطعته كما في قوله: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٥٢].

وأمَّا قول الشيخ: ويعبدني: أي يُطيعني بإجابة دعائي، كما قال تعالى: ﴿**لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس: ٦٠]: أي لا تطيعوه، وإلا فليس أحدٌ يعبد الشيطان كما يعبد الله تعالى؛ فافهم.

وقد ذكر في الباب السابع والخمسين وخمسمائة من «الفتوحات المكية» بعد كلامٍ طويلٍ ما نصُّه: وهذا يدلُّك صريحًا على أن العالم ما هو عين الحق؛ إذ لو كان عين الحق تعالى ما صحَّ كون الحق بديعًا انتهى، والله أعلم.

ومن ذلك دعوى المنكر بأن الشيخ يقول بقبول إيمان فرعون، وذلك كَذِبٌ وافتراءٌ على الشيخ.

فقد صرَّح الشيخ في الباب الثاني والستين من «**الفتوحات**»: بأنَّ فرعون من أهل النار الذين لا يخرجون منها أبد الآبدين، والفتوحات من آخر مؤلفاته؛ فإنه فرغ منها قبل موته بنحو ثلاث سنين.

قال شيخ الإسلام الخالدي: والشيخ محيي الدين بتقدير صدور ذلك عنه لم ينفرد به، بل ذهب جمعٌ كثير من السَّلف إلى قبول إيمانه؛ لما حكى الله تعالى عنه أنه قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين، وكان ذلك القول آخر عهده بالدنيا.

وقال أبو بكر الباقلاني: قبول إيمانه هو الأقوى من حيث الاستدلال، ولم يرد لنا نصٌّ صريحٌ أنه مات على كفره انتهى.

ودليل جمهور السلف والخلف على أنه آمن عند اليأس، وإيمان أهل اليأس لا يُقبل، والله أعلم انتهى.

قال الفاضل بن حجر في «الزَّواجر»: فإن قلت: قد قال الإمام العارف المحقِّق محيي الدين بن العربي في «**فتوحاته**»: بصحة الإيمان عند الاضطرار، وأن فرعون مؤمنٌ.

قلت: هذا كلامٌ مقررٌ، وإن كنَّا نعتقد جلالة قائله فإن العصمة ليست إلا للأنبياء.

ولقد قال الإمام مالك وغيره: ما من أحدٍ إلا مأخوذٌ من قوله ومردودٌ عليه إلا صاحب هذا القبر: يعني النبي ﷺ، على أنه قد نقل عن بعض كتب ذلك الإمام أنه قد صرَّح فيها بأن فرعون مع هامان وقارون في النار، وإذا اختلف كلام العام فيؤخذ منه بما يوافق الأدلة الظاهرة ويعرض عمَّا خالفها انتهى.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في كتابه «اليواقيت»: ومن ذلك دعوى المنكر أن الشيخ يقول: بإباحة المكث للجُنب في المسجد، فإن صحَّ ذلك عن الشيخ فهو موافقٌ فيه لابن عباس والإمام أحمد بن حنبل، وهو مذهب الإمام المزني وجماعة من التابعين والفقهاء.

فقول المنكر: إن الشيخ خالف في ذلك الشريعة وأقوال الأئمة المجتهدين مردودٌ.

ومن ذلك دعوى المنكر أن الشيخ يقول: إن الولي أفضل من الرسول.

والجواب: أن الشيخ لم يقل ذلك، وإنما قال: اختلف الناس في نبوة النبي وولايته أيهما أفضل؟ والذي أقول به: إن ولايته أفضل لشرف المتعلق به، ودوامها في الدنيا والآخرة بخلاف الرسالة؛ فإنها تتعلق بالخلق، وتنقضي بانقضاء التكليف انتهى.

ووافقه على ذلك عز الدين بن عبد السلام، فالكلام في رسالة النبي مع ولايته لا في رسالته، ونبوَّته مع ولاية غيره؛ فافهم.

وبقي مسائل كثيرةٌ نُسبت للشيخ، وسيأتي بيان أنها افتراءٌ وكذبٌ على الشيخ، منبوذةٌ في مباحثها، وفي المثل السائر، وَيَعْيَا المداري في طريق المخالف، والله أعلم، انتهى ما ذكره في كتاب «اليواقيت والجواهر».

وقد ذكر رحمه الله تعالى بيان افتراء تلك المسائل على الشيخ في مباحثها، فلا نطوِّل الكلام بذكرها.

وسُئل الإمام النووي عن الشيخ محيي الدين فقال: تلك أمةٌ قد خلت، ولكن الذي عندنا أنه يحرم على كل عاقلٍ أن يُسيء الظن بأحدٍ من أولياء الله تعالى، ويجب عليه أن يؤوِّل أقوالهم وأفعالهم ما دام لم يلحقْ بدرجتهم، ولا يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق.

وقال رحمه الله تعالى في «شرح المهذب»: وإذا أوِّل كلامهم فيؤول إلى سبعين وجهًا، فإن لم يقبل كلامهم تأويلاً منها فليرجع على نفسه باللوم، ويقول: يحتمل كلام أخيك المسلم سبعين وجهًا، ولا تقبل منه تأويلاً واحدًا ما ذاك إلا تَعنُّدٌ وتعقُّبُ انتهى.

ثم العجب العجيب والأمر الغريب ممن تجرأ على خرق إجماع المسلمين، ووقع في حضرة إمام العارفين، وشيخ شيوخ العالمين صاحب القَدَمِ من القِدَم، غوث البريَّة، قطب العرب والعجم، من خضعت له الرقاب، وشهدت بسلطنته الأقطاب، بحر العلم اللدنيِّ، مولانا الشيخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني، روَّح الله تعالى أروحنا بنفحات روحه، وفتح أقفال قلوبنا بمفاتيح فتوحه، ولا زالت رحمة الرحمن فيَّاضةً على روحه في كل حينٍ وآنٍ، آمين.

وزعم أن قوله رضي الله تعالى عنه وقدَّس روحه: قَدَمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله، قالهُ بحظِّ نفسٍ وهوًى كامنٍ، وحاشاه ثم حاشاه من ذلك؛ بل إذا كان كامنًا في باطنه يظن أن أصفياء الله تعالى مثله منطوون على خبث الضمائر، ومتصفون بالصفات الرذائل، نعوذ بالله العظيم من الخذلان، وسوء الظن بأولياء الله أهل العرفان.

ولقد صدق من قال:

وإذا رأى الإنسانُ نقصًا إنّما ... مرآتهُ تجلي عليه بحالهِ

فإن من قُرِّبَ هذا التقريب وعُرف هذا التعريف ومُكِّن هذا التمكين وصُرِّف هذا التصريف وخضع له رقاب أكابر الأولياء هذا الخضوع ورجع إليه العارفون بالله تعالى هذا الرجوع وزفتّه العناية هذه الزفات المشعرة بعظيم جلالته وضرب له الوجود بمعازف السرور عند رؤية طلعته ورقص الكون جميعه طربًا لظهور ولايته وحَمَلَ بين يديه علم القطبيَّة وتُوِّج بتاج الغوثيِّ، وأُلبس خلعة التصريف العام النافذ في جميع الوجود ومشت أكابر الأولياء من الصدِّيقين والبُدلاء تحت ركابه بأمر الملك المعبود واشتهرت في الجود كراماته وجمعه بين علمي الظاهر والباطن يستحيل أن يكون قال ذلك بحظٍّ نفسٍ وهوًى كامنٍ، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم آياته: ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام:١٢٤]، كيف وقد أجمع على فضله وعلمه وجلالة قدره الخاص والعام من زمنه إلى هذه الأيام! بل قد ذكر العلماء الأعلام أن كراماته قربت من التواتر بين أهل ملة الإسلام، فيكون صدور هذا القول عنه امتثالاً لأمره، ويكون ذلك الأمر تنويهًا بفضله، وبيانًا لعلوِّ شأنه، وتعريفًا للجاهل بكبير قدره، وإرشادًا إلى التعلُّق به، والتوسل برفيع جاهه، وغير ذلك من المصالح.

وقد رُوي في كتاب «**مناقبه**» من طرقٍ كثيرةٍ برواياتٍ شهيرةٍ عن جماعةٍ من المشايخ الأكابر والعلماء الأفاضل والأخيار الثقاة.

واشتهر واستفاض حتى في الجهات البعيدة أنه قال في مجلسه وهو على الكرسي يتكلم على الناس: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وكان في مجلسه حينئذٍ عامة مشايخ العراق، ورُوي أنهم كانوا نحوًا من خمسين شيخًا،

ورُوي نيفًا وخمسين شيخًا، منهم:

الشيخ **أبو النجيب السهروردي**.

والشيخ **قضيب البان الموصلي**.

والشيخ **أبو السُّعود أحمد بن أبي بكر العطاء**.

وغيرهم من المشايخ الأكابر المعدودين.

ورُوي من طرقٍ كثيرةٍ عن خلائق من الأولياء أنه لم يبق أحدٌ من الأولياء في ذلك الوقت من الحاضرين والغائبين في جميع آفاق الأرض إلا حَنى له رقبته إلا رجلا بأصبهان؛ فإنه لم يفعل، فسُلب حاله.

ورُوي أن الشيخ أبا النجيب السهروردي طأطأ رأسه حتى كاد يبلغ الأرض، وقال: على رأسي على رأسي على رأسي، قالها ثلاث مراتٍ، وكان من جملة من حَنى له رقبته من الغائبين الكبار المشهورين: الشيخ أبو مدين المغربي، والشيخ عبد الرحيم القناوي، والشيخ أحمد بن أبي الحسين الرفاعي رضي الله عنهم أجمعين.

فأما الشيخ أحمد الرفاعي: فرووا عنه أنه كان جالسًا يومًا برواقه بأم عبيدة، فمدَّ عنقه وقال: على رقبتي، وفي رواية أنه قال: وحميد منهم، فسُئل عن ذلك، فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله.

وأما الشيخ أبو مدين المغربي: فرووا عنه أنه حَنى رأسه يومًا وهو بين أصحابه، وقال: وأنا منهم اللّٰهُمَّ إني أُشهدك وأُشهد ملائكتك أني سمعت، وأطعت. فسأله أصحابه عن ذلك؟ فقال: قد قال الشيخ عبد القادر الآن ببغداد قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، فأرَّخوا ذلك وهم في المغرب، ثم جاء المسافرون من العراق، وأخبروا أن الشيخ عبد القادر الكيلاني قال ذلك في الوقت الذي أرَّخوه.

وأما الشيخ عبد الرحيم القناوي: فرووا عنه أنه مدَّ عنقهُ يومًا بقنا، وقال: صدق الصَّادق المصدوق. فقيل له: ومن هو؟ فقال: الشيخ عبد القادر الكيلاني قد قال: قدمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله، وتواضع له رجال الشرق والمغرب، فأرَّخوا ذلك الوقت، ثم جاء الخبر بذلك في ذلك الوقت.

ورُوي بأسانيد كثيرةٍ من طرقٍ متعددةٍ عن جماعةٍ من كبار المشايخ أنه لم يقل ذلك إلا بأمرٍ.

منهم: **الشيخ عدي بن مسافر الأموي** قال: إنما وَضَعَتْ الأولياء كلهم رؤوسهم

لمكان الأمر، ألا ترى الملائكة لم يسجدوا لآدم عليه السلام إلا لورود الأمر عليهم.

ومنهم: **والشيخ أبو سعيد القليوي** قال: قالها بأمرٍ لا شكَّ فيه، وهي لِسَان القطبيَّة.

ومنهم: **الشيخ علي الهيتي**: لَمَّا قال الشيخ عبد القادر مقالته تلك صَعَدَ إليه فوق الكرسي، وأخذ قدمه، وجعلها على عنقِه، ودخل تحت ذيله، فقال له أصحابه: فلِمَ فعلت ذلك؟ فقال: لأنه أُمر أن يقولها، وأُذن له في عزل من أنكرها عليه من الأولياء، فأردتُ أن أكون أول من سارع إلى الانقياد له.

ومنهم: **الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرفاعي** قيل له: هل قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذا على رقبة كل وليٍّ لله بأمرٍ أو بلا أمرٍ؟ قال: بلى قالها بأمرٍ.

ومنهم: **الشيخ أبو محمد القاسم** قال: لما أُمر الشيخ عبد القادر بقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله رأيتُ الأولياء بالمشرق والمغرب واضعين رؤوسهم تواضعًا إلا رجلاً بأرض العجم فإنه لم يفعل، فتوارى عنه حاله.

ومنهم: **الشيخ حياة بن قيس الحرَّانِي** قال: قد غشانا زمانٌ مديدٌ في ظلِّ حماية سيئات الشيخ عبد القادر الكيلاني وشَرِبنا كؤوسًا هنيئةً من مناهل عرفانه، ولقد كان النفس الصادق يصدر عنه، فيبسط من شعاع نوره في الآفاق استطارة النار، فيقتبس منه الأسرار أصحاب الأحوال على قدر مراتبهم، ولما أتاه الأمر بقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله زاد الله جميع الأولياء نورًا في قلوبهم، وبركةً في علومهم، وعلوًّا في أحوالهم بسبب وضعهم رؤوسهم.

ورُوي بأسانيد صحيحة متعددةٍ كثيرةٍ عن جماعةٍ من الشيوخ الكبار أنهم أخبروا عنه أنه سيقول مقالته تلك قبل أن يقولها بسنين كثيرةٍ، بعضهم قال ذلك بنحو مائة.

منهم: **الشيخ عبد الله الجونيُّ** روى عنه الشيخ الإمام أبو يعقوب يوسف بن أيوب الهمدانِي قال: سمعت شيخنا أبا أحمد عبد الله بن علي الجوني سنة أربعٍ وستين وأربعمائة يقول: أُشهدت أنه سيولد بأرض العجم مولودٌ، له مظهرٌ عظيمٌ بالكرامات، وقبولٌ تامٌّ عند الكافة، ويقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، ويندرج الأولياء في وقته تحت

قدمه ذلك الذي يشرق به زمانه، وينتفع به من رآه.

ومنهم: **الشيخ تاج العارفين أبو الوفاء** قال لمن حضره لما أتى الشيخ عبد القادر لزيارته وهو شابٌّ: قوموا لوليٍّ الله، وربما يمشي إليه في وقت خطوات، وكان الشيخ عبد القادر يتكرَّر إليه، فلمَّا تكرَّر منه قوله: قوموا لوليٍّ الله قال له أصحابه في ذلك، فقال لهذا الشاب وقت إذا جاء افتقر إليه فيه الخاص والعام، وكأنِّي أراه قائلاً ببغداد على رؤوس الأشهاد وهو محقٌّ: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، فتوضع له رقاب الأولياء في عصره؛ إذ هو قطبهم، فمن أدرك منكم ذلك الوقت فليلزم خدمته.

ومنهم: الشيخ عقيل المنيحي[1] **قُدِّس سرُّه** سُئل عن القطب في وقته؟ فقال: هو في وقتنا هذا بمكة مخفيٌّ لا يعرفه إلا الأولياء، وسيظهر هنا، وأشار إلى العراق.

وهو شريفٌ يتكلَّم على الناس ببغداد، يعرف كراماته الخاص والعام، وهو قطب وقته، يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وتضع له الأولياء رقابهم، ولو كنتُ في زمانه لوضعت له رأسي، ذلك الذي ينفع الله به مَنْ صدَّق بكراماته من سائر الناس.

ومنهم: **الشيخ علي بن وهب البخاري قُدِّس سرُّه قال**: إن الله تعالى قد نوَّر الوجود بظهور رجلٍ اسمه عبد القادر، مظهره في العراق، يقول ببغداد: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، ويقرُّ أولياء عصره بفضله.

ومنهم: الشيخ حَمّاد الدبَّاس قُدِّس سرُّه قال الشيخ أبو النجيب عبد القادر السهروردي: كنت عند الشيخ حمَّاد بن مسلم الدبَّاس ببغداد سنة ثلاث وخمسمائة، والشيخ عبد القادر يومئذ في صحبته، فجاء، فجلس بين يديه متأدِّبًا، ثم قام، فسمعت الشيخ حمَّاد يقول بعد قيام الشيخ عبد القادر لهذا العجمي: قدمٌ تعلو في وقتها على رقاب الأولياء في ذلك الوقت، وليُؤمرنَّ أن يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، وليقولنَّ،

---

(١) نسبة إلى منحة من قرى دمشق بالغوطة، وقيل: المنبجي: نسبة على منبج، وانظر: معجم البلدان لياقوت (٥/٢٠٥)، والطبقات الكبرى للشعراني (١/١١٧)، والكرامات للنبهاني (٢/١٥٣).

ولتوضعنَّ له رقاب الأولياء في زمانه.

وقد سَبَقَ قول الغوث في قصة ابن السقَّا، ومما أخبر به جماعةٌ من المشايخ الكبار أهل الكشف والأنوار والمعارف والأسرار قدَّس الله تعالى أرواحهم عن هيئة الحال، لما قال الشيخ عبد القادر ذلك المقال.

منهم: **الشيخ أبو سعيد العز بن أحمد القيلوي قال:** لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله تجلّى الحق سبحانه وتعالى على قلبه، وجاءته خُلعةٌ من رسول الله ﷺ على يد طائفة من الملائكة المقرَّبين والبهاء بمحضرٍ من الأولياء من تقدَّم منهم ومن تأخَّر، الأحياء بأجسادهم، والأموات بأرواحهم، وكانت الملائكة ورجال الغيب حافِّين بمجلسه، واقفين في الهواء صفوفًا حتى انسدَّ الأفق بهم، ولم يبقَ وليٌّ لله تعالى في الأرض إلا حَنَى عنقه.

ومنهم: **الشيخ بقا بن بطو قُدِّس سرُّه** قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله قال الملائكة: صَدَقت يا عبدَ الله.

ومنهم: **الشيخ عدي بن مسافر الأموي** قُدِّس سرُّه، والشيخ أحمد الرفاعي قُدِّس سرُّه روى عن الشيخ عدي أنه لما ذكر بين يديه الشيخ عبد القادر قال: بخٍ بخٍ، ذلك قطب الأرض، وضع ثلاثمائة وليٍّ لله، وسبعمائة غيبي، ما بين جالسٍ في الأرض ومارٍّ في الهواء، ممتدة أعناقهم له في وقتٍ واحدٍ حين قال: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله.

قال الراوي: فعظم ذلك عندي، ثم بعد مدة أتيت أم عبيدة؛ لأزور الشيخ أحمد بن الرفاعي، فذكرت له ما سمعت من الشيخ عدي، قال: صَدَقَ الشيخ عدي.

ومنهم: الشيخ ماجد، والشيخ مطر قُدِّس سرُّهما روي عن الشيخ ماجد أنه قال: لما قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله لم يبقَ لله وليٌّ في الأرض في ذلك الوقت إلا حنى عنقه تواضعًا له، واعترافًا بمكانته، ولم يبقَ نادٍ من أندية صالحي الجن من جميع الأقطار في الآفاق في ذلك الوقت إلا وفيه ذكر ذلك، وقصدته وفود صالحي الجن من جميع الأقطار مسلِّمين عليه، وتائبين على يديه، وازدحموا في بابه.

قال الراوي: فأتينا إلى الشيخ مطر؛ لزيارته وفي أنفسنا أعظام ما سمعناه من الشيخ ماجد، فلمَّا دخلنا عليه رحَّب بنا.

وقال: صدق أخي الشيخ ماجد فيما أخبركم به عن الشيخ عبد القادر.

ومنهم: **الشيخ مكارم قدَّس سرُّه** قال: أشهدني الله ﷻ أنه لم يبقَ أحدٌ ممن عقد له الولاية في أقطار الأرض أدناها وأقصاها إلا شاهد علم القطبية محمولاً بين يدي الشيخ عبد القادر، وتاج الغوثية على رأسه، ورأى عليه خلعة التصريف النافذ في الوجود وأهله ولايةً وعزلاً معلمةً بطرازي الشريعة والحقيقة، وسَمِعْتُهُ يقول: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، ووضع رأسه، وذلل قلبه له في وقتٍ واحدٍ حتى الأبدال العشرة.

قال الراوي: قلت: مَنْ هم؟ قال: الشيخ بقا بن بطو، والنهرملكي، والشيخ أبو سعيد القليوي، والشيخ علي بن الهيتي، والشيخ عدي بن مسافر الأموي، والشيخ موسى الزولي، والشيخ أحمد الرفاعي، والشيخ عبد الرحمن الطفسونجي، والشيخ محمد بن عبيد البصري، والشيخ حيَّاة بن قيس الحرَّاني، والشيخ أبو مدين المغربي قدَّس الله تعالى أرواحهم أجمعين.

ومنهم: **الشيخ خليفة قُدِّس سرُّه**، وكان كثير الرؤيا للنبي ﷺ.

روى عنه الشيخ أبو القاسم بن أبي بكر بن أحمد بن أبي السعادات البندينجي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد قال الشيخ عبد القادر: قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله. قال: صدق الشيخ عبد القادر، كيف لا وهو القطب وأنا أرعاه!.

فهذه نُبذةٌ يسيرةٌ مما يتعلق بقول الشيخ عبد القادر قُدِّس سرُّه مقالاته المذكورة، وقد أضربت عن أشياء كثيرةٍ مما يتعلق بذلك ومما يدل على عظمة فضله وجلالة قدره، ضربت وحذفت الأسانيد للاختصار، ولا حاجة إليها أيضًا؛ لكثرة ما في ذلك من الأشهار، وقد ذكر بعض أهل العلم أن كراماته قربت من التواتر يعني: قرب حصول العلم بوجودها من العلم القطعي الحاصل بكثرة الرواة البالغين حدَّ التواتر المعروف؛ لكثرة المخبرين عنها.

وبالجملة: فهذا الذي ذكرته مِنْ فضله، وإن عظم فهو قطرةٌ من بحر فضائله، أو غبارٌ من رمال ساحله.

وقد رُوي بالسند الصحيح عن الشيخ أبي الرضا محمد بن أحمد بن داود البغدادي المعروف بالمقيَّد قال: كنت كثيرًا ما أتوقع من أسئلة عن شيءٍ من صفات القطب، فدخلت أنا والشيخ أبو الخليل أحمد بن أسعد بن وهب بن علي المقري إلى جامع الرُّصافة، فوجدنا فيه الشيخ أبا سعيد القيلوي، والشيخ على الهيتي، فسألت الشيخ أبا سعيد عن ذلك؟ فقال: إلى القطب انتهت رئاسة هذا الأمر في وقته، وعنده تُحط رحال جدالة هذا الشأن.

قلت: فمن هو هذا؟ قال: هو الشيخ عبد القادر الكيلاني، فلم أتمالك أنا، وثبتُ، ووثبوا كلُّهم؛ لنحضر مجلس الشيخ عبد القادر، ولا تقدَّم منا أحدٌ ولا تأخَّر ولا تفرَّقنا وما منَّا إلا مَنْ يشتهي أن يسمع شيئًا في هذا المعنى، فوافيناه يتكلم، فلمَّا استقر بنا المجلس قطع كلامه، وقال: إني للواصف أن يبلغ وصف القطب ولا مسلك في الحقيقة إلا وله فيه مأخذٌ مكينٌ، ولا درجة في الولاية إلا وله فيها موطئٌ ثابتٌ، ولا مقام في النهاية إلا وله فيه قدمٌ راسخٌ، ولا منازلةٌ في المشاهدة إلا وله منها مشربٌ هنيءٌ لا يشقى جليسه، ولا يغيب شهوده، ولا يتوارى عن حاله بشرٌ تابعٌ له حدٌّ ينتهي إليه، ووصفٌ ينحصر فيه، وتكلُّفٌ يجب عليه.

ثم أنشد بعد كلامٍ طويلٍ في ذلك من غير ترنُّمٍ ولا أغان:

مــــا في الصبابةِ منهلٌ مستعذبٌ	إلا ولــي فــيه الألــذُّ الأطيبُ
أو في الوصــالِ مكانــةٌ مخصوصةٌ	إلا ومنـــزلــتي أعـــزُّ وأقـــربُ
وهبـــتْ لِـــي الأيامُ رونقَ صفوها	فَحَـــلاَ مناهلها وطاب المشربُ
وغـــدُوتُ مخطوبًـــا لكـــلِّ كريمة	لا يهـــتدي فيها اللبيبُ ويخطبُ
أنـــا مِـــنْ رجالٍ لا يخافَ جليسُهم	ريـــبَ الزمانِ ولا يرى ما يُرهِـبُ
قـــومٌ لهـــم فِـــي كلِّ مجدٍ رتبةٌ	علويَّـــةٌ وبكـــلِّ جيشٍ مَوكبُ
أنـــا بلـــبلُ الأفـــراحِ أملأُ دوحَها	طـــربًا وفي العلـــياء بانٍ أشهبُ
أضحتْ جيوشُ الحبِّ تحت مَشيئتي	طوعًـــا ومهمـــا رمته لا يعزبُ

أصبحتُ لا أملاً ولا أمنيةً ... أرجو ولا موعودةً أترقبُ
ما زلتُ أرتعُ في ميادين الرِّضا ... حتَّى وُهبتُ مكانةً لا تُوهبُ
أضحى الزمانُ كحُلةٍ مرقومةٍ ... تزهو ونحن لها الطرازُ المُذْهَبُ
أفلَتْ شموسُ الأوَّلينَ وشمسُنا ... أبدًا على فَلَكِ العُلا لا تغربُ

ثم قال: كل الطيور تقول ولا تفعل، والبازي يفعل ولا يقول، ولأجل هذا صار أكفُّ الملوك سُدَّتَهُ، فقال إليه الشيخ أبو منصور بن المبارك الواعظ المعروف بجرادة.

وأنشد يقول:

بكَ الشهورُ تُهنَّا والمواقيتُ ... يا مَنْ بألفاظه تغلو اليواقيتُ
البازُ أنت فإنْ تفخرْ فلا عجبَ ... وسائرُ النَّاسِ في عيني فواختُ
وأشمُّ من قدميكَ الصدقَ مجتهدًا ... لأنَّه قدمٌ في نعله الصيتُ

فقام الشيخ علي بن الهيتي وَقبَّل قدم الشيخ عبد القادر، قال: فكتبنا المجلس عندنا وحفظنا ما وقع فيه.

قال الموصلي: وقد أوَّل بعض العلماء قوله قُدِّس سرُّه:

قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله، فقال: المراد بذلك شريعتي وعلمي الذي هو شريعة محمَّد ﷺ، كما يُقال: القدم على القدم: أي العلم على العلم، والله أعلم.

قال اليافعي في كتابه «نشر المحاسن»:

اعلم وفَّقنا الله تعالى وإيَّاك لفهم الحق واتِّباعه وَجَعَلنا جميعًا ممن انتفع به ونفع الغير بانتفاعه أن القوم وردوا بحرًا ليس له ساحلٌ، وكل أحد من المنكرين عليهم من ذلك المورد ما حلٌّ، وبما فيه من جواهر المعارف والأسرار والحِكَم جاهلٌ، وسُقوا بكؤوس الوصل راح المحبة التي لم يشمَّ ريحها مَن لم يقضِ من قتل نفسه بحبِّه، فأخذ ينكر عليهم مَنْ لم يعرف تلك الجواهر التي لا يعرفها إلا من هو في ذلك البحر ماهرٌ؛ وذلك لجهله بالأسرار التي في تلك المعارف، والرَّاح التي في تلك المغارف.

فإن الشَّطح الصادر عنهم منه ما وقع منهم في حال السكر والغيبة بواردات الأحوال، والسُكر سببٌ مباحٌ يُسقط التكليف بالشرع بالشرط المعروف في كتب الفقه، ومنه ما صدر منهم على سبيل الحكاية عن الله ﷻ.

قال الشيخ شهاب الدين السهروردي في «عوارف المعارف»:

وما يُحكى عن أبي يزيد قوله: (سبحاني ما أعظم شاني) أن يعتقد في أبي يزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله ﷻ.

قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله: (أنا الحق)[1].

وممن قال أن هذا القول صَدَرَ عنه في حال السُكر الشيخ عبد القادر الكيلاني، ومنه ما أمروا به، فصدر عنهم امتثالاً للأمر، ويكون ذلك الأمر تنويهًا بفضلهم، وبيانًا لعلوّ

---

(١) قلت: وقيل لأبي القاسم الجنيد قَدَّس الله روحه: إن أبا يـزيد يسرف في الكلام. قال: وما بلغكم عن إسرافه في كلامه؟ قيل يقول: «سبحـاني سبحـاني ما أعظـم شانـي».

فقال الجنيد: إن الرجل مستهلكٌ في شهود الإجلال، فنطق بما استهلكه؛ لذهوله في الحق عن رؤيته إيَّاه، فلم يشهد إلا الحق تعالى، فنعته، فنطق به، ولم يكن من علم ما سواه ولا من التعبير عنه ضنًّا من الحق به، ألم تسمعوا مجنـون بني عامـر لما سئل عـن اسم نفسه؟ فقال: ليلى، فنطق بنفسه، ولم يكن من شهوده إيـَّاه فيه، وقيـل لـه: من أنـت؟ قال: أنا من ليلى ومن ليلى أنا. وانظر: روضة الحبور ومعدن السرور في مناقب الجنيد وأبي يزيد طيفور (بتحقيقنا).

وقال الشيخ أبو النصر السراج رحمه الله: وقد قصدت بسطام فسألت جماعة من أهل بيت أبي يزيد عن هذه الحكاية فأنكروا ذلك، وعلى تقدير صحة ذلك، فنقول: قوله سبحاني سبحاني على معنى الحكاية عن الله ﷻ أنه يقول: سبحاني سبحاني لأنا لو سمعنا رجل يقول: لا إله إلا أنا فاعبدني، لا يختلج في قلوبنا شيء غير أنا نعلم أنه هو ذا يقرأ القرآن، أو هو يصف الله بما وصف به نفسه، وكذلك لو سمعنا دائما أبا يـزيد وغيره وهو يقول: سبحاني سبحاني، لم نشك أنه يسبح الله ويصفه بما وصف به نفسه.

وكذا قال: الشيخ شهاب الدين السهروردي في العوارف: وما يحكى عن أبي يـزيد قوله: سبحاني حاشا لله أن يعتقد في أبي يـزيد أنه يقول ذلك إلا على معنى الحكاية عن الله تعالى.

قال: وهكذا ينبغي أن يعتقد في الحلاج قوله أنا الحق. وانظر: كتابنا في الإمام الجنيد قدس سره.

شأنهم، وتعريفًا للجاهل بكِبَر قدرهم، وإرشادًا إلى التعلُّق بهم، والتوسل برفيع جاههم، وغير ذلك من الصالح، ومن ذلك قول الشيخ عبد القادر الكيلاني قُدِّس سرُّه:

«قدمي هذه على رقبة كل وليٍّ لله».

وشطحات المشايخ كثيرةٌ جدًا، فكل ما بلغك عن أحدٍ منهم مِنْ شطحٍ فاحمله على أحد المحامل المذكورة على حسب ما يليق بحاله تسلم وتغنم إن شاء الله تعالى انتهى.

* * *

أنوار النبي ﷺ

أسرارها وأنواعها

تأليف

الشيخ الإمام القطب عبد الحق بن سبعين المرسي الأندلسي
(المتوفى سنة ٦٦٩ هـ)

إعداد

الشيخ أحمد فريد المزيدي

دار الآفاق العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة في أنوار النبي ﷺ

قال الشيخ ابن سبعين قدس الله سره:

الحمد لله الذي بنوره يعلم ويعبد، وبحضوره يعرف ويشهد، الذي خلق النيِّرات والنجوم المسخرات، وأودع الأرواح سر عهده الأول الأوصل، وذكرها صورة المفارق للمواد، وجعل القلوب مظاهر ملكه الأكمل، وزينها بالعلوم والعقل المستفاد، وجعل طريقة خليله إبراهيم عليه السلام بما ظهر من الأنوار لعالم الإنسان، وطريقة حبيبه محمد ﷺ بما بطن من الأسرار، وخصَّه بمقام الإحسان فكان ذلك مريدًا وكان هذا مرادًا، ثم إنه مات وصحفت صحفه كما صحفت صحف موسى، وهذا بالضد تُوفي ﷺ، وعاشت شريعته، والذي كان مبدًا في حياته ﷺ اجتمع بعد مماته، ولا تركته العناية حتى جعلت من الرسل من يتبعه وهو عيسى عليه السلام.

فلمَّا أبصرت هذه العناية الكبرى، وحققت أن كل درجة بالنظر إلى درجته هي النعمة الصغرى حتى عظم أمره في الدنيا، وأكبر أمره هي في الأخرى.

وإذا أبصرت من آياته ما أبصرت نبهتك، ثم أتتك بعدها أخرى اجتمعت في نفسي، ونزعت بالجملة إلى حضرة جلالته حتى إني غبت بذلك عن حسي، وأهملت معاشرة جنسي، واشتدَّ بالغلو في صلاته أنسي.

قلت عن غائب عينه إرساله وزاجر أكده إجلاله:

يأيها الإنسان! والمراد بهذا الجنس وله أقصد بالخطاب ولا أبالي على أي حال كان فإن الحقائق إذا تعينت، ونور الله إذا كان مظهره الأفضل هو به على الوجه الأكمل والقدر الأوصل.

قيل فيه بحسب الطاقة: فمن مسلم ومن ضده ومن عاش ومن مبصر ومن موفٍ ومن مُقصِّر من ذلك، ومن مقتصد، ومن مطفف، ومن مجتهد.

وقد خرج بنا الكلام إلى غير الذي قصدناه بالقصد الأول، وبالقصد أيضًا كان.

فنرجع فنقول:

يا هذا المسلم النور قد استولى وتراكم بالغرض، وزاد حتى غلب الكمية والكليات بل الخطوط المتوهمة، حتى إنه يفوت ما يُقال وما يتوهم وما يعلم ويقدر، ولا تلحقه لمبالغة الإعياء، والناس في تصوره على أنحاء وعلى مراتب، وبقدر نصيب كل، وعادة الله تعالى في عباده أن ما من عليم إلا وفوقه عليم، وما من حكيم إلا وفوقه من هو منه أحكم، وفوق الكل أحكم الحاكمين العليم الحكيم، ثم انقسم اعتقاد الجهال على أربعة أقسام.

والذي يرجع إلى حاصل ما يعتقدون ويقولون فيه، أعني في نور النبوة والمقام المحمدي على أنحاء.

فنترك الكلام على المخالف لنا إلى موضوع آخر، ونتكلّم على مراتب أمته ﷺ، وخصوصًا على المعنى الحاصل المعلوم منهم، من حيث النار هذه ومن طالع ظهورها.

فنقول: هم أربع درجات، وبينهما طبقات دون كذا، وعند كذا منها بالنسبة إلى كل واحد، فالذي في الدرجة الأولى هو الذي يقول: أنا أعتذر وأستخرج في ذلك العجائب، وأصرف الأمور إلى مراتبها الأولى.

والثاني الذي يتلوه في الدرجة الثانية هو القائل: ما هذه إلا مصيبة أو شبهة يثقب فيها مع المخالف لنا في المسألة، لكنه إنا لله وإنا إليه راجعون.

والثالث الذي بينهما هو القائل: هذا ينبغي أن يُكتم ولا يُتكلم به؛ فإنه يخاف مما يعود على العوام به.

والرابع هو الذي يقول: هذه مصيبة أُصيب بها عين الإسلام، ويالها من كائنة ما أصعبها، وكأنها ثانية لنفخة الصعق أو هي أختها، هذه مبطلة، هذه قاصمة الظهر، هذه غير هينة.

والذي يجد الأسف ولا يعلل هو يمتد في الأولى إلى الثانية، والذي يضحك ولا يعلم ما أمره في ذلك بالجملة، وكأنه غير معتبر عنده إلا من حيث أنه يقول إذا سمع القول فقط، وما يشعر النفس بأمر يُوهم أو يحرك، وهذا يمتد مع الثانية إلى الثالثة، والذي يقول هذه

من الشروط، وإذا كان الله يفعل هذا بحبيبه فما يفعل بغيره، يفعل ذلك من قبل الموعظة.

والجميع من ذكر يضحك منهم العلم، وتبكي عليهم المعرفة(١)، ويهملهم التمكين(٢)، ويحملهم التحقيق(٣).

فاعلم أنت وأهل الدرجات أن نور السموات والأرض رسول الله ﷺ، مظهره ومشكاة مصباحه ووحيه زيتونة زيتها، ثم هو نفسه نور الله، وكذا وحيه ومعجزاته وآياته، ومجموعة ما قال في ذلك وبعد نور النبوة واتصافه بها.

وقوله ﷺ: **«اللهم اجعل لي نورًا في قلبي ونورًا في جسمي ونورًا في شعري(٤)»**، وتتبع جوارحه كلها كذلك.

ثم قال ﷺ: **«واجعلني نورًا»**.

ثم كان ﷺ يذكر الله في كل زمان فرد، والقرآن من أسمائه النور، وكان يتلوه وعليه أُنزِلَ بالملك تارة، وتارة من حيث روعه الداخل، ثم طلب الرفيق الأعلى عند موته، ومحل الأنوار وروحه هناك يتنعم، فهذه أنوار معها أنوار، وأنوار بعد أنوار وقبل أنوار، ثم أنوار لا نهاية لها، ثم نور الله الذي لا يُحَد ولا يكيَّف، لا يفوته في روحه وعقله وحسه وخياله وجميع مواده الباطنة والظاهرة، ثم أنوار آيات تُلحق بذاته ينبغي أن يُقال لا نهاية لأنواره. ثم إذا نظر إلى مضافها وإلى مشارها بالجملة وإلى جملة ما هو عليه لا ينبغي للعاقل إلا أن يقول: **﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾** [المائدة:٥٥].

---

(١) قال سيدي محمد وفا: المعرفة هي أعلى مراتب العلم الثلاثة؛ لاستغناء موصوفها في حصول ما تعلّقت به عن إعمال النظر الصحيح، وهذا هو حق اليقين، وحقيقتها: وجودٌ ينتفي معه وَهْمٌ مرجوحٌ وظنٌّ راجحٌ والشكُّ المتساوي، وغايتها: تعلق العلم بمعلومٍ ذاتيٍّ لموصوف مغايرة من عينٍ واحدةٍ الذي لا يستقل غيره بنفسه دونه اهـ.

(٢) قال سيدي محمد وفا: التمكين: رسوخ القدم في حضرات الفعل.

(٣) التحقيق: هو ما يحصل معه القطع الذي يستحيل معه وجود النقيض، وحقيقته: وجدان وجودٍ في كشفٍ يستحيل معه الستر الموجب لتوهم الغيب، وغايته: بلوغ يوجب الوقفة؛ لاستحالة توهمِ مطلوبٍ سيحصل انتهى.

(٤) رواه الترمذي (٥/٤٨٢).

وبعد هذا كله لو سمعت من المحققين من أمته: ما هي الأنوار؟ وإلى كم تنقسم؟ وما المراد بها؟ وما عالمها وكونها؟ هي عندهم عوالم الاتصال الثلاث، والكمال الثاني، وبعد هذا كلامهم فيها.

وفي التجليات هو المطلب الأقصى للمباحث، والمتألّه بالأمر الخاص العزيز، ولهم ما هو أعلى، فكيف لسيدهم الذي هو السبب لذلك كله، وهو الصورة المفيدة لذلك، ومما يصلون إليه حتى أنهم يضحكون من الأنوار العقلية التي يشعر بها اصطلاح الحكماء! وكذلك يعللون مراتب المثل المعلقة بعد الطبيعة بالجملة، وأنوار التولد والاستدلال، وغير ذلك بالكلية، والأنوار الحادثة في النفوس الجزئية، وكذلك يسخرون بالأنوار المضافة بعد علم الثالوجي[1]، علم الوحدة، وعلم أحكام التوحد هناك.

ولهم في الأنوار جملة مقاصد ما هي قبيل من يذكر عندهم، فإن أضعف أنوارهم عواشق الأفضل ممن تقدم.

فاعلم أني قلت ذلك لكي تتنبه.

وأما أنوار المقامات والأسماء عندهم ثم الأنوار الباطنة والخلافة الآلية[2]، ونور الإحاطة، ونور التقدير المثالي، ونور التعرض الذي يصحب لصاحبه السكينة، ثم نور الله الذي إذا فرض دائرة وضعية كان الحق المحض ذات المقدر الواقف.

فاعلم يا هذا مَنْ يكون الضعيف من أمة محمد ﷺ، يجد أن هذا عين المحبوب الأعز عنده، ثم يطلب له بيان حال مجده، إن كان يريد أن يبين ذلك ببرهان فهو صاحبه بالجملة، وإن كان يريد أن يبينَ البين فهو يتحرك في سلسلة جنونه، وينوع السخف، ويقسم أشخاص فنونه، وإن كان على جهة أن يُقال هذا يقول: وهذا ينطق بكذا، ويروم أن يحمد، فقد قصم ظهر قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]، فمن أمر من أجله رجال الله ألا يرفعوا أصواتهم، فكيف يسمح به أن يتهم أن يدبر بغير

---

(١) أي علم الإلهيات.

(٢) أليّ أي: إلهي من تجلّي الحق تعالى ولا نهاية للتجلّي فلا نهاية للعلم.

بجده الإلهي؟! أعوذ بالله من الحرمان، التوبة يا غير خبير! التوبة يا غبي الذات! التوبة يا غافل! التوبة يا غالط! التوبة يا جاهل! التوبة يا ضعيف المجموع! وسلام على من اتبع الهدى.

القول على أنواع أنوار رسول الله ﷺ

اعلم أن أنواره ﷺ تختلف باختلاف متعلقاتها ومضافاتها، ومن حيث الأقل والأكثر، والأشد والأضعف، هذا بالنظر إلى نوع النوع لا أنها تنقص أو تضعف من حيث أنها أنوار إلا بأمر يلحقها في نفس الأمر.

فمن ذلك:

- نور عزته.
- ثم نور الغاية الإنسانية.
- ثم نور الإدراك.
- ثم نور النبوة.
- ثم نور النشأة.
- ثم نور السابقة.
- ثم نور التشريف.
- ثم نور التدلل.
- ثم نور التركيب.
- ثم نور المولد.
- ثم نور الخلقة.
- ثم نور التربية.
- ثم نور الانتقال.
- ثم نور النهاية.

- ثم نور التضمن.
- ثم نور العادة.
- ثم نور التسخير.
- ثم نور الاتباع.
- ثم نور اللواحق.
- ثم نور الجاه.
- ثم نور الخطابة.
- ثم نور المقايسة.
- ثم نور التفضيل.
- ثم نور الإحاطة.
- ثم نور الحصر.
- ثم نور الكشف.
- ثم نور التزكية.
- ثم نور المكانة الكبرى.
- ثم نور الانفراد.
- ثم نور الذّكر والعلامة.
- ثم نور العلانية.
- ثم نور الخصوصية في أول حاله.
- ثم نور الخير المحض.
- ثم نور اللواء.
- ثم نور العبودية.

فأما النور الأول: وهو **نور العزة**: فهو نور الشهادة التي تقال مع شهادة الله: هذا كشف عن عزته عند الله، ومنها أيضًا في جملة أحكام أمته ﷺ فيها يتبع كالتشهد في الصلاة والآذان .

وأما الثاني: وهو **نور الغاية الإنسانية**: فهو شأنه الذي كان ليلة الإسراء، فإن الأنبياء خير البشر جاز عليهم في السموات، ثم تركهم وقطع عوالم الملأ.

فهذه نورانية كشف بها أنه وصل الغاية وبلغها ثم وصل إلى محل الكروبيين ثم إلى أكثر ثم إلى آخر العمارة الروحانية والجسمانية.

وأما النور الثالث: وهو **نور الإدراك**: فإنه أدرك الله وأَبْصَرَه على أي نوع كان وعلى أي مذهب إن كانت العلمية أو الأخرى ثم كان يبصر من خلفه ﷺ كما كان يبصر من أمامه، وأيضًا إدراك الجنة قبل موته.

وأيضًا كوشف عن الذي في قبره يُعَذَّب، وأيضًا كُشف له عن الجنة في عرض الحائط. وأيضًا أبصر الملك على صورته التي خلق فيها ثم على أنحاء بعد ذلك هذا نور كشف له عن أعز المدركات كلها.

وأما النور الرابع: وهو **نور النبوة**: فهو ما له ظهر من الآيات وما تحدّى به من المعجزات، ثم ما أدرك من النوع الأكمل. هذا كشف له به عن مقام النبوءة وأظهر الله به قدره ومكانه.

وأما النور الخامس: وهو **نور النشأة**: فهو الذي كشف له مكانته وعناية الله به وحفظه وما فعلت الملائكة به وتطهيره وشق بطنه واتصافه بما يجب وكونه كان يتيمًا محفوظًا حتى إن أمه الأولى حدثت عنه ﷺ أنه كان يسبح في بطنها وعند ولادته تَغْني وبعدها وأمه أعني أم تربيته كذلك كانت تقول إذا أكلت الطعام المختلف فيه لا يشرف لبنها. وجملة الأمر كان بمجموع قرائن أحوال رسول الله ﷺ.

وأما النور السادس: وهو **نور السابقة**: فكونه في الأول أريد بذلك، فإنه قد أخبر أنه سيد ولد آدم، وكان وكل ذلك عن الله، وخبر الله لا يتغير، وكذلك علمه لا يتبدل

وأيضًا كونه قال: «**كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين**» فكشف له هذا الطين أنه كان مشتهر ما بين الأنبياء في الأزل قبل الكون وأظهر أنه نبيٌّ، وهو ممكن الوجود وقبل كونه وهذه أيضًا سابقة ثانية، وكذلك اسمه في اللوح إذا أرادت الملائكة ترحم عباد الله وتدعو الله فيهم لكي يدفع أو يرفع عنهم العذاب النازل – قصدوه وتوسلوا له به.

ذكر ذلك ابن شوع ورفعه إلى أبي بكر الصديق ﷺ.

وأما النور السابع: وهو **نور التشريف**: فهو النور الذي كشف له عن الخصوصية الملكوتية ورسم اسمه مع اسمه في اللوح وكتب بالنور .

وأما النور الثامن: وهو **نور التدلل**: كشف له عن مقام القرب وهو قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى**﴾ [النجم:٨] لأمر .

وأما النور التاسع: وهو **نور التركيب**: فهو الذي انكشف له به عن الغاية العظمى في التوحيد فإنه كان إذا فكر في الموجودات ثم في النظام القديم ثم في سر القدر ثم في الأمور العالية كان يُغان على قلبه إذا ركب هذه المعلومات العزيزة .

وأما النور العاشر: وهو **نور المولد**: فإنه كشف له عن سعادة مولده بالبرهان الفلكي الإلهي السماوي فإنه كان له نصبة عجيبة لم يبصر قط في أيام العالم مثلها ثم ظهر يوم مولده في الآفاق مائة معجزة منها خمود نار فارس وانشقاق إيوان كسرى وزلزلة أبداد الهنود.

وأما النور الحادي عشر: وهو **نور الخلقة**: فكان ﷺ يظهر بين عينيه النور الذي لا يخفي على أحد حتى إن من العرب من كان يغنيه في إيمانه عن طلب المعجزة والآية منه. ومع ذلك أيضًا النور في تبسمه وفي جبينه كما حدثت عائشة رضى الله عنها. وفي موضوعه كله. ولما كلامه وأفعاله وحركاته كل أكوانه وما ظهر من خلقه، وما بطن من مجموعة أنوار هذا في أصل وضعه. وكيف، وهو أيضًا قد قال اللهم اجعلني نورًا بعد ما عدد أجزاء بدنه ﷺ وهذا كشف له أنه النور بل نور النور الروحاني والجسماني.

وأما النور الثاني عشر: وهو **نور التربية**: فما كشف له عن العناية الحافظة له والعصمة

الإلهية التي لا يشترط فيها العقل وأسباب التكليف والعلامات مثل السحابة التي كانت تظله، وما ظهر في بنيان البيت ومصارعته لأبي جهل هذه كلها أنوار كاشفة لأمور خارقة للعادة.

وأما النور الثالث عشر: وهو **نور الانتقال**: فهو النور الذي كان يبصر في عين أبيه وأمه، وما سمع في ذلك بعد ما حملت به أمه، وكونه ﷺ ورث ذلك منهم بعد ولادته ﷺ وانتقاله من الظهر الظاهر إلى الظهر الطاهر وحكى أبو الفضل عياض أنه كان كل من تقدم من آبائه ﷺ إذا أوقع في الرحم ما أودع الله تعالي في ظهره من نطفة المصطفي ﷺ يجد الفراغ والكسل وتختل عليه أحواله كلها حتى جاهه في الناس، هذا بالنظر إلى مكانه الأول وهذا النور كشف له عن نورانية نُطْفَته ﷺ.

وأما النور الرابع عشر: وهو **نور النهاية**: فهو نور الله تعالى الذي ختم به النبوة وانتهي الأمر عنده، وصور التكميل بالجملة. وهذا أظهر له ﷺ أنه خير الرسل. فإنه نسخ ما ظهر أنه صاحب نهاية الأمور الذي يرجع إليه والكامل الذي لا يمكن أن يزاد فيه ولا ينقص منه .

وأما النور الخامس عشر: وهو **نور التضمن**: فهو الذي كشف له به أن الذي كان عليه أسهل وأكمل من الذي سلكه أبوه إبراهيم عليه السلام فإن هذا كان في أمره كالمختار المحبوب وأبوه كالطالب المجتهد. وقصة انتقال إبراهيم عليه السلام تعلمك بالحال.

وأما النور السادس عشر: وهو **نور التسخير**: فهو كشف له ﷺ أنه الغاية في السموات والأرض وأن القمر انشق له والكواكب سخرت لحفظ نظام ملته وتلك أيضًا معجزة ظهرت في مدة ملته ﷺ وهي باقية وغفل عنها كثير من الناس وهي الشهب التي ترسل على الشياطين. وما ذلك إلا بركة كتابة ولأجل موضوعه وكذلك الملائكة من تسخيره وخدمته، فإنها تكتب فضائل أمته ﷺ وقاتلت معه ﷺ، وإلى الآن أولياء أمته في منادمتهم ومخاطبتهم مشافهة، وكذلك الصور الروحانية كلها.

وهذا نور كشف له أنه المدلل في السموات والأرض، وفي كل العوالم.

وأما النور السابع عشر: وهو نور **العادة**: فإنه أظهر في أيام الدنيا وأيام العالم وأيام الدين من العدل وصلاح الأحوال وسياسة المنـــزل والتدبير المحمود، فأظهر له أنه الحكيم الأعظم.

وأما النور الثامن عشر: وهو **نور الأتباع**: فما ظهر لهم من النصر بالسنان فإنهم استفتحوا بلاد الكفر من بعده ﷺ، وما فتح الله به وما ظهر على رجال أمته من الكرامات على العلماء من العلوم على أنحائها.

وبالجملة ظهر أن الأمر فيه مع الأنبياء والرسل هو الأمر فيهم مع علماء والملل والدول.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣] فهي ذلك الآية.

وأما النور التاسع عشر: وهو **نور اللواحق**: فما بعده من الآيات التي أخبر به وما أيضًا في العالم من العجايب فهي له حتى فضائل أمته فإنها هي فضائله.

فإن قلت: لا تحصر كراماتهم وعلومهم، فقد قلت: لا نهاية لمعجزاته ﷺ، هو فإنه الأصل في ذلك. والذي يفيد الكرامة بتبعيته هو الكامل. حتى أن هذا النوع باتباعه يترجح على المعجزة الحاضرة معه، فإن تلك بإزاء تكذيبه ولضرورة المعاند، وهذه من عند الله على جهة الإكرام ثم هي أيضًا مركبة بزيادة أمر محمود وهذا أظهر له ﷺ أصل كل فضل وسعادة وعناية.

وأما النور العشرون: وهو **نور الجاه**: فهو كشف له أنه واحد الله في التخصيص والشفاعة تدل على ذلك وأشباهها.

وأما النور الحادي والعشرون: وهو **نور الخطابة**: فكونه كيف له أنه الذي أوتي جوامع الكلم.

وأما النور الثاني والعشرون: وهو النور الذي سميته نور **المقايسة**: فهو كشف له أنه إذا جمع في الذهن جميع الأنبياء والرسل في تقديره لفضلهم.

ودليله أنه أعلم الخلق بالله، والدرجة التي هناك لا تُقاس بما بعدها، وإن تعددت فإن المجموع لا يقوم منه ما يساوى، فإن الذوات لا تتحد، فاعلم.

وأيضًا إذا قلنا: إنه أفضل من إبراهيم فالمرتبة أو الدرجة التي يفضله بها أي شيء يقاس بها لا بدَّ لها من تنظير تنظر معها، ثم سلمنا أنه أرفع الأنبياء منـــزلة في الجنة، والكل دونه فلا ينفع ما عظم واجتمع، فإنه مع ما هم فيه ينظر إليهم من تحت.

فاعلم ذلك ولا تَقس الأمر فيه بالمحسوس، فتقول: هو صاحب ألف درهم في التمثيل، وهم من مجموع الكل منهم، وإن كان لكل واحد منهم مائة جملة.

قيل: ما الأمر الذي نحن فيه هذا يشابهه، فإنك هناك تقيس الأمر بقدره وهي درجة عند الله، فاعلم .

وأما النور الثالث والعشرون: وهو **نور التفضيل**: فهو يكشف له ﷺ على قدره بالنظر إلى الرسل عليهم السلام، ومقر له بأنه سيد ولد آدم عليه السلام.

وقول الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**﴾، فنحن في الأمم مثله هو في الأنبياء والرسل عليهم السلام.

وأما النور الرابع والعشرون: وهو **نور الإحاطة**: فهو يكشف له أنه عين المعنى المجموع الذي إليه تصل العناية العلمية والعملية، ومع كل محمود محترم يُشار إليه فهو الذي أحاط بها، وجميع ما تفرَّق في الأنبياء اجتمع به وله ولأمته وفي ملته ﷺ.

وأما النور الخامس والعشرون: وهو **نور الحَصْر**: فهو النور الذي يكشف له عن الخواص عن المراتب وعن المنامات حتى عن أقصر ما يمكن.

فإذا قدرنا أنه نالها لا يجد أحد بعده ما يطلب مثل ما تقول يتيمة الدهر عند الملك لا يملكها أحد معه كذلك القول فيه، فله الوسيلة والدرجة الرفيعة، فهذا هو الحصر فإنه الذي ملك الأوفى من الكل.

وأما النور السادس والعشرون: وهو نور **العلامة والدلالة**: فهو الذي كشف له ﷺ صورة منتظرة ومعتبرة، فإن الكتب نطقت به، وكذلك الصنائع العلمية كلها حتى الكهانة.

ومن علاماته أيضًا ﷺ ما ظهر عليه ﷺ حتى خاتم النبوة الذي بين كتفيه ﷺ وما كان قط لأحد؛ ثم علامات صدقه المتأخرة.

وهذا يكشف له أنه كذلك وحده.

ومما ينبغي أن يُقال لأهل الكتاب: هذا نبينا ﷺ، قد أخبرنا عن أمور قد ظهرت بعده، حتى إن من بعض أتباعه لو تحدَّى بها لم يعلم حدود رسوله وجد الصواب في قطع الخصم وأنتم ما الذي أخبركم به هذه أنواره.

وأما النور السابع والعشرون: وهو نور **الخصوصية**: فهو الذي يكشف له أنه لا مقام أمامه ولأمر ما بعده والسعادة الإلهية فإنه نال ما منعه الغير في السعادة.

وأما النور الثامن والعشرون: وهو نور **الخير المحض**: فهو الذي يكشف له عن كمال ما ظهر منه وما بطن له، فإنه في نومه معصوم الخيال، وفي ذلك العلوم، وفي قيامه ويقظته لا ينطق عن الهوى، وفي عقله فلم تغلب قط شهوته عقله:

فإن عَلمَ الكتاب والفضائل على ما ينبغي، وعلم إذا أفرط في ذلك حتى قال الله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ**﴾ [الأحزاب:٣٤]، قيل: من السُّنَّة.

وأما النور التاسع والعشرون: فهو نور **اللواء**: وهو النور الذي يكشف له أنه ينشر بحده في القيامة.

وأما النور الثلاثون: وهو نور **الانفراد**: فهو الذي يكشف أنه ﷺ خير متبوع.

قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران:١١٠] فمتبوعها خير متبوع.

وأما النور الواحد والثلاثون: وهو نور **العبودية**: فهو يكشف له عن الإضافة الخاصة التي هي نفس المنعم فقط.

قال الله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾ [الإسراء:١].

وأما النور الثاني والثلاثون: وهو نور **التزكية**: فهو يكشف له كونه ﷺ حجة الله على العالمين.

وأما النور الثالث والثلاثون: وهو نور **المكانة الكبرى**: فهو الذي يكشف له عن جلاله ﷺ في التكميل وفي التحديد وفي التتميم، وعوالم غير هذه ومعنى غير هذا كله. وأيضًا كون بعض أمته يتجلّى لله خاصة وللناس عامة، وهذه مرتبة أعلى مما ذكر، وبهذا يكشف له ﷺ عن أمر ما عند العقول منه ما تفرض مقدمة، ولا تضع قضية، ولا تنقل مخاطبة صناعية وهنا يجب الإمساك عليه فاعلم ذلك كله، وكيف كشف له حتى إن أمورًا قلَّ وجودها في الملائكة، فكيف في غيرهم! وهذا كشف لنا أنه في عوالم غير هذه، وبقي في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فاعلم ولا تقل يا من هو من أهله إلا أنه هو النور المحض، وله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

كملت والحمد لله رب العالمين

* * *

النور الأول

وهو نور العزة:

فهو نور الشهادة التي تُقال مع شهادة الله: هذا كشفٌ عن عزته عند الله.

ومنها أيضًا في جملة أحكام أمته ﷺ فيها يتبع كالتشهد في الصلاة والأذان.

❁ قلت: وعزّه الله بعزته في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون:٨].

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ بتيسير أسباب العزّة، وهي: الاستقامة المحمدية الأزلية.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ فقد ألقى الله عليه أستار العزة الإلهية.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾: أي الامتناع وجلالة القدر.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾: أي العزيز، ومعناه: الذي لا نظير لــه في خلق الله تعالى.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾: أي له روح العزة؛ لأنه مظهر كمالات العزيز الحكيم، ولرسوله الذي هو القلب لا مرسل إلى القوى، كالسلطان إلى الجنة، ولا بدَّ للخليفة من العزّة الذاتية والإضافية.

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي وللمؤمنين الذين أعزهم الله بعزة نفسه وبعزة رسوله، فإنهم حزب الله الغالبون، وإنهم الجند المنصورون، فلهم الفعل الذي هو عين العزة، ولأعدائهم الانفعال الذي هو عين الذلة، فالمؤمنون في درجة الذكورة وإن كانوا إناثًا، والمنافقون والكافرون في درجة الإنوثة وإن كانوا ذكورًا، فعليك بالتشبه بالذكور حتى تكون مذكرًا حقيقيًا.

وقال الشيخ الأكبر في كتاب «التجليات» في الكلام على تجلي العزة ما نصه:

ما لك وللحق تعالى أية مناسبة بينك وبينه، وفي أي وجه تجتمع، اترك الحق للحق، فلا يعرف الحق إلا الحق، يقول الحق: وعزة الحق لا عرفت نفسك حتى أجليك لك، وأشهدك إياك، فكيف تعرفني، تأدب فما هلك امرؤ عرف قدره، واقتدَ بالمهتدين من عباده انتهى.

وقال فيه أيضًا: في تجلي بأي عين تراه من زعم أنه يدركه على الحقيقة فقد جهل،

وإنما يدركه المحدث من حيث نسبته إليه، كما علمه من حيث نسبته إليه.

وقال الشيخ صدر الدين محمد بن إسحاق القونوي، تلميذ الشيخ الأكبر وربيبه، في رسالةٍ له سمَّاها «مفتاح الغيب» ما نصه:

ولما كان الحق تعالى من حيث حقيقته في حجاب عزه لا نسبة بينه وبين ما سواه، كما سبق التنبيه عليه، كان الخوض فيه من هذا الوجه، والتشوق إلى طلبه تضييعًا للوقت، وطلبًا لما لا يمكن تحصيله، ولا الظفر به إلا بوجهٍ جلي، وهو أن وراء ما تعيَّن به أمر به ظهر كل متعينٍ لذلك.

قال سبحانه بلسان الرحمة والإرشاد: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠]، فمن رأفته أن اختار راحتهم، وحذرهم عن السعي في طلب ما لا يحصل، لكن لهذا الوجود الحق من حيث مرتبته عروض وظهور في نسب علمه التي هي الممكنات، ويتبع ذلك العروض والظهور أحكام وتفاصيل وآثار بها تتعلق المعرفة التفصيلية، وفيها ومنها يُفهم الكلام، وأما ما وراء ذلك فلا لسان له، ولا خطاب يفصله، بل الإعراب عنه يزده إعجامًا، والإفصاح إبهامًا على ما ستعرفه إن شاء الله تعالى. انتهى منه بلفظه.

ومثله للعارف بالله الجامي قُدِّس سره في شرحه لنقش الفصوص الذي سمَّاه نقض النصوص فراجعه.

وفي التعريفات للسيد الشريف الجرجاني ما نصه:

حجاب العزة هو العمى والحيرة؛ إذ لا تأثير للإدراكات الكثيفة في كنه الذات، فعدم نفوذها فيه حجاب لا يرتفع في حق الغير أبدًا انتهى.

وفي كتاب «اللمع الأفقية» وهو كتاب التراجم للشيخ الأكبر في ترجمة المنة ما نصه:

حجاب العزة لا يُرفع، ولا يمكن أن يُرفع، وآخر حجاب يُرفع رداء الكبرياء عن وجهه في جنة عدن، كما جاء الخبر عن النبي ﷺ.

وقال القطب سيدي عبد الكريم الجيلي في كمالاته في الكلام على اسمه تعالى (الواسع)

ما نصه: والإنسان الكامل ولو عرف أنه هو الله، وتحقّق بما تحقق به من الأسماء والصفات، فإنه لا يبلغ غاية الكنه الذاتي، ولا يستوفيه بوجه من الوجوه.

ولهذا قال الصديق الأكبر: العجز عن الإدراك إدراك.

وقال سيد المقربين، وخاتم المرسلين: «**لا أحصي ثناء عليك**[1]».

وقال تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الأنعام:٩١] يعني المقربين والكُمَّل، المحققين من الأنبياء والمرسلين، ومن دونهم من الأولياء والصديقين، وسائر المؤمنين والكافرين جميعًا ما قدروا الله حق قدره، بل هو فوق ما عرفوه، وقدره وراء ما قدروه فافهم. انتهى منه بلفظه.

وقال الشيخ الأكبر في شرحه لترجمان الأشواق:

كل من الخلق واقف خلف حجاب العزة الأحمى، وعند هذا الحجاب تنتهي علوم العالمين، ومعرفة العارفين، ولا يصح لأحد أن يتعدّى هذا الحجاب ولو كان من أكابر الأحباب.

وقال سيدي علي بن وفا رحمه الله: جلّت ذات الحق تعالى أن تدخل تحت إحاطة علم أو إدراك انتهى.

قلت: وذكروا أن الحقيقة المحمدية من ورائها حجاب العزة، وهو حجاب الكبرياء والعظمة الذي لا ينخرق لأحد ثمة، وحينئذ فهما نوران حاجبان للخلق عن رؤية تجليات الحق: نور العزة الذي هو نور الكبرياء والعظمة، ونور الحقيقة المحمدية وهو الثاني.

والحقيقة أيضًا دونها حجب الأنوار، فلا مطمع لأحد في الوصول إليها، ولا في تخطي الحجب المشرفة عليها، وعليه فتجليات الحق تعالى له ﷺ كلها من وراء حجاب الكبرياء والعظمة، الذي هو وصفٌ من أوصاف ذاته المعظمة.

(١) رواه مسلم (١/٣٥٢).

النور الثاني

وهو نور الغاية الإنسانية:

فهو شأنه الذي كان ليلة الإسراء، فإن الأنبياء خير البشر جاز عليهم في السموات، ثم تركهم وقطع عوالم الملأ.

فهذه نورانية كشف بها أنه وصل الغاية وبلغها، ثم وصل إلى محل الكروبيين، ثم إلى أكثر ثم إلى آخر العمارة الروحانية والجسمانية.

❁ قلت: قال الشيخ جعفر الكتاني ﷺ:

قال الشيخ الأكبر في الفتوحات في الباب الثامن والتسعين ومائة في الفصل السابع والثلاثين ما نصه:

لما أراد الله تعالى كمال هذه النشأة الإنسانية جمع لها بين يديه، وأعطاها جميع حقائق العالم، وتجلّى لها في الأسماء كلها، فحازت الصورة الإلهية والصورة الكونية، وجعلهما روحًا للعالم، وجعل أصناف العالم له كالأعضاء من الجسم للروح المدبر له، فلو فارق العالم هذا الإنسان مات العالم، كما أنه إذا فارق منه ما فارق كان فراقه لذلك الصنف من العالم كالخدر لبعض الجوارح من الجسم فتتعطل تلك الجارحة؛ لكون الروح الحساس النامي فارقها كما تتعطل الدنيا بمفارقة الإنسان، فالدار الدنيا جارحة من جوارح جسد العالم الذي الإنسان روحه، فلما كان له هذا الاسم الجامع قابل الحضرتين بذاته، فصحَّت له الخلافة وتدبير العالم وتفصيله انتهى.

ومنها: إنه مخلوقٌ من ذات الله بلا واسطة، كما في الحديث الذي يذكره أرباب الكشف وهو: «**أنا من الله والمؤمنين مني**[1]» وهذا لم يكن لغيره.

وفي حق سيدنا محمد ﷺ: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ إلى قوله: ﴿**لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**﴾ أي: عجائب ملكنا وملكوتنا ﴿**إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ**﴾ لتلك الآيات

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/٢٣٧).

﴿الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] بها.

فالضمير في (إِنَّهُ) يعود عليه ﷺ كما هو المتبادر من الآية.

وذكره الشيخ الأكبر في «فتوحاته» فقال: إنه أسري به فرأى الآيات، وسمع صريف الأقلام، فكان يرى الآيات ويسمع فيها ما حظه السماع، وهو الصوت انتهى.

وقال في حقِّه أيضًا: ﴿لَقَدْ رأى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨] يعني الآية الكبرى وهي حقيقته ﷺ؛ إذ لم يخلق الله آية هي أكبر منها ولا أفخر ولا أعجب، كيف وهو أول المخلوقات، ولأجلها ومنها تفرعت الكائنات.

وقيل: معناه الآيات العظام: أي الآيات التي هي أكبر الآيات وأعظمها وأجلها، دفعًا لما يتوهم من أنه إنما اطلع على الآيات الصغار، وكيف وهو أفضل الخلق وأكرمهم على الله تعالى، فالمناسب لقدره كبار الآيات لا صغارها، مما لم يكشف لأحد سواه ﷺ.

فإنه لما أُسري به أتته ملائكة السماوات فما فوقها خاضعة طائعة، وأظهر الكل الانقياد له والدخول تحت حكمه وولايته، وجاءت لدعوته الأشجار والأحجار والحيوانات العجم، وكلمته بلسانها وسجدت له، وانقادت لأمره.

أسرى به ليلاً من المسجد الحرام الأدنى، وعرج به إلى السماوات، وزاد به إلى مقام قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وكلَّمه كفاحًا تكليمًا، وأمدَّه من العلوم اللدنية والكونية بما لا يخطر ببال أحد، ولا هو حاصل في أمنيته، وتممها بالقطرة التي قطرت على لسانه ليلة الإسراء من بحر العلم الأزلي، وبيده الكريمة التي وضعها بين كتفيه تتميمًا.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والترمذي في التفسير في سورة (ص)، واللفظ له ولأحمد والمروزي في كتاب «الصلاة» عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «آتاني الليلة ربي»، وفي رواية أحمد: «أَتَانِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ اللَّيْلَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ - أَحْسَبُهُ يَعْنِي فِي الْمَنَامِ - قال كذا في الحديث وفي رواية أحمد - أَحْسَبُهُ يَعْنِي فِي النَّوْمِ - فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ هَلْ تَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ؟ قَالَ: قُلْتُ: لا».

قَال النَّبي ﷺ: «فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَي حتى وَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيَي - أَوْ قَالَ نَحْرِي - فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، هَلْ تَدْرِي فِيم يَخْتَصِمُ الْمَلأُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ[1]». الحديث.

وقد أخرجه الترمذي[2] من حديث سلمة بن شبيب وعبد بن حميد قال: حدَّثنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن أبي قلابة عن ابن عباس به ثم قال: قال أبو عيسى: يعني نفسه، وقد ذكروا بين أبي قلابة وبين ابن عباس في هذا الحديث رجلاً.

ثم أخرجه ثانيًا من حديث محمد بن بشار، حدَّثنا معاذ بن هشام يعني الدستوائي، حدَّثني أبي عن قتادة، عن أبي قلابة، عن خالد بن اللجلاج، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «**آتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد قلت لبيك ربي وسعديك قال: فيم يختصم الملأ؟ قلت: ربي لا أدري فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما بين المشرق والمغرب..** [3]» الحديث.

وقال الترمذي فيه: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه.

قال: وفي الباب عن معاذ بن جبل وعبد الرحمن بن عائش عن النبي ﷺ، ثم أخرج ثالثًا من حديث محمد بن بشار: حدَّثنا معاذ بن هانئ، حدَّثنا أبو هانئ اليشكوري، حدَّثنا جهضم بن عبد الله عن يحيي بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن أبي سلام: أي وهو منظور الحبشي، عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي أنه حدثه عن مالك السكسكي، عن معاذ بن جبل ﷺ قال: احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح، حتى كدنا نتراءى عين الشمس، فخرج سريعًا فثوب بالصلاة، فصلّى رسول الله ﷺ، وتجوز في صلاته، فلما سلم دعا بصوته، قال لنا: على مصافكم كما أنتم، ثم انفتل إلينا ثم قال: أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمت من الليل، فتوضأت وصليت ما قُدر لي، فنعست في صلاتي حتى انشغلت، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فقال: يا

(١) رواه أحمد (١/٣٦٨).
(٢) رواه الترمذي (٥/٣٦٦).
(٣) رواه الترمذي (٥/٣٦٧).

محمد، قلت: لبيك رب، قال: فيم يختصم الملأ؟ قلت: لا أدري، قالها: ثلاثًا، قال: فرأيته، وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي، فتجلّى: أي انكشف وظهر، وبدا لي كل شيء، يعني من العوالم العلوية والسفلية مطلقًا، كما هو ظاهره وعرفت: أي عرفته عيانًا - كما قاله ابن حجر الهيتمي في شرح المشكاة - فقال: يا محمد، قلت: لبيك ربي، قال: «فيم يختصم الملأ، قلت: في الكفارات.. [1]» الحديث.

ثم قال: قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وقال: هذا أصح من حديث الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: حدَّثنا خالد بن اللجلاج، حدَّثني عبد الرحمن بن عائش الحضرمي قال: سمعت رسول الله ﷺ.. فذكر الحديث.

وهذا غير محفوظ هكذا، ذكر الوليد في حديثه عن عبد الرحمن بن عائش قال: سمعت رسول الله ﷺ.

وروى بشر بن بكر عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر هذا الحديث بهذا الإسناد عن عبد الرحمن بن عائش، عن النبي ﷺ، وهذا أصح، وعبد الرحمن بن عائش لم يسمع من النبي ﷺ انتهى.

قلت: حديث ابن عباس من طريق أيوب عن أبي قلابة أخرجه أيضًا أحمد في مسنده من روايته عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب به.

ومن طريق قتادة عن أبي قلابة أخرجه أيضًا أبو يعلى في مسنده من رواية هشام الدستوائي عنه.

وقد ذكر أحمد بن حنبل أن قتادة أخطأ فيه، وأخرجه من وجه آخر عن ابن عباس، رواه ابن جرير الطبري في تفسيره، وفيه سياقٌ آخر وزيادة غريبة فقال: حدَّثنا أحمد بن عيسى التميمي، حدَّثنا سليمان بن عمر بن سيار، حدَّثني أبي عن سعيد بن زربي، عن عمر بن سليمان، عن عطاء، عن ابن عباس قال:

---

(١) رواه الترمذي (٥/٣٦٨).

قال النبي ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة، فقال لي: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ؟ فقلت: لا يا رب، فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السماوات والأرض، فقلت: يا رب في الدرجات والكفارات، ونقل الأقدام إلى الجماعات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فقلت: يا رب، إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليمًا، وفعلت وفعلت، فقال: ألم نشرح لك صدرك، ألم أضع عنك وزرك، ألم أفعل بك، ألم أفعل؟ قال: فأفضي إليَّ بأشياء لم يؤذن لي أن أحدثكموها، قال: فذلك قوله في كتابه: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ إلى قوله: ﴿مَا رَأَى﴾ [النجم: ٨ :١١]، فجعل نور بصري في فؤادي فنظرت إليه بفؤادي(١)».

أورده ابن كثير في تفسيره وقال: إسناده ضعيفٌ، والسيوطي في الدر المنثور.

وحديث معاذ أخرجه أيضًا من طريق جهضم بن عبد الله بالسند السابق أحمد في مسنده، وذلك بنحو من رواية الترمذي هذه، وفيه أيضًا: «**فتجلى لي كل شيء وعرفت**»، ومن عنده أورده ابن كثير في تفسيره.

وقال عقبه: هو حديث المنام المشهور، ومن جعله يقظة فقد غلط، وهو في السنن من طرق، قال: وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليمامي به، وقال: حسنٌ صحيحٌ انتهى.

قلت: وبكون الرؤية هنا منامية يرتفع إشكال قوله: «في أحسن صورة»؛ لأن الرائي قد يرى غير المتشكل متشكلاً، والمتشكل بغير شكله، على أن الصوفية رضوان الله عليهم ذكروا أن الحق تعالى يتجلّى لخلقه على طريق التنـــزل منهم إليهم في الصور كلها من غير حلول، ولا كيفية، ولا تغير عما هو عليه في ذاته العلية من التنـــزيه، وعدم المثلية، مستدلين على ذلك زيادة على ما كوشفوا به منه بأدلة نقلية.

وفي المرقاة لعلي القاري الحنفي قال: سمعت شيخنا الشيخ عطية السلمي ناقلاً عن شيخه أبي الحسن البكري أن لله تعالى تجليات صورية مع تنـــزه ذاته الأحدية عن المثلية،

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٢٥٢/٤).

قال: وبهذا يندفع كثير من المتشابهات القرآنية والحديثية انتهى.

وحينئذٍ فما ورد في الكتاب أو السُّنة من التنـــزيه مصروفٌ إلى الذات الهوية، وما ورد فيهما من التشبيه مصروفٌ إلى الصور التي يقع التجلّي فيها، والله أعلم.

وقد أخرج حديث معاذ المذكور محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة، وابن خزيمة، والحاكم في صحيحيهما، والروياني، والطبراني في الكبير، وابن مردويه، والدارقطني، وابن عدي، وغيرهم.

وأفاد غير واحدٍ من الحفاظ أنه حديثٌ قويٌّ صحيحٌ، وحديث عبد الرحمن بن عائش بالياء وبالهمز، ويُقال له: عياش، أخرجه جماعة ممن نذكره قريبًا.

وأخرجه أيضًا من غيرهم محمد بن نصر في كتاب «الصلاة»، والطبراني في السُّنة، والحكيم الترمذي في النوادر، وأفاد في «الإصابة» في ترجمة عبد الرحمن بن عائش هذا أن رواية الوليد ابن مسلم بالتصريح بسماع ابن عائش من النبي ﷺ، أخرجها ابن خزيمة، والدارمي، والبغوي، وابن السكن، وأبو نعيم، من طرق إليه أعني إلى الوليد، وأنه لم ينفرد بالتصريح المذكور، بل تابعه فيه حماد بن مالك الأشجعي، والوليد بن مزيد البيروتي، وعمارة بن بشر، وغيرهم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، أخرج رواية الأول وهو حماد: البغوي وابن خزيمة من طريقه عن جابر.

ورواية الثاني وهو ابن مزيد: الحاكم، وابن منده، والبيهقي من طريق العباس ابنه عنه عن ابن جابر والأوزاعي.

ورواية الثالث وهو عمارة: الدارقطني في كتاب الرؤية من طريقه عن ابن جابر.

قلت: وفي الجمع في مسند عبد الرحمن بن عايش الحضرمي قال ابن عساكر: له حديث واحد عن عبد الرحمن بن عائش الحضرمي، قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات غداة فقال قائلٌ: ما رأيت أسفر وجهًا منك الغداة، فقال: ما لي وقد رأيت ربي الليلة في أحسن صورة، فقال لي: يا محمد فيم يختصم الملأ؟ قلت: لا أعلم، فوضع كفه بين كتفي، فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السماوات والأرض، ثم تلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي

إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] الحديث[1]».
رواه ابن منده والبغوي والبيهقي في السنن وابن عساكر انتهى.

وأخرج الذهبي في طبقات الحفاظ في ترجمة محمد بن المبارك الصوري من طريق عبد الله الدارمي عنه عن الوليد، عن ابن جابر، عن خالد بن اللجلاج، سمعت عبد الرحمن بن عايش، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رأيت ربي في أحسن صورة، قال: فيم يختصم الملأ قلت: أنت أعلم يا رب، فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السماء وما في الأرض، وتلا: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ انتهى.

وأخرج البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» في باب ما ذكر في الصورة من طريق الوليد بن مزيد البيروتي، قال: حدَّثنا ابن جابر قال: وحدثنا الأوزاعي أيضًا قالا: حدَّثنا خالد بن اللجلاج، قال: سمعت عبد الرحمن بن عياش الحضرمي يقول: «صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات غداة فقال له قائلٌ: ما رأيتك أسفر وجهًا منك الغداة، فقال: ما لي وقد تبدا لي ربي في أحسن صورة، فقال: فيم يختصم الملأ يا محمد؟ قال: قلت: أنت أعلم أي رب، قال: فيم يختصم الملأ يا محمد؟ قلت: أنت أعلم أي رب، فوضع كفه بين كتفي، فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السماء والأرض، وتلا هذه الآية: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

قال: فيما يختصم الملأ يا محمد؟ قلت: في الكفارات رب.. الحديث[2]».

وأفاد في الإصابة أيضًا رواية بشر بن بكر التي أشار إليها الترمذي، وهي التي لم يقع فيها تصريح بالسماع، أخرجها الهيثم بن كليب في مسنده، وابن خزيمة، والدارقطني من طريقه عن ابن جابر، عن خالد بن اللجلاج، سمعت عبد الرحمن بن عايش يقول: قال رسول الله ﷺ.

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٧/٢٤٧).
(٢) تقدم تخريجه.

قلت: وفي المشكاة عن عبد الرحمن بن عائش قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة، قال: فيما يختصم الملأ؟ قلت: أنت أعلم، فوضع كفه بين كتفيا فوجدت بردها بين ثديا، فعلمت ما في السماوات والأرض، وتلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

رواه الدارمي مرسلاً انتهى.

قال ابن حجر الهيتمي في شرحها في معنى (فعلمت ما في السماوات والأرض): أي جميع الكائنات التي في السماوات، بل وما فوقها، كما يُستفاد من قصة المعراج، والأرض هي بمعنى الجنس: أي وجميع ما في الأراضين السبع، بل وما تحتها، كما أفاده إخباره ﷺ عن الثور والحوت اللذين عليهما الأرضون كلها. انتهى على نقل صاحب المرقاة.

وزاد ويمكن أن يُراد بالسماوات: الجهة العليا، والأرض: الجهة السفلى، فيشمل الجميع، ثم ذكر أنه لا بدَّ من التقييد في هذا، وله المراد ما أعلمه الله به، فما فيهما قال: وذكر يصح إطلاق الجميع كما هو الظاهر انتهى.

قلت: جميع من أدلته التقييد في التخصيص، واللفظ يفيد العموم، وهناك ما يعضضه، ويدل على بقائه على عمومه كرواية: «فتجلّى لي كل شيء وعرفت».

ورواية: «وعلمني كل شيء»، ولا مانع من عمومه لا شرعًا ولا عقلاً، بمجرد استبعاد العقول القاصرة المحصورة لذلك لا يفيد في هذا الباب، كما هو واضحٌ لأولي الألباب، والله أعلم.

وأفاد في الإصابة أيضًا أن عبد الرحمن بن عايش قال: هذا مختلفٌ في صحبته.

فقال ابن حبان: له صحبة.

والبخاري: له حديث واحد إلا أنهم مضطربون فيه.

وابن السكن يُقال له: صحبة، وذكره في الصحابة محمد بن سعد، والبخاري، وأبو زرعة الدمشقي، وأبو الحسن بن سميع، وأبو القاسم البغوي، وأبو عروبة الحراني، وغيرهم.

وقال أبو حاتم الرازي والترمذي: لم يُسمع من النبي ﷺ راجعها في ترجمته.

وفي الاستيعاب وأُسد الغابة: لا تصح له صحبة؛ لأن حديثه مضطرب.

قلت: ومن المحدثين من روى هذا الحديث عنه عن رجلٍ من الصحابة من غير تعيين.

أخرج أحمد والطبراني عن عبد الرحمن بن عايش الحضرمي، عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة وهو طيب النفس، مسفر الوجه، فسألناه فقال: وما يمنعني وأتاني ربي الليلة في أحسن صورة، فقال: يا محمد، قلت: لبيك ربي وسعديك، قال: فيم يختصم الملأ؟ قلت: لا أدري، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، حتى تجلّى لي ما في السماوات وما في الأرض، قال: ثم قرأ: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ**﴾ [الأنعام:٧٥] [(١)]».

قال في الخصائص الكبرى: له طرقٌ وهو مطولٌ انتهى.

قلت: وفي تلاوته للآية المذكورة إشارة إلى أنه كشف له عن الملكوت والأسفل، وأري ما فيهما، كما وقع ذلك لسيدنا إبراهيم الخليل ﷺ، والمناسب لمقامه ﷺ أن يكون كشفه أكمل، وما اطّلع عليه من ذلك أجلّى وأتم وأفضل، فيكون قد تجلّى له جميع ما في الكون حتى رآه وعلمه علمًا تفصيليًّا، ولا مانع من ذلك لا عقلي ولا شرعي، وربنا قديرٌ على كل شيءٍ، ونبيه أهل لكل خيرٍ ﷺ.

وقد قال البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات» بعد إخراجه لحديث ابن عياش هذا عن النبي ﷺ بلا واسطة ما نصه:

هذا حديثٌ مختلفٌ في إسناده، فروي هكذا، ورواه زهير بن محمد عن يزيد بن يزيد ابن جابر: أي وهو أخو عبد الرحمن بن يزيد بن جابر السابق عن خالد بن اللجلاج، عن عبد الرحمن بن عياش، عن رجلٍ من أصحاب النبي ﷺ.

ورواه جهضم بن عبد الله عن يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن أبي سلام،

---

(١) تقدم.

عن عبد الرحمن بن عياش الحضرمي، عن مالك بن يوخامر، عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ.

ورواه موسى بن خلف العمي عن يحيى: أي ابن أبي كثير، عن زيد: أي ابن سلام، عن جده ممطور، وهو أبي سلام، عن أبي عبد الرحمن السكسكي، عن مالك بن يوخامر، عن معاذ.

وقيل فيه غير ذلك.

قلت: أفاد في الإصابة أن طريق زهير بن محمد أخرج له أحمد في مسنده قال: ولكن رواية زهير بن محمد عن الشاميين ضعيفة كما قال البخاري وغيره، وهذا منه وإن طريق جهضم بن عبد الله أخرجها أحمد وابن خزيمة والروياني والترمذي والدارقطني وابن عدي وغيرهم، وإن طريق موسى بن خلف أخرجها الدارقطني وابن عدي، ونقل عن أحمد أنه قال: هذه الطريقة أصحها.

قال الحافظ: فإن كان الأمر كذلك فإنما رُوي هذا الحديث عن مالك أبو عبد الرحمن السكسكي، لا عبد الرحمن بن عائش، ويكون للحديث سندان: ابن جابر عن خالد عن عبد الرحمن بن عائش، ويحيي عن زيد عن أبي سلام عن أبي عبد الرحمن عن مالك عن معاذ، قال: ويقوي ذلك اختلاف السياق بين الروايتين انتهى.

ثم قال البيهقي عقب ما مرّ عنه: ورواه أيوب عن أبي قلابة عن ابن عباس وقال فيه: أحسبه يعني في المنام، ورواه قتادة عن أبي قلابة عن خالد بن اللجلاج عن ابن عباس.

قلت: رواية أيوب تقدم أنه أخرجها أحمد والترمذي، ورواية قتادة الترمذي وأبو يعلى.

قال في الإصابة: ورواه أيوب عن أبي قلابة مرسلاً، لم يذكر فوقه أحد، أخرجه الترمذي وأحمد، وكذا أرسله بكر بن عبد الله المزني عن أبي قلابة، أخرجه الدارقطني، ورواه سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي قلابة، فخالف الجميع قال: عن أبي أسماء عن ثوبان، وهي رواية أخطأ فيها سعيد بن بشير، وأشد منها خطأ رواية أخرجها أبو بكر النيسابوري في الزيادات من طريق يوسف بن عطية، عن قتادة، عن أنس، وأخرجها

الدارقطني ويوسف متروك انتهى.

ثم أخرج البيهقي بسنده إلى البخاري قال: عبد الرحمن بن عائش الحضرمي له حديثٌ واحدٌ إلا أنهم يضطربون فيه، وهو حديث الرؤية.

قال الشيخ: أي البيهقي: وقد رُوي من أوجه أُخر كلها ضعيفة، وأحسن طريق فيه طريق جهضم بن عبد الله، ثم رواية موسى بن خلف، وفيهما ما يدل على أن ذلك كان في المنام انتهى.

قلت: بعدما نقل في الإصابة عن ابن السكن أنه ليس لعبد الرحمن بن عائش حديث غير هذا، وذكر أنه سبقه إلى ذلك البخاري، ولكن ليس في عبارته تصريح، قال عقب ذلك: قلت: وقد وجدت له حديثًا آخر مرفوعًا، وله حديث ثالث موقوف، ثم ذكر الأول راجعه، ثم هذا الحديث وارد أيضًا عن جماعة آخرين من الصحابة غير الأربعة المذكورين، معاذ وابن عباس وعبد الرحمن بن عائش متصلاً أو مرسلاً، والرجل من الصحابة، فأخرج الطبراني في السُّنة، وابن مردويه عن جابر بن سمرة مرفوعًا: «إن الله تجلّى لي في أحسن صورة، فسألني فيم يختصم الملأ؟ قلت: يا رب، ما لي به علم، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، فما سألني عن شيءٍ إلا علمته.. الحديث[1]».

وأخرجا أيضًا عن أبي هريرة مرفوعًا: «رأيت ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد، فقلت: لبيك ربي وسعديك ثلاث مرات، قال: هل تدري فيم يختصم الملأ؟ قلت: لا فوضع يده بين كتفي، فوجدت بردها بين ثديي، ففهمت الذي سألني عنه، فقلت: نعم يا رب.. الحديث».

وأخرجا أيضًا والشيرازي في الألقاب عن أنس قال: «أصبحنا يومًا فأتنا رسول الله ﷺ فأخبرنا فقال: أتاني ربي البارحة في منامي في أحسن صورة فوضع يده بين ثديي وبين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمني كل شيء.. الحديث».

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٢٠٣/١).

قلت: وهذه الرواية رواية: «فتجلَّى لي مع كل شيء وعرفت»، يفيدان أنه أعلم بكل شيء، واطَّلع على كل شيء مما يتعلق بأمر العوالم كلها دنيا وأخرى.

وأخرجه أيضًا محمد بن نصر المرزوي عن أبي أمامة مرفوعًا: «أتاني ربي في أحسن صورة، فقال: يا محمد، فقلت: لبيك وسعديك، قال: فيم يختصم الملأ؟ قلت: لا أدري فوضع يده بين ثديي، فعلمت في مقامي ذلك ما سألني عنه من أمر الدنيا والآخرة.. الحديث».

قلت: وهو يفيد أن السؤال وقع عن أشياء عديدة، منها ما يتعلق بأمر الدنيا، ومنها ما يتعلق بأمر الآخرة، وإن لم يخبر أصحابه بها كلها.

وأخرج البزار والطبراني في السُّنة، ومحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة، عن ثوبان قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ بعد صلاة الصبح فقال: «إن ربي عز وجل أتاني الليلة في أحسن صورة، فقال لي: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ؟ فقلت: لا أعلم يا رب، قال: فوضع كفيه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله في صدري، فتجلَّى لي ما بين السماء والأرض، فقلت: نعم يا رب يختصمون في الكفارات والدرجات[1].. الحديث».

وأخرج البزار أيضًا عن ابن عمر مرفوعًا: «إني صليت في مصلاة فضرب على أذني، فجاءني ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة..» الحديث ذكره السيوطي في خصائصه الكبرى مختصرًا فيه على هذا القدر.

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن عبد الرحمن الجمحي المكي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجلَّى لي في أحسن صورة، فسألني فيم اختصم الملأ؟ فقلت: ربي لا علم لي به، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، فما سألني عن شيء إلا علمته[2]».

---

(١) رواه أحمد (٥/٣٧٨)، والدارمي (٢/١٧٠)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/٤٩)، والروياني في مسنده (١/٤٢٩)، والطبراني في الكبير (٢٠/١٤١)، والحكيم الترمذي في النوادر (٣/ ١٢٠).

(٢) تقدم.

فهؤلاء أيضًا ستة من الصحابة: جابر بن سمرة، وأنس، وأبو أمامة، وثوبان، وابن عمر، ومعهم واحد من التابعين وهو عبد الرحمن الجمحي.

وذكر في الجمع ممن ورد عنه من الصحابة أبا رافع، وطارق بن شهاب البجلي الكوفي، وكانت له رؤية، ولم يسمع من النبي ﷺ على ما قال أبو داود، وأبا عبيدة بن الجراح ونص كلامه:

«أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة - أحسبه قال في المنام — فقال: يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ؟ قلت: لا، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السماوات وما في الأرض..» ثم ذكر بقية الحديث.

وقال في تخريجه: عبد الرزاق، وأحمد، وعبد بن حميد، والترمذي، وقال: حسنٌ غريبٌ، ومحمد بن نصر في كتاب «الصلاة» عن ابن عباس، والترمذي، والطبراني في الكبير، وابن مردويه عن معاذ بن جبل، والطبراني في الكبير، وابن مردويه عن أبي أمامة، والطبراني في الكبير، وابن مردويه عن أبي رافع، والطبراني في الكبير، وابن مردويه عن طارق بن شهاب، والطبراني في السُّنة، وابن مردويه عن جابر بن سمرة، والحكيم، والطبراني في السُّنة، وابن مردويه عن أبي هريرة، والطبراني في السُّنة، وابن مردويه عن أنس، والطبراني في السُّنة، والخطيب عن أبي عبيدة بن الجراح، والحكيم، والطبراني في السُّنة، عن عبد الرحمن بن عياش الحضرمي، وأحمد عنه عن بعض الصحابة، والحكيم، والبزار، والطبراني في السُّنة عن ثوبان انتهى.

وها هنا في هذا الحديث رواية فيها بعد ذكر الوضع، فعلمت علم الأولين والآخرين، ذكره غير واحد من المعتبرين وصححوها، ولم أقف الآن لشدة القصور في بعض الكتب على من خرَّجها من الأئمة الحفاظ في كتابه.

وممن ذكره العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه: «الجواهر والدرر» وحديثها على ما قال: «أتاني الليلة آت من ربي — قال: وفي رواية: أتاني ربي ﷻ - فوضع أصابعه بين ثديي حتى وجدت برد أنامله، فعلمت علم الأولين والآخرين».

ثم ذكر أنه سأل شيخه سيدي علي الخواص عن المراد بهذا الحديث: هل العلم عام لجميع ما علمته أمته من معقولٍ ومنقولٍ في فقهٍ أو نحوٍ أو أصولٍ أو غير ذلك؟ فقال له: نعم، هو شاملٌ لجميع ذلك، قال: فقلت له: فما المُراد بالأولين والآخرين؟ فقال: من تقدمه من الأمم، ومن تأخر من أتباعه إلى يوم القيامة، راجعه.

وفي «الفتوحات المكية» في الباب الرابع والثلاثين بعدما ذكر أن الله تعالى عبادًا خرق لهم العادة في إدراكهم العلوم، فمنهم من جعل له إدراك ما يدرك بجميع القوى بقوة البصر خاصةً، وآخر بقوة السمع، وهكذا جميع القوى، ثم بأمورٍ عرضيةٍ خلاف القوى من ضربٍ وحركةٍ وسكونٍ، وغير ذلك ما نصّه:

قال رسول الله ﷺ: «إن الله ضرب بيده بين كتفي فوجدت برد أنامله بين ثديي، فعلمت علم الأولين والآخرين».

فدخل في هذا العلم كل معلومٍ معقول ومحسوس مما يدركه المخلوق، فهذا علمٌ حاصلٌ لا عن قوة من القوى الحسية والمعنوية، فلهذا قلنا: إن ثم أشياء أُخر خلاف هذه القوى تدرك به المعلومات انتهى.

وقال ابن حجر المكي في شرح الهمزية لدى قوله لك ذات العلوم ما نصه: أكثر علوم نبينا ﷺ تتعلق بالمغيبات بدليل: «فعلمت علم الأولين والآخرين» انتهى.

وتقدّم في كلام الشيخ سيدي عبد الغني النابلسي في شرح الفصوص وصفه بالصحة أيضًا، وقد أشار إليه من قال:

إن تــكُ فــاتح الخــيرات طرًّا ... فــإنك قــد ختمــت المرســلينا
لــوم الآخــرين علــيك قصت ... وقــد أُوتيــت عــلم الأوليــنا

كما أشار إلى حديث: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**[1]» من قال أيضًا:

قلــبي بمــنجد نــازل بقــبابي ... فــيها مليــح ســيد الأعــراب

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/٣٦)، والحاكم في المستدرك (٣/١٢٧).

عرضـت عليه كنوز الأرض فلم عـلمًا بـأن مصـيرها لذهـاب

وإذا سـألت عـن العلـوم فإنه لمديـنة مفـتوحة الأبـواب

وقد ذكر غير واحد أنه وقع هذا الوضع مرة أخرى ليلة الإسراء، ففي كتاب لأبي الحسن علي بن غالب، تكلّم فيه على أحاديث الحجب نقلاً عن أبي الربيع بن سبع في شفاء الصدور، عن ابن عباس قال: قال علي: سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن علم لا يعلمه جبريل، ولا ميكائيل، أعلمني رسول الله ﷺ مما علمه ربه ليلة الإسراء، ثم ذكر الحديث.

وفيه أنه ﷺ قال: «أتاني جبريل وكان السفير بي إلى ربي، إلى أن انتهى إلى مقام، ثم وقف عند ذلك فقلت: يا جبريل، في مثل هذا المقام يترك الخل خله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور» إلى أن قال: يعني النبي ﷺ: «وسألني ربي فلم أستطع أن أجيبه. فوضع يده بين كتفي بلا تكييف ولا تحديد، فوجدت بردها بين ثديي، فأورثني علم الأولين والآخرين، وعلمني علومًا شتى، فعلمٌ أخذ عليَّ العهد بكتمانه؛ إذ علم أنه لا يقدر على حمله أحدٌ غيري، وعلمٌ خيَّرني فيه فكنت أسر إلى أبي بكر وإلى عمر وإلى عثمان وإليك يا أبا الحسن، وعلمني القرآن، فكان جبريل عليه السلام يذكرني به، وعلمٌ أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي، ولقد عاجلت جبريل عليه السلام في آية نـزل عليَّ بها، فعاتبني ربي وأنـزل عليَّ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]». انتهى المراد منه.

وقد نقله في المواهب اللدنية في المقصد الخامس في الإسراء والمعراج من قوله: (أتاني جبريل) إلى آخره، لكنه جعله من حديث ابن عباس، فأوهم أن ابن عباس رواه بلا واسطة، وليس كذلك.

وقال في آخره: رواه في كتاب شفاء الصدور كما ذكره ابن غالب، والعهدة في ذلك عليه انتهى.

وقال الحافظ الشامي في معراجه[1] بعد نقله لكلام صاحب المواهب: هذا وهو كذب بلا شكٍّ انتهى.

فجزم ببطلانه مع نقل غير واحد له من أهل الله وغيرهم، وممن نقله الشيخ الأستاذ المربي القطب أبو زين العابدين سيدي المختار بن أحمد بن أبي بكر الكنتي، ثم الوافي في نـــزهة الراوي، وبغية الحاوي في الباب الخامس منه في بدء الوحي والإسراء، وربك أعلم بما في نفس الأمر.

وفي «روح البيان» لدى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١] الآية أثناء كلامه على قصة الإسراء ما نصه:

قال ﷺ سألني ربي فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفي بلا تكييف ولا تحديد، قال: أي يد قدرته؛ لأنه سبحانه منـــزَّهٌ عن الجارحة، فوجدت بردها فأورثني علم الأولين والآخرين، وعلمني علومًا شتى، فعلم أخذ علي كتمانه؛ إذ علم أنه لا يقدر على حمله غيري، وعلم خيرني فيه، وعلم أمرني بتبليغه إلى العام والخاص من أمتي وهو الإنس والجن.

قال: وهذا التفصيل يدل على أن العلوم الشتى هذه العلوم الثلاثة، كما يدل عليه الفاء وهي زائدة على علوم الأولين والآخرين، فالعلم الأول من باب الحقيقة الصرفة، والثاني من باب المعرفة، والثالث من باب الشريعة، انتهى منه بلفظه.

وقال العلاَّمة ابن زكرى في شرحه لصلاة ابن مشيش ما نصه: جميع علوم النبيين والمرسلين تنـــزلت فيه ﷺ، كما يدل عليه قوله: «أورثني ربي علم الأولين والآخرين».

وفي شرح البردة للزركشي عن ابن عباس أنه ﷺ لما وُلد قال في أذنه رضوان خازن الجنان: أبشر فما بقي لنبيٍّ علم -: أي بكسر فسكون - إلا قد أعطيته، فأنت أكثرهم علمًا، وأشجعهم قلبًا انتهى.

وهذا الذي نقله عن ابن عباس ذكر في المواهب اللدنية أنه رواه الحافظ أبو بكر بن

---

(١) يقصد الصالحي صاحب سبل الهدى والرشاد، في الآيات البينات، والآيات العظيمة، والله أعلم.

عائذ في كتابه «المولد» قال كما نقله عنه الشيخ بدر الدين الزركشي في شرح بردة المديح، قال في شرح المواهب: وهذا أرسله ابن عباس، ومرسل الصاحب وصل في الأصح وحكمه الرفع؛ إذ لا مجال للرأي فيه انتهى، والله أعلم.

وأخرج أحمد وأبو داود في سننه، واللفظ له، والحاكم في المستدرك، والبيهقي، والطبراني في الكبير عن المقدام بن معدكرب الكندي مرفوعًا: «**أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ أَلا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا على أَرِيكَتِه يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ**[1]» الحديث.

أخرجه أبو داود في باب لزوم السُّنة من كتاب السُّنة، وأخرجه الترمذي أيضًا في أبواب العلم لكن لا بهذا اللفظ، وأورده الحافظ ابن حجر في أول لسان الميزان بلفظ: «ألا إني أُوتيت الكتاب»، ومثله معه: «ألا إني أوتيت القرآن»، ومثله معه.

وذكر بقية الحديث ثم قال: حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الحاكم والبيهقي انتهى.

وأورده بعضهم من عند أبي داود وابن حبان من حديث المقدام أيضًا بلفظ: «ألا إني أوتيت الكتاب وما يعدله.. الحديث».

ومعناه: أنه ﷺ أُوتي القرآن العظيم بما اشتمل عليه من الأحكام الظاهرة، والعلوم المتكاثرة التي يمكن أن تدرك منه لأهل العلم الظاهر بالوجوه المعروفة، والطرق المألوفة، ومثلها معها من الأحكام التي لم يصرح بها فيه، والعلوم التي لا يدركها منه أكثر العلماء، وإن كان يمكن أن تستنبط منه بوجه غير مألوف، وأمر غير معروف، لمن أمدَّه الله بعلومه اللدنية، أو تقول معناه أنه ﷺ أُوتي القرآن العظيم بعلومه وأسراره وخواصه، وجميع ما يشتمل عليه من تصريح أو تلويح أو رمز أو إشارة، ومن ظاهر وباطن الباطن إلى غير ذلك من كل ما يمكن أن يعلمه منه البشر والخلق من غيره ﷺ، وأوتي أيضًا مثل ذلك وما يعدله من علوم أُخر، وأحكام مختصة به، ومعارف وأسرار لا يُحاط بها، انفرد بها ﷺ ولم يؤمَّا أحد سواه، أخذها ﷺ من ربه تبارك وتعالى بلا واسطة شيء، ويمكنه أخذها

(١) رواه أبو داود (٤/٢٠٠)، وأحمد في مسنده (٤/١٣٠).

واستنباطها من القرآن أيضًا؛ لكونه جامعًا لعلوم الأولين والآخرين، ولكن بفهم اختص به، وإلهام خاص لم يحصل لغيره، والأول أقرب إلى الأفهام، والثاني أنسب وأليق بالمقام، والله أعلم.

النور الثالث

وهو نور الإدراك:

فإنه أدرك الله وأبْصَرَه على أي نوع كان وعلى أي مذهب إن كانت العلمية أو الأخرى، ثم كان يبصر من خلفه ﷺ كما كان يبصر من أمامه.

وأيضًا إدراك الجنة قبل موته.

وأيضًا كوشف عن الذي في قبره يُعَذْب.

وأيضًا كُشف له عن الجنة في عرض الحائط.

وأيضًا أبصر الملك على صورته التي خُلق فيها، ثم على أنحاء بعد ذلك.

هذا نور كشف له عن أعز المدركات كلها.

❁ قلت: قوله: (الإدراك) فمطلق الإدراك؛ اسمٌ لحقيقة اتصال المدرك بالمدرك وهو كالجنس، والعلم، والمعرفة، والتعقُّل، والإحساس بالسمع والبصر وسائر القوى والآلات كلها ألقاب، وصفات لمطلق الإدراك يحدث ويتعيَّن بحسب تقيُّده بالآلات المتوسطة من المدرك والمدرك وبحسب المراتب والمحال التي يقع فيها الإدراك فيتقيَّد لديها.

ويندرج فيه: المعرفة، والعلم، والتعقُّل، والفكر، والتصوُّر، والفهم، والإحساس بالحواس الظاهرة والباطنة على اختلاف ضروبها وطبقاتها؛ وهو حقيقة التصور وأقسامه محضورة فيما نذكر:

وأولها من وجه أدراك الخلق بالخلق في الخلق؛ أعني: إدراك ما يُسمَّى مخلوقًا بمثله في مثله على اختلاف القوى والمدارك التي يحصل بها.

الإدراك الآخر إدراك الخلق بالحق في الخلق الآخر، وإدراك الخلق في الحق الآخر إدراك

الخلق بالحق في الحق، فيكون حينئذ مرآة لحقائق الخلق لا للخلق الآخر إدراك الحق بالخلق في الخلق الآخر إدراك الحق بالحق في الخلق الآخر إدراك الحق بالخلق في الحق الآخر إدراك الحق بالحق في الحق.

وهذا بعد تجاوز مقامات المعرفة والتوحيد التي من جملتها رؤية الحق بالخلق في الحق، وهذا الذي أخبرت عنه، إدراك الحق بالحق في الخلق هو المترجم عنه بـ «كنت سمعه وبصره»[1].

وفوقه ما هو عكس الأول وهو أن يصل العبد بعد استهلاك كثرته في وحدة الحق غلبة حكم ما به الاتحاد على حكم ما به الامتياز من الأمور التعددية؛ سمع الحق وبصره وسائر صفاته الذاتية الوحدانية الحقيقية، فيسمع بما به يبصر بما به ينطق بما به يبطش بما به يسعى بما به يعقل، وإليه الإشارة بقوله ﷺ:

«إن الله قال على لسان عبده: سمع الله لمن حمده».

وفوقه مقام الجمع بين الأمرين والواصفين المذكورين، وفوقه مقام أحدية الجمع وله الجمع بين كل ما ذكره دون الحصر فيه وصفًا وحكمًا، فيرى بذاته ويسمع بذاته، كالحق في مرتبة غناه الذاتي مع قطع النظر عما أوجد، فظهر فيه أو به، فيستغني عن السوى، كان السوى من كان، فافهم.

وحينئذ يكون مثلاً ويكون على الصورة تمامًا، فيكون مقتضى ذاته الظهور والتلبس

---

(١) رواه البخاري (٥/٢٢٨٤).

قلت: وأما معناه عند أكابر القوم فقد ورد فيه: قال سيدي علي وفا قُدِّس سرُّه: معنى: «كنت سمعه...» إلى آخره.. أن ذلك الكون الشهودي مرتَّبٌ على ذلك الشرط، الذي هو حصول المحبة، فمن حيث الترتيب الشهودي جاء الحدوث المشار إليه بقوله (كنت سمعه)، لا من حيث التقرير الوجودي.

وقال الشيخ قُدِّس سرُّه في الباب الثامن والستين: المراد بـ«كنت سمعه وبصره» إلى آخره: انكشاف الأمر لمن تقرب إلى تعالى بالنوافل، لا أنه لم يكن الحق سمعه قبل التقرُّب، ثم كان الآن تعالى الله ﷻ عن ذلك، وعن العوارض الطارئة. قال: وهذه من أعز المسائل الإلهية اهـ.

بكل ما ذكر بحسب المراتب والدرجات، لا بحسب من ذكر من أرباب المدارك التقييدية، فيستوعب ولا يتعيَّن بوصف يُعرف ويُحدُّ به؛ لانحصاره فيه حكمًا أو عينًا.

وقوله: (**ثم كان يبصر من خلفه ﷺ كما كان يبصر من أمامه**).

وأخرج مالك في الموطأ في العمل في جامع الصلاة وأحمد والشيخان عن أبي هريرة مرفوعًا: «**أتَرَوْن**»، وفي رواية قال: «**هَلْ تَرَوْن قِبْلَتي هَا هُنَا** -: **أي مقابلتي ومواجهتي في جهة القبلة فقط** - **فَوَاللَّهِ مَا يَخْفَى عليَّ خُشُوعُكُمْ وَلا رُكُوعُكُمْ، إنّي لأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي**»[1].

وأخرج مسلم واللفظة له النسائي وابن خزيمة في صحيحه عنه أيضًا قال: «صلّى بنا رسول الله ﷺ يومًا ثم انصرف فقال: يا فلان ألا تحسن صلاتك، ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي، فإنما يصلي لنفسه، إني والله لأبصر من وراء كما أبصر من بين يدي، ولفظ ابن خزيمة في آخره: «إنكم ترون أني لا أراكم: أي والله لأرى من خلف ظهري كما أرى من بين يدى»[2].

وأخرج عبد الرزاق في جامعه والحاكم في المستدرك، وأبو نعيم من حديثه أيضًا مرفوعًا: «إني لأنظر إلى ما ورائي كما أنظر إلى ما بين يدي»[3].

وأخرج أحمد وعبد الرزاق بسند صحيح من حديثه أيضًا: «والذي نفسي بيده إني لأنظر - زاد في رواية في الصلاة - إلى من ورائي، كما أنظر إلى من بين يدي فسوا صفوفكم، وأحسنوا ركوعكم وسجودكم»[4].

وفي رواية لأحمد: «إني أنظر - أو قال: إني لأنظر - ما ورائي كما أنظر ما بين يدي..» الحديث.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٨).

(٢) رواه مسلم (٤٢٣) والنسائي (١/٤٩٥).

(٣) رواه ابن حبان في الصحيح (١٤/٢٥٠).

(٤) رواه أحمد (٢/٥٠٥).

وأخرج أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «إني أراكم من وراء ظهري».

وأخرج أحمد والشيخان والنسائي عن أنس مرفوعًا: «**أَتِمُّوا الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ بَعْدِ ظَهْرِي إِذَا مَا رَكَعْتُمْ وَإِذَا مَا سَجَدْتُمْ**[١]» هكذا ذكره السيوطي في الجامع عازيًا له لمن ذكر.

وقد أخرجه البخاري في مواضع منها في باب الخشوع في الصلاة ولفظه فيه وهو لمسلم أيضًا: «أقيموا الركوع والسجود فوالله إني لأراكم من بعدي»، وربما قال: «من بعد ظهري إذا ركعتم وإذا سجدتم».

ومنها في باب عظة الإمام الناس في إتمام الصلاة، وذكر القبلة، ولفظه فيه عن أنس بن مالك قال: صلّى بنا النبي ﷺ صلاةً ثم رقى المنبر فقال في الصلاة وفي الركوع: «إني لأراكم من ورائي كما أراكم يعني من أمامي».

ومنها في باب إقبال الإمام على الناس عند تسوية الصفوف ولفظه فيه حدَّثنا أنس قال: أقيمت الصلاة فأقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال: «أقيموا صفوفكم وتراصوا فإني أراكم من وراء ظهري[٢]».

وقد عزى في الجمع هذا اللفظ للبخاري والنسائي، وابن حبان في صحيحه عن أنس.

ومنها في الترجمة قبل هذه ولفظه فيها: «أقيموا الصفوف فإني أراكم خلف ظهرى».

وأخرجه أيضًا مسلم في الصلاة بألفاظ منها قوله عن أنس أن نبي الله ﷺ قال: «أتموا الركوع والسجود، فوالله إني لأراكم من بعد ظهري إذا ما ركعتم وإذا ما سجدتم».

قال: وفي حديث سعيد: «إذا ركعتم وسجدتم».

ومنها قوله عن أنس قال: صلّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «أيها الناس إني إمامكم فلا تسبقوني بالركوع، ولا بالسجود، ولا

---

(١) رواه البخاري (٧٢٧٨)، ومسلم (٤٢٥)، والنسائي (٢١٦/٢).

(٢) رواه البخاري (٢٥٣/١).

بالقيام، ولا بالانصراف، فإني أراكم أمامي ومن خلفي. ثم قال: والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيرًا، قالوا: وما رأيت يا رسول الله، قال: رأيت الجنة والنار[1]».

رؤيته ﷺ لأصحابه من وراء ظهره رؤية حقيقية، ثم الرؤية المذكورة في هذه الأحاديث مذهب الجمهور، وهو الصواب المختار أنها على ظاهرها، وأنها رؤية حقيقية، وإدراكٌ حقيقيٌّ، اختص به ﷺ، انخرقت له فيه العادة، وعلى هذا عمل البخاري، فإنه أخرج هذا الحديث في علامات النبوة، وكذا نقل عن أحمد وغيره خلافًا لمن حمل الرؤية فيه على الرؤية القلبية، وهي رؤية البصيرة، وإن صح أو على العلم إما بوحي بأن يوحى إليه كيفية فعلهم، وإما بإلهام بأن يلهمه الله تعالى حالتهم وهيأتهم، فإن ذلك بخلاف ما تظاهرت عليه الظواهر التي لا يحيلها عقل، ولا يعارضها شرع، ولو كان المراد العلم لم يقيد بقوله: (من وراء ظهري).

ومنهم من حملها على أنه كان يلتفت يمينًا وشمالاً التفاتًا يسيرًا، لا يلوي فيه عنقه، يدرك به حال من وراءه، ولا يخفى ما فيه من التكلف والعدول عن الظاهر بلا موجب مع ما فيه من ارتكاب ما لا يليق بالمقام، وقد أنكره أحمد على قائله، والظاهر أنها كانت من غير عضو ولا مقابلة، ولا شيء مما جرت به العادة بناء على مذهب أهل الحق، وهم أهل السُّنة من أن الرؤية لا يشترط لها عقلاً عضو مخصوص، ولا مقابلة، ولا شعاع، ولا تتوقف على ضوء، ولا على قرب، كما لا تتوقف على الآلة المخصوصة التي هي العين، وإنما هذه أمورٌ عاديةٌ يجوز عقلاً حصول الإدراك مع عدمها، ولذا حكموا بجواز رؤية الله تعالى في الدار الآخرة، خلافًا لأهل البدع بوقوفهم مع العادة.

وجوز بعضهم كونها برؤية عينية، وإنه انخرقت له فيهما العادة أيضًا، وصحَّح آخرون كونها بعين خلف ظهره يرى بها من ورائه، لا يحجبها الثياب ولا غيرها، وبعض المتكلمين أن تكون بإدراك خلق له في القفا أعم من كونه في بنية أم لا أخذًا من قوله في بعض الروايات: «إني لأبصر من قفايا كما أبصر من بين يدي».

---

(١) رواه مسلم (١/٣٢٠).

وقيل: كان بين كتفيه عينان مثل سم الخياط يبصر بهما، لا يحجبهما أيضًا ثوب ولا غيره، قاله مختار بن محمود الحنفي الزاهدي شارح القدوري من الحنفية.

ورده أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني قائلاً هذا مع ما وصف به من كمال الخلقة يشين، ولو أن إنسانًا كانت له عينان في قفاه لكان أقبح شيء، وخيال غيره هو قول مرغوب عنه بل ساقط، ونازع بعضهم فيه، وفي القولين قبله بأنها تحتاج لتوقيف من الشارع.

ورواية: (من قفايا) ليست نصًّا في المراد.

وقيل: بل كانت صورهم تنطبع في حائط قبلته، كما تنطبع في المرآة، فترى أمثلتهم فيها فيشاهد أفعالهم، ورد بأنه يحتاج أيضًا إلى توقيف، وظاهر الحديث أن ذلك يختص بحالة الصلاة.

ويؤيِّده ما أخرجه الحميدي في مسنده، وابن المنذر في تفسيره، والبيهقي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩]، قال: كان النبي ﷺ إذا قام في الصلاة يرى من خلفه كما يرى من أمامه[١].

ويحتمل أن يكون ذلك واقعًا في جميع أحواله ﷺ وهو الظاهر، ومذهب أهل الباطن، ومحققي أهل الباطن، ونُقل عن مجاهد أيضًا وعن جمع من المتقدمين، وعللوه بأنه إنما كان يبصر من خلفه؛ لأنه كان يرى من كل جهة؛ لأنه كان كله نورًا، وقد ثبت مثله لكثير من خواص أمته، وما ذاك إلا بما أمدَّهم الله به من نور مشكاته المفاض عليهم.

وفي الفتوحات في الباب التاسع والستين في معرفة أسرار الصلاة وعمومها ما نصه:

اعلم أن النبي ﷺ كله وجه بلا قفا، فإنه قال ﷺ: «إني أراكم من خلف ظهري»، فأثبت الرؤية لحاله ومقامه، فثبتت الوجهية له، وذكر الخلف والظهر لبشريته ﷺ، فافهم ما

---

(١) رواه الخلال في السنة (١/٩٩)، وابن حبان (١٤/٢٥٠)، وانظر: تفسير الطبري (١٩/١٢٤)، والقرطبي (١٣/١٤٤)، وابن كثير (٣/٣٥٣).

يرون رؤيته ويرون خلفه وظهره ﷺ، ولما ورثته ﷺ في هذا المقام، وكانت لي هذه الحالة:

كنت أصلّي بالناس بالمسجد الأزهر بمدينة فاس، قلت: وهو المعروف الآن بمسجد عين الخيل، قال: فإذا دخلت المحراب أرجع بذاتي كلها عينًا واحدًا، فأرى من جميع جهاتي كما أرى قبلتي، لا يخفى على الداخل ولا الخارج، ولا واحد من الجماعة حتى إنه ربما يسهو من أدرك معي ركعة من الصلاة، فإذا سلمت ورددت وجهي إلى الجماعة أدعوا أرى ذلك الرجل يجبر ما فاته فيخل بركعة، فأقول له: فاتتك كذا وكذا، فيتم صلاته ويتذكر، فلا يعرف هذه الأشياء، ولا هذه الأحوال إلا من ذاقها، انتهى منها بلفظها.

وفي نـــزهة الزاد وبغية الحاوي للعارف بالله القطب سيدي المختار بن أحمد الكنتي في الباب الخامس في بدء الوحي والإسراء ما نصه:

ثبت عنه ﷺ أنه لما حمل على الرفرف والتمع بصره جعل يرى بجميع بدنه، فيرى من أمامه كما يرى من خلفه، وكما يرى عن يمينه وشماله، وذلك بأن صار كله بصرًا، فحينئذ تأهل أن يرى ربه لما أمدَّه به من وضع يده بين كتفيه حتى وجد بردها على فؤاده، فعلم بذلك علومًا شتى، ثم قطرت نقطة العلم على قلبه وفؤاده، فازداد علمًا على علم، انتهى المراد منه بلفظه.

وقال العارف الحفني في حاشيته على الجامع الصغير في الكلام على رواية: أتموا الركوع والسجود ما نصه:

قوله لأراكم أي: رؤية إدراك وكشف قلبي، فلا تتوقف على وجود البصر، ولا على وجود الضوء، فهو خرقٌ للعادة.

قال: وهذا الإدراك حاصلٌ له ﷺ من حين رأى ربه ليلة الإسراء بعين بصره، وما قيل: (كان له ﷺ حدقتان في ظهره) رد بأن ذلك مشوه للخلقة، وقد كان سيدنا موسى يرى النملة السوداء في الليلة الظلماء مسيرة عشرة أيام، وقيل: فراسخ من حين كلّمه الله تعالى، ثم قال: فذاك الإدراك ليس بحدقتين في ظهره، كسم الخياط لا يحجبهما الثياب، كما قال بعضهم فإنه لا أصل له؛ إذ هو مشوه، وليس هذا خاص بالصلاة انتهى.

وفي فيض القدير في حديث: «أتموا الصفوف» ما نصه: قال في المطامح في أبي داود عن معاوية ما يدل على أن هذا كان في أواخر عمره.

ولذا قال عياض: كان ذلك له بعد ليلة الإسراء كما كان موسى يرى النملة السوداء في الليلة الظلماء من عشرة فراسخ بعد ليلة الطور، انتهى منه بلفظه.

قال الشيخ جعفر الكتاني: وعياض ذكر هذا في الشفا في فصل وفور عقله ﷺ من الباب الثاني فراجعه.

وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنهما أنها سُئلت عن هذا الإدراك، فقالت: «زيادة زاده الله إيَّاها في حجته»، وهو بضم الهاء، يعني في معجزته.

وضبط بعضهم لها وهو بفتحها على أن معناه أن هذه الزيادة إنما وقعت له في آخر عمره في حجة الوداع، غير صحيح.

مراقبة النبي ﷺ لأصحابه، وقد ذكروا من جملة فوائد هذه الأحاديث مراقبة النبي ﷺ لأصحابه في حالة الصلاة، كما أنه كان يراقبهم في غيرها من الأحوال سرًّا وعلانيةً، ظاهرًا وباطنًا، غيبةً وحضورًا، وقد كان على قدمه في هذا كبار العارفين والأولياء، حتى كان الشيخ عبد القادر الجيلاني ﷺ كثيرًا ما يقول لأصحابه على كرسيه: إني أراكم كالزجاجات.

وكم من مريدٍ أراد أن يرتكب بعض المحرمات وهو غائبٌ عن شيخه، فخرج عليه ومنعه من ذلك، وقضاياهم في هذا كثيرة:

منها: إنه وقع لعارف أن مريده أراد الزِّنا بامرأة، فلما همَّ سمع صوت شيخه من بلاد بعيدة يقول له: هكذا تفعل يا فلان، ففرَّ هاربًا.

ووقع لآخر مع مريده في نظير هذا أنه ما شعر إذ هم إلا والشيخ قد لطمه لطمة أذهبت بصره، فخرج وأمر من جاء به إلى الشيخ، فقال: ادعُ الله لي أن يرد بصري، فإني تائبٌ إلى الله تعالى، فقال: نعم، ولكن لا تموت إلا أعمى، فدعى له فردَّ عليه بصره، ثم عمي قبل موته بثلاثة أيام.

ووقع للشيخ أبي الغيث بن جميل اليمني أنه كان له تلميذ بالعجم فهمَّ بالزنا بامرأة فضربه الشيخ بقبقابه مع زجر وغضب بحضرة الفقراء، فلم يدروا ما الخبر، حتى قدم الشخص العجمي بقبقاب الشيخ بعد شهر تائبًا.

أمدَّنا الله تعالى بمدد أوليائه، ومنّ علينا بسلوك سبيل أصفيائه آمين.

وقد حكى بقي بن مخلد عن عائشة أنه ﷺ كان يبصر ويرى في الظلمة، كما يبصر ويرى في الضوء، وهذا أخرجه عنها البيهقي، وابن عدي، وابن عساكر، وإسناده ضعيفٌ.

وأخرج البيهقي أيضًا في الدلائل عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يرى بالليل في الظلمة كما يرى بالنهار في الضوء، وهو أيضًا ضعيف ضعَّفه غير واحد، لكنه حسن بشواهده، وما اشتهر من خبرِ لا أعلم ما وراء جداري.

قال الحافظ ابن حجر فيما نقله عنه في فيض القدير في الكلام على حديث: «أتموا الصفوف» لا أصل له.

قال في الفيض ويعرض وروده: فالمراد به أنه لا يعلم الغيب إلا باطلاعه تعالى. انتهى وراجع ما تقدَّم في هذا الخبر، والله الهادي والمرشد بمنِّه(١).

وأخرج أحمد والشيخان والترمذي وقال: حسنٌ صحيحٌ، والنسائي، وأبو عوانة، وابن حبان في صحيحه عن جابر مرفوعًا قال: سَمِعْتُ النَّبي ﷺ يَقُول:

«لَمَّا كَذَّبَنِي قُرَيْشٌ قُمْتُ فِي الْحِجْرِ، فَجَلَّي اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ»(٢).

وفي هذا انكشاف الأشياء لـــه ﷺ عند التوجه والالتفات إليها بحقائقها وأحوالها ومتعلقاتها، ونظره بعين البصر والبصيرة إليها بحيث لا يغيب عن نظره شيء منها، وهذا واقع لغيره من أولياء الله تعالى، فكيف به ﷺ الذي كل نوال من نواله، وكل خير وفضل

---

(١) انظر: فيض القدير (٢/٢٤٣).

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٣).

في العالمين منه، ومن أياديه وأفضاله.

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والحميدي والبخاري في مواضع منها علامات النبوة، ومسلم في الفتن، والعدني، وابن حماد في الفتن، وأبو عوانة، والحاكم في المستدرك، عن أسامة بن زيد، قال: أشرف النبي ﷺ على أُطُمٍ مِنْ آطَامِ الْمَدِينَة فَقَال: «**هَلْ تَرَوْن مَا أرى إِنِّي لأَرَى مَوَاقِعِ الْفِتَنِ خِلاَل بُيُوتِكُمْ كَمَوَاقِعِ الْقَطْرِ**[1]»

وفي رواية: «إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كموقع القطر».

وفي أخرى: «إني أرى الفتن تقع خلال بيوتكم مواقع القطر[2]».

فائدة: يجوز رؤية الشيء وسماعه قبل وجوده للأنبياء والأولياء.

قلت: وبهذا الحديث ونحوه استدلّ الصوفية على جواز، بل وقوع رؤية الشيء وسماعه قبل وجوده للأنبياء والأولياء، بناء على ما هو المتبادر من هذا الحديث أنها رؤية بصرية، وقضايا الأولياء في رؤيتهم بل وسماعهم للأشياء قبل وجودها لا تنحصر كثرة، ومن ثم أطبقوا على رؤيته تعالى، وسمعه للمعدوم الممكن الذي علم أنه سيوجد مخالفين في ذلك للمتكلمين في قولهم: إن السمع والبصر إنما يتعلقان بالموجودات، والمراد بها كل ما له تحقق في الخارج فقط، ولا يتعلقان بالمعدوم ممكنًا كان أو مستحيلاً.

ومن أدلة الصوفية في هذا قوله تعالى: ﴿**قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا**﴾ [المجادلة: ١].

فإن قولها إنما كان فيما لا يزال، وتعلق سمعه وبصره إنما هو في الأزل.

وقد قال العلاّمة ابن زكري في بعض تقاييده التي قيّدها على الصغرى للسنوسي:

ما قاله الصوفية هو المتعين؛ لأن تعلقهما تعلق انكشاف، فيلزم على تخصيصه بالموجود حال وجوده بعده في الأزل انتهى.

---

(١) رواه البخاري (١٧٧٩) ومسلم (٢٨٨٥).

(٢) رواه البخاري (٣/١٣١٧).

نقله الشيخ جسوس في شرح عقائد الرسالة، وفي بعض أجوبة الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي، لما ذكر له اعتراض بعض المتأخرين على ما وقع لأبي طالب المكي: أي في «قوت القلوب» من التصريح بتعلق سمع الله تعالى وبصره بالموجودات والمعدومات قبل وجودها، وإن مثله وقع في المواقف النفرية الصوفية: أي ووقع أيضًا للشيخ الجليل القصري مؤلف: «شعب الإيمان في شرح الأسماء» قال:

لا يخفى على ما في اعتراضه على هذا الولي من سوء الأدب، بل الواجب التسليم لأولياء الله تعالى فيما خفي علينا علمه من كلامهم؛ إذ ليس يستوي من ينظر في النور ومن ينظر في الظلمات. انتهى نقله العارف الفاسي في حواشيه على شرح الصغرى، والله أعلم.

وأخرج أحمد والترمذي في أبواب الزُّهد وقال: حسنٌ غريبٌ، وابن ماجه والحاكم في المستدرك، والضياء المقدسي في المختارة، وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم، وابن منيع عَنْ أبي ذرٍّ رفعه قَالَ: قَال رَسُولُ اللَّه ﷺ: «إنِّي أرى مَا لا تَرَوْن، وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُون، أطَّت السَّمَاءُ، وَحُقّ لَهَا أنْ تَئطّ مَا فيهَا مَوْضعُ أرْبَع أصَابع إلاّ وَمَلَكٌ وَاضعٌ جَبْهَتَهُ سَاجدًا لله، لَوْ تَعْلَمُون مَا أعْلَمُ لَضَحكْتُمْ قَليلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بالنِّسَاء على الْفُرُش وَلَخرَجْتُمْ إلى الصُّعُدَات تَجْأَرُون إلى اللَّه لَوَددْتُ أنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ[1]».

وأخرج الطبراني في الكبير، والضياء، وابن أبي حاتم في التفسير، وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم عن حكيم بن حزام، قال: بينما رسول الله ﷺ في أصحابه إذ قال لهم: «أتسمعون».

وفي لفظ: «هل تسمعون».

وفي آخر «تسمعون ما أسمع؟ قالوا: ما تسمع من شيء، قال: إني لأسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط ما فيها موضع شبر».

---

(١) رواه الترمذي (٤/٥٥٦)، وأحمد في المسند (٥/١٧٣)، وابن ماجه (٢/١٤٠٢).

وفي رواية: «قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم(١)».

وأخرج ابن منده، وابن عساكر عن عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه مرفوعًا: «هل تسمعون ما أسمع أطت السماء، وحق لها أن تئط ليس منها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد(٢)».

وتقدَّم من حديث سيدنا العباس عند البيهقي وغيره أنه ﷺ كان وهو في المهد يسمع وجبة القمر: أي سقطته حين يسجد تحت العرش.

ذكره السيوطي في خصائصه وغيره.

وفيها أيضًا أنه ﷺ كان يسمع حفيف أجنحة جبريل وهو بعد في سدرة المنتهى، ويشم رائحته إذا توجَّه بالوحي إليه، وذكر ذلك أيضًا الشعراني في «كشف الغمة» ناقلاً له عن خط شيخه جلال الدين السيوطي.

قلت: وهذا أعني رؤية الإنسان للأشياء البعيدة عنه جدًّا في الأرض برًّا وبحرًا، وفي السماء أو ما فوقها، وسماعه لها وشمه لرائحتها لا يُنكر، فإنه واقعٌ لأولياء الله كثيرًا، فكيف به ﷺ.

وفي «الفتوحات» في الباب الثاني وثلاثمائة ورد في حديث نبوي صحيح عند أهل الكشف وإن لم يثبت طريقه عند أهل النقل لضعف الراوي، ولقد صدق فيه، قال رسول الله ﷺ: «لولا تـزيد في حديثكم، وتمريج في قلوبكم، لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع(٣)» انتهى.

قلت: وهو طرفٌ من حديث أخرجه أحمد، وابن جرير الطبري، ولفظ ابن جرير فيه: «لولا تمريج قلوبكم، وتـزيدكم في الحديث، لسمعتم ما أسمع». وتقدم لفظ أحمد وما في الحديث من الكلام، فليُراجع.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٣/٢٠١).
(٢) رواه ابن عساكر في تاريخه (٥٢/٣٨١).
(٣) رواه أحمد (٥/٢٦٦).

وفي المواهب اللدنية من خصائصه ﷺ أنه كان يبلغ صوته وسمعه ما لا يبلغه صوت غيره ولا سمعه، قال شارحها: فقد كان يخطب فتسمعه الهواتف في البيوت، ويسمع أطيط كما السماء مر بسط ذلك في شمائله انتهى.

وانظر إلى ما أخرجه البيهقي وأبو نعيم عن عائشة أن النبي ﷺ جلس يوم الجمعة على المنبر، فقال للناس: اجلسوا، فسمعه عبد الله بن رواحة، وهو في بني علم، فجلس في مكانه وفيه معجزة وكرامة، وكأنه فهم أن الخطاب عام في حق من بلغه الصوت، ولو كان خارجًا عن المسجد النبوي، ولو بعيدًا منه، ولذلك جلس امتثالاً وأدبًا، وكان القرينة على ذلك بلوغ الصوت له بطريق المعجزة الخارقة للعادة، وإن لم يظهر لجلوسه هو في مكانه فائدة، فقد تكون موجودة ولا يطلع عليها؛ إذ قد تخفى في بعض الأوامر والنواهي، ولذلك يحكم الفقهاء على ما خفيت فيه بأنه تعبدي، والله أعلم.

وانظر أيضًا إلى ما ورد من قول سيدنا عمر بن الخطاب أثناء خطبته يوم جمعة لسارية ابن زنيم الدؤلي، وكان قد أمره على جيش وسيره إلى فارس، وذلك سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، فرآهم من المدينة وهو يخطب، وقد جعل العدو عليهم كمينًا على يسار الجبل: يا سارية الجبل، الجبل، يعني خذ طريق الجبل واحذر كمين العدو، ورفع صوته فألقى الله ذلك في أسماع سارية وأصحابه، وكانوا بنهاوند بلد بأقصى العراق جنوبي همدان، بينها وبين المدينة أكثر من مسيرة شهر، فعدلوا إلى الجبل، ففتح الله عليهم وهي قضية مشهورة، أخرجها الواقدي وسيف في الفتوح، والبيهقي في الدلائل، واللالكائي في شرح السُّنة، وابن الأعرابي في كرامات الأولياء، وابن مردويه، وغيرهم.

راجع الإصابة في ترجمة سارية المذكور.

وفي لطائف المنن: إن القطب الحلبي الحافظ أفرد لطرقها جزءًا.

قال بعضهم: وكان هذا في حياة سارية، فلما مات في مصر دُفن أيضًا في قلعة الجبل، فكأنه امتثل قول عمر بعد وفاته أيضًا.

راجع الرحلة الكبرى لسيدي عبد الغني النابلسي.

وفي العهود المحمدية في عهد الاستعداد لوقوف عرفة ما نصه:

إن لله تعالى رجالاً يسمعون كلام من بينهم وبينه مسيرة ثلاثين ألف سنة، وراثة إبراهيمية قال: وقد وقع لي في ابتداء أمري أني كنت أسمع كلام من في أقطار الأرض من الهند والصين وغيرهما، حتى إني كنت أسمع كلام السمك في البحار المحيطة، ثم إن الله حجب ذلك عني، وأبقى معي العلم كي لا أنكر مثل ذلك على أحد.

وكان سيدي أحمد بن الرفاعي يتكلم على الكرسي بأم عبيدة، فيسمعه من حوله من القرى، والله على كل شيء قدير انتهى.

وقد ذكر بعض الكبار أنه انخرق لسمعه ﷺ وبصره وشمه وإدراكه ولمسه وسائر حواسه جميع الكون، وسائر المملكة الربَّانية، وأنه يرى منها ما شاء متى شاء، ويسمع ويُسمع ويشم ويُشم ويلمس ويتناول، ويأخذ ويعطي، كذلك ويحول ويتصرف، ويفعل ما شاء على الوجه الذي شاء، وأذن له فيه، ولا ينحجب عنه شيء، أو يمتنع منه أيًا كان، إذا أراده على أي وجه كان، وأي وصف في المملكة كلها عمومًا.

قلت: والأحاديث والآثار الواردة في هذا الباب والحكايات المنقولة عن أهل الله تعالى تشهد بذلك، وتأمّل ما تقدّم عن الشيخ عبد السلام الأسمر أن الله تعالى أطلعه على جميع الكائنات، وكشف له عن ملكوت السماوات والأرض والجنة وما فيهما ظاهرًا وباطنًا.

وعن سيدي أحمد بن الرفاعي من أنه صحب ثمانمائة ألف أمة ممن يأكل ويشرب ويروث وينكح، وأنه لا يكمل الرجل حتى يصحب هذا العدد، ويعرف كلامهم وصفاتهم وأسماءهم وأرزاقهم وآجالهم، ولا تستقر نطفة في فرج أنثى إلا وينظر إليها، ويعلم بها، وأمثال هذا عن الأولياء كثير، وهم قطرات أو جداويل من بحار علمه ومعرفته، وما أطلعه الله عليه وأراه إياه، بل ما نالوا ذلك إلا منه، ولا اغترفوه إلا من بحره الطام الذي لا حدّ له ولا نهاية، والعقول كلها لا تتسع لإدراك ماهيته وحقيقته، والله ذو الفضل العظيم والمن على ما يشاء من خلقه، لا رب سواه سبحانه وتعالى.

وقوله: (**إدراك الجنة قبل موته**).

أخرج مالك في الموطأ وأحمد والشيخان: البخاري في العلم والطهارة والكسوف والاعتصام والاجتهاد والسهو، ومسلم في الصلاة، وغيرهم من حديثها أيضًا في صلاة الكسوف، واللفظ لمسلم قالت: فانصرف رسول الله ﷺ وقد تجلّت الشمس، فخطب رسول الله ﷺ الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد.. ما من شيءٍ لم أكن رأيته إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار» الحديث.

ولفظ مالك في الموطأ، والبخاري في باب صلاة النساء مع الرجال في الكسوف، وفي باب: من لم يتوضأ إلا من الغشي المثقل من كتاب الطهارة:

فلما انصرف رسول الله ﷺ حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما من شيءٍ كنت لم أرَه إلا قد رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار، الحديث[١]».

وفي أخرى للبخارى في العلم في باب: من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرأس، فحمد الله النبى ﷺ وأثنى عليه ثم قال: «ما من شيءٍ لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار[٢]».

وفي أخرى لأحمد عنها: «أيها الناس إنه لم يبقَ شيء لم أكن رأيته إلا وقد رأيته في مقامي هذا».

وفي هذه الرواية أنه قال: «أيها الناس إنكم لن تسألوني عن شيءٍ حتى قام رجلٌ فقال: من أبي؟ قال: أبوك فلان الذي كان يُنسب إليه[٣]».

وفي أخرى له: «لقد أدنيت مني الجنة حتى لو اجترأت عليها لأتيتكم بقطف من قطافها، ولقد أدنيت مني النار حتى قلت: يا رب وأنا معهم[٤]» الحديث.

وأخرج الشيخان والنسائي من حديث عائشة في صلاته أيضًا: «لقد رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدته»[٥].

---

(١) رواه البخاري (١/٣٥٨، رقم ١٠٠٥) ومالك (١/١٨٨)، رقم (٤٤٧).

(٢) رواه البخاري (١/٤٤)، رقم (٨٤).

(٣) رواه أحمد (٦/٣٥٤).

(٤) رواه أحمد (٦/٣٥١).

(٥) رواه البخاري (١/٤٤)، ومسلم (٢/٦٠١)، والنسائي (٣/١٣١).

وفي رواية ابن وهب عن يونس عند مسلم والنسائي: «وعدتم حتى لقد رأيتني أريد أن آخذ قطفًا — أي: عنقودًا — من الجنة حين رأيتموني جعلت أتقدم، ولقد رأيت جهنم يحطم — أي: يكسر ويزاحم — بعضها بعضًا حين رأيتموني تأخرت، ورأيت فيها عمرو بن لحي وهو الذي سيب السوائب[1]».

وأخرج مالك في الموطأ، وأحمد، والشيخان، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، وابن جرير من حديث ابن عباس في صلاته أيضًا قالوا: «يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم رأيناك كففت — وفي رواية: تكعكعت — فقال: إني رأيت — وفي لفظ للبخاري: أريت — الجنة فتناولت منها عنقودًا ولو أخذته — وفي رواية: ولو أصبته — لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت — وفي رواية: وأريت — النار فلم أرَ منظرًا قط — وفي رواية: فلم أرَ منظرًا كاليوم قط — أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء.. الحديث[2]».

وأخرج مسلم واللفظ له، وابن جرير الطبري من حديث جابر بن عبد الله قال: كُسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ في يوم شديد الحر الحديث.

وفيه أنه ﷺ قال: «إنه عُرض عليَّ كل شيء تولجونه — وفي رواية ابن جرير: توعدونه — فعُرضت عليَّ الجنة حتى لو تناولت منها قطفًا أخذته — أو قال: تناولت منه قطفًا فكثرت يدي عنه — وعُرضت عليَّ النار، فرأيت فيها امرأة من بني إسرائيل تُعذَّب في هرة لها ربطتها، فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، ورأيت أبا ثمامة عمرو بن مالك يجر قصبه في النار[3]» الحديث.

وأخرج أحمد ومسلم واللفظ له من حديثه أيضًا قال: «انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ[4]» الحديث.

وفيه أنه ﷺ قال: «ما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه، وقد جيء

---

(١) رواه البخاري (١/٤٠٦)، ومسلم (٢/٦١٩).
(٢) رواه البخاري (١٠٠٣) ومسلم (٩٠٧)، ومالك (٤٤٤)، وأحمد (١/٢٩٨)، والنسائي (١/٥٧٨) وابن حبان (٧/٩٦).
(٣) رواه مسلم (٢/٦٦٦)، (٩٠٣) .
(٤) رواه مسلم (٢/٦٣١).

بالنار وذلكم حين رأيتموني تأخرت مخافة أن يصيبني من لفحها، وحتى رأيت فيها صاحب المحجن يجر قصبه في النار، كان يسرق الحاج بمحجنه، فإن فطن له قال: إنما تعلق بمحجني، وإن غفل عنه ذهب به، وحتى رأيت فيها صاحبة الهرة التي ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعًا، ثم جيء بالجنة وذلكم حين رأيتموني تقدمت حتى قمت في مقامي، ولقد مددت يدي وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه، ثم بدا لي ألا أفعل، فما من شيء توعدونه إلا قد رأيته في صلاتي هذه(١)».

ولابن خزيمة من حديث سمرة بن جندب قال: «لقد رأيت منذ قمت أصلي ما أنتم لاقون في دنياكم وآخرتكم(٢)».

ولأحمد من حديثه أيضًا: «إني والله لقد رأيت منذ قمت أصلي لكم ما أنتم لاقون من أمر دنياكم وآخرتكم(٣)».

ولفظ البيهقي في سننه الكبرى من حديثه: «والله لقد رأيت منذ قمت أصلي ما أنتم لاقون في دنياكم وأخرتكم(٤)» الحديث.

وأورده السيوطي في جامعه الكبير في (يا أيها الناس) وقال فيه: «فقد أريت في مقامي وأنا أصلّي ما أنتم لاقون في دنياكم وآخرتكم».

ثم عزاه لتخريج أحمد وأبي يعلى وابن خزيمة والطحاوي وابن حبان وابن جرير والطبراني في الكبير والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن والضياء المقدسي عن ثمرة ولفظ رواية الطبراني في الكبير عنه:

«ما رأيتم من شيء في الدنيا له لون ولا نبئتم به في الجنة ولا في النار إلا وقد صور لي من قبل هذا الجدار منذ صليت لكم صلاتي هذه، فنظرت إليه مصورًا في جدار المسجد(٥)».

وأخرج أحمد والنسائي وابن جرير من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال:

---

(١) رواه مسلم (٦٢٣/٢).
(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (٣٢٦/٢).
(٣) رواه أحمد (١٦/٥).
(٤) رواه البيهقي في الكبرى (٣٣٩/٣).
(٥) رواه أحمد (١٦/٥)، والروياني (٧٠/٢)، والحاكم (٤٧٩/١)، وابن حبان (١٠٢/٧)، والبيهقي في الكبرى (٣٣٩/٣)، والطبراني في الكبير (١٨٩/٧).

«انكسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ» الحديث.

وفيه: «والذي نفس محمد بيده لقد أدنيت الجنة مني حتى لو بسطت يدي لتعاطيت من قطوفها، ولقد أدنيت النار مني حتى لقد جعلت أتقيها خشية أن تغشاكم.. الحديث[١]».

ولفظ أحمد: «أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ﷻ، فإذا كُسف أحدهما فافزعوا إلى المساجد، فوالذي نفسي بيده لقد عرضت علي الجنة حتى لو أشاء لتعاطيت بعض أغصانها، وعرضت على النار حتى إني لأطفئها خشية أن تغشاكم.. الحديث[٢]».

وفي لفظ آخر له وللنسائي قال: فلما صلَّى قال: «عُرضت عليَّ الجنة حتى لو مددت يدي تناولت من قطوفها، وعُرضت عليَّ النار، فجعلت أنفخ خشية أن يغشاكم حرها، ورأيت فيها سارق بدنتي رسول الله ﷺ، ورأيت فيها أخا بني دعدع سارق الحجيج فإذا فطن له قالوا: هذا عمل المحجم، ورأيت فيها امرأة طويلة سوداء، تُعذَّب في هرة ربطتها فلم تطعمها و لم تسقها، و لم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت[٣]» الحديث.

وفي حديث أحمد عن المغيرة بن شعبة: «إِنَّ النَّار أُدْنِيَتْ مِنِّي حتى نَفَخْتُ حَرَّهَا عَنْ وَجْهِي فَرَأَيْتُ فِيهَا صَاحِب الْمِحْجَنِ، وَالَّذِي بَحَرَ الْبَحِيرَة وَصَاحِبَة حِمْيَر صَاحِبَة الْهِرَّة[٤]».

ففي هذه الأحاديث رؤيته للجنة والنار وما فيهما، وعرضهما عليه كما تعرض الأشياء والرعية على الملوك لمعرفتها، وتفقد أحوالها، ورؤيته لكل شيء لم يكن رآه قبل، ولكل شيء وعد به هو أو وعدت به أمته، ولكل شيء تلاقيه أمته في دنياها وآخرتها، ولكل شيء رأوه في الدنيا، وأنبئوا به في الجنة والنار.

---

(١) رواه النسائي (١/٥٧٤).
(٢) رواه أحمد (٢/١٥٩).
(٣) رواه النسائي (٣/١٣٨).
(٤) رواه أحمد في المسند (٤/٢٤٥).

وفي الحديث الأول أنه علم كم خزنة النار، وحملة العرش، وأنه أُوتي فواتح الكلم وخواتمه: أي أوائله وأواخره وجوامعه: أي أسراره التي جمعت فيه.

والكلم يحتمل أن يُراد به خصوص الكلام العربي، وأن يُراد به كل الكلام من جميع اللغات التي لبني آدم، أو التي لسائر الخلائق من جنٍّ وإنسٍ وملكٍ وحيوانٍ وغيرها، وهو أظهر لمعرفته بلسان الكل، وبعثته له على القول المرتضى، والله أعلم.

وقد ذكر المحققون من العلماء أن رؤيته ﷺ للجنة والنار في صلاة الكسوف هي رؤية عين، بأن رُفعت الحجب بينه وبينها حتى رآهما رؤية حقيقية، وطُويت المسافات بينه وبينهما حتى أمكنه أن يتقدَّم إلى الجنة، وأن يتأخر عن النار، ولا مانع من هذا وهو الأقرب، والأشبه بظاهر الحديث ويؤيده ما ذكروه، ويأتي في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى من أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا قالوا: رأينا الجنة أو النار أو غير ذلك، فالمرئي لهم هو الحقيقة دون المثال، بخلاف الولي.

ويؤيِّده أيضًا ما وقع في بعض الروايات المذكورة، من أنه تناول من الجنة عنقودًا، وفي الرواية الأخرى: إنه أراد أن يأخذ منها قطفًا، وهو اسمٌ لكل ما يُقطف، وما وقع في بعضها أيضًا من أنهما دنتا أو أدنيتا منه، وأنه جعل ينفخ خشية أن يغشاهم حر النار.

ومنهم من حمل الرؤية[1] فيهما على رؤية المثال، وأنهما مثلتا له وصورتا في قبلة المسجد، كما تنطبع الصورة في المرآة، فرأى جميع ما فيهما، واستدلَّ له بحديث أنس الآتي، وهو في الصحيح: «لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار ممثلتين في قبلة هذا الجدار».

وفي رواية: «والذي نفسي بيده لقد عُرضت عليَّ الجنة والنار آنفًا في عرض هذا الحائط وأنا أصلي، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر».

---

(١) الــرؤية: المشاهدة بالبصر، لا بالبصيرة. حيث كان الإبصار من النشأة العاجلة أو الآجلة. قال الكليم صلوات الله عليه وسلامه: ((أرني أنظر إليك)) ولم يقل: أشهدني، فإنه المشاهدة بالبصر كانت حاصلة له حين طلب الرؤية.

وفيه أن هذه قصة أخرى وقعت له في صلاة الظهر، ولا مانع أن يرى الجنة والنار مرتين بل مرارًا عديدة على صورٍ مختلفة.

ومنهم من حملها على العلم، وأن الله ﷻ زاده الآن من العلم بحالهما تفصيلاً لم يكن له قبل؛ ليزداد بذلك خوفه ورجاؤه وعلمه، وهو أضعف مما قبله، بل في غاية البعد.

وفي شرح ابن أبي جمرة لمختصره لصحيح البخاري في الكلام على حديث أسماء السابق في الوجه الثالث ما نصه:

قوله ﷺ: «ما من شيءٍ لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي هذا»، فيه دليلٌ على أنه ﷺ لم يكن يرى من الغيب جميعه في الزمن المتقدم قبل هذا الموطن إلا البعض، وأنه في هذا الموطن تكملت له الرؤية لتلك الأشياء كلها، ثم تردَّد في أنه أخبر بجميع الغيوب، أو بما يحتاج به الإخبار إلى أمته، وما يخصه ﷺ في ذاته المكرمة، أو مما أكرمه الله للاطلاع عليه، واستظهر الثاني منهما.

ثم قال في الوجه الخامس: فيه دليلٌ على عظيم قدرة الله تعالى؛ إذ إنه ﷺ رأى في هذه الدار في هذا الزمن اليسير ما لم يرَه ليلة المعراج في العالم العلوي، ومشاهدة الملكوت، وفيه دليلٌ على أن القدرة لا تتوقف في شيءٍ ممكن؛ لأنه ﷺ رأى في هذا الزمن اليسير أمورًا عظام، ثم عقلها جميعًا مع إبقاء أوصاف البشرية عليه.

ثم قال في الوجه السادس: قوله ﷺ: «حتى الجنة والنار»، هذا اللفظ محتمل لوجهين:

الأول: أن يكون ﷺ أراد أن يخبرهم بأنه عاين كل ما يلقون بعد خروجهم من هذه الدار حتى يستقروا في الجنة أو النار.

الثاني: أن يكون ﷺ أراد أن يخبرهم بعظيم ما رأى من أمور الغيب بذكر الجنة والنار، تنبيهًا على ذلك؛ لأن الجنة قد رُوي أن سقفها عرش الرحمن، والنار في أسفل سافلين تحت البحر الأعظم: أي الذي عليه قرار الأراضين، فإذا رأى هذين الطرفين، فمن باب أولى أن يرى ما بينهما، انتهى منه بلفظه.

وقال الكرماني في قوله: «ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته» ما نصه:

فإن قلت: هل فيه دلالة على أنه ﷺ رأى في هذا المقام ذات الله تعالى؟

قلت: نعم إذ الشيء يتناوله، والعقل لا يمنعه، والعرف لا يقتضي إخراجه انتهى.

وعبارته في «إرشاد الساري» في كتاب العلم: «ما من شيء لم أكن أريته» بضم الهمزة: أي مما تصح رؤيته عقلاً، كرؤية الباري تعالى، ويليق عرفًا مما يتعلق بأمر الدين وغيره «إلا رأيته»: رؤية عين حقيقة حال كوني في مقامي انتهى.

وقال الشيخ أكمل الدين في شرح المشارق قوله: «في مقامي» يجوز أن يكون المراد به المقام الحسِّي وهو المنبر، ويجوز أن يكون المراد به المقام المعنوي، وهو مقام المكاشفة والتجلِّي بالحضارات الخمسة، التي هي عبارة عن حضرة الملك والملكوت والأرواح، والغيب الإضافي، والغيب الحقيقي، فإنه البرزخ الذي له التوجه إلى الكل، كنقطة الدائرة بالنسبة إلى الدائرة، صلوات الله عليه وسلامه، ونفحنا من نفحات قدسه بمتابعته انتهى.

وقوله: **(وأيضًا كُشف له عن الجنة في عرض الحائط).**

قد تكرَّرت رؤيته ﷺ للجنة والنار يقظةً ومنامًا، ودخوله لهما وإخباره عما فيهما كثيرًا، وكثرت الأحاديث الواردة في ذلك.

أخرج أحمد والبخاري في عدة مواضع منها في النكاح، والترمذي عن عمران بن حصين، وأحمد عن عبد الله بن عمرو، وأحمد، ومسلم، والترمذي، عن أنس، وأبو داود الطيالسي وهناد ومسلم والنسائي عن ابن عباس، وابن منده وأبو نعيم عن عبد الرحمن بن حارثة ابن السلمي عن جده رفعوه: «اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ - يعني ليلة الإسراء أو في النوم أو بالوحي أو بالكشف بعين الرأس أو بعين القلب لا في صلاة الكسوف ولا كما قيل - فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ»(١).

وفي رواية لعبد الله بن الإمام أحمد في زيادات المسند عن ابن عمرو ابن العاص:

---

(١) رواه البخاري (٤٩٠٢) وأحمد (٧١٦/٤) والترمذي (٧١٦/٤) عن عمران بن حصين، وأحمد (١٧٣/٢) عن عبد الله بن عمرو، وأخرجه مسلم (٢٧٣٧) وأحمد (٢٣٤/١) والنسائي في الكبرى (٥/٣٩٩) والطيالسي في مسنده (١١٢/١) عن عبد الله بن عباس.

«فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء».

ورواه أحمد عن أبي هريرة بلفظ: «اطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاء وَاطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاء»[١].

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي عن أسامة بن زيد مرفوعًا: «قُمْتُ على بَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ وَإِذَا أَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُون إلاَّ أَصْحَاب النَّارِ فَقَدْ أُمِرَ بِهِمْ إلى النَّارِ وَقُمْتُ على بَابِ النَّارِ فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ»[٢].

وأخرج أحمد والشيخان عن أبي هريرة مرفوعًا: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه - يعني أمعاءه - في النار، وكان أول من سيب السوائب».

زاد في رواية: «وبحر البحيرة».

وأخرج أحمد والبخاري في عدة مواضع، ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة، وابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر مرفوعًا: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إلى جَانِبِ قَصْرٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَهُ، فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا». فَبَكَى عُمَرُ وَقَالَ: أَعَلَيْكَ أَغَارُ يَا رَسُولَ اللَّهِ[٣].

وأخرج ابن عساكر عن أنس مرفوعًا: «أدخلت الجنة فرفع لي قصر فقلت: لمن هذا؟ قالوا: لعمر بن الخطاب، فما منعني أن أدخله إلا غيرتك».

قال أبو بكر بن عياش راويه عن حميد عن أنس: فقلت لحميد: في النوم أو في اليقظة؟ قال: لا بل في اليقظة[٤].

وأخرج البخاري من حديث جابر مرفوعا: «رَأَيْتُنِي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِالرُّمَيْصَاءِ امْرَأَةِ أَبِي طَلْحَةَ وَسَمِعْتُ خَشَفَةً، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَال: هَذَا بِلاَلٌ، وَرَأَيْتُ قَصْرًا بِفِنَائِهِ

(١) رواه أحمد (٢/٢٩٧).
(٢) رواه البخاري (٦١٨١)، ومسلم (٢٧٣٦).
(٣) رواه البخاري (٣٠٧٠)، ومسلم (٢٣٩٥)، وأحمد (٢/٣٣٩)، وابن ماجه (١٠٧).
(٤) رواه ابن عساكر في تاريخه (٤٤/١٤٧).

جَارِيَةٌ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: لِعُمَر» الحديث[١].

وأخرج أحمد والترمذي وابن خزيمة في صحيحه من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه وهو بريدة بن الحصيب قال: أصبح رسول الله ﷺ يومًا فدعا بلالاً فقال: «يَا بِلَالُ بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الْجَنَّةِ إِنِّي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ الْبَارِحَةَ فَسَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي» الحديث[٢].

وأخرج أحمد والشيخان من حديث أبي هريرة قال: قال نبي الله ﷺ لبلال عند صلاة الفجر: «حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ عِنْدَكَ فِي الإِسْلَامِ مَنْفَعَةً؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشْفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ» الحديث[٣].

ولفظ البخاري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قَالَ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: «يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ» الحديث[٤].

وأخرج الترمذي والحاكم وصححه وتعقب عن أبي هريرة أيضًا مرفوعًا: «رَأَيْتُ جَعْفَرًا يَطِيرُ فِي الْجَنَّةِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ بجناحين»[٥].

وأخرج الطبراني في الكبير عن جابر مرفوعًا: «رأيت خديجة على نهر من أنهار الجنة في بيت من قصب لا لغو فيه ولا نصب»، وإسناده صحيح، واقتصار من اقتصر على حسنه تقصير.

وأخرج النسائي والحاكم في المستدرك عن أنس مرفوعًا: «دخلت الجنة فسمعت فيها قراءة فقلت: من هذا؟ فقالوا: حارثة بن النعمان، كذا لكم البر، كذا لكم البر[٦]»: أي له قال: هذه الدرجة بسبب بره لأمه.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٦).

(٢) رواه الترمذي (٥/٦٢٠)، وأحمد (٥/٣٥٥) وابن خزيمة (٢/٢١٣).

(٣) رواه مسلم (٢٤٥٨)، وأحمد (٢/٣٣٣).

(٤) رواه البخاري (١٠٩٨).

(٥) رواه الترمذي (٥/٦٥٤).

(٦) رواه الحاكم في صحيحه (٣/٢٢٩)، والنسائي في الكبرى (٥/٦٥) عن عائشة.

وإسناده صحيح كما في الإصابة.

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي عن أنس مرفوعًا: «دخلت الجنة فسمعت خشفة بين يدي فقلت: ما هذه الخشفة؟ فقيل: الخميصاء بنت ملحان يعني أم سليم الأنصارية».

وأخرج البخاري والترمذي وقال: حسنٌ صحيحٌ، وابن حبان في صحيحه عن أنس أيضًا مرفوعًا: «بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ فِي الْجَنَّةِ إِذْ عَرَضَ لِي نَهْرٌ حَافَّتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ - المجوف - قُلْتُ لِلْمَلَكِ: مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الذي أَعْطَاكَهُ اللَّهُ - قَال - ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ إِلَى طِينَةٍ، فَاسْتَخْرَجَ مِسْكًا ثُمَّ رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَرَأَيْتُ عِنْدَهَا نُورًا عَظِيمًا[(١)]».

وأخرج ابن عساكر في تاريخه بسند جيد عن عائشة مرفوعًا: «**ادخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو بن نفيل درجتين**».

وأخرج الطبراني في الكبير بسند حسن عن أبي أمامة مرفوعًا: «**دخلت الجنة فرأيت على بابها: الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر**[(٢)]».

وأخرج الطبراني في الكبير عن أوس بن أوس الثقفي مرفوعًا: «بينا أنا جالس إذ جاءني جبريل فحملني فأدخلني جنة ربي، فبينا أنا جالس إذ جعلت في يدي تفاحة فانفلقت التفاحة بنصفين، فخرجت منها جارية لم أرَ جارية أحسن منها حسنًا، ولا أجمل منها جمالاً، تسبح تسبيحًا لم يسمع الأولون والآخرون بمثله، فقلت: من أنتِ يا جارية؟ قالت: أنا من الحور العين، خلقني الله تعالى من نور عرشه، فقلت: لمن أنت؟ فقالت: أنا للخليفة المظلوم عثمان بن عفان[(٣)]».

وخرَّجه الملائي في سيرته من حديث أنس، وخيثمة بن سليمان من حديث عقبة بن عامر الجهني.

راجع «الرياض النضرة».

---

(١) رواه الترمذي (٥/٤٤٩).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/٢٤٩).

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١/٢١٩).

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب أن عمر بن الخطاب قال: يا رسول الله خبِّرني بما رأيت في الجنة ليلة أُسري بك؟ فقال: يا ابن الخطاب، لو لبست فيكم ما لبس نوح في قومه ألف سنة أحدثكم كما رأيت في الجنة لما فرغت منه..» الحديث ذكره السيوطي في الجامع في مسند علي.

وهو يدل على أن ما حدَّث به النبي ﷺ عن الجنة والنار، والعالم العلوي والسفلي، شيء يسير جدًّا، بل أقل من القليل بالنسبة لما يعلمه، وأُطلع عليه من أحوال ذلك.

وأخرج الحاكم في المستدرك عن أنس قال: «صلَّى النبي ﷺ ذات ليلة صلاةً فمدَّ يده ثم أخرجها فسألناه عن ذلك؟ فقال: إنه عُرضت عليَّ الجنة، فرأيت فيها أغصان دالية، قطوفها دانية، فأردت أن أتناول منها شيئًا، وعُرضت على النار فيما بينكم وبيني حتى رأيت ظلي وظلكم فيها[١]».

وأخرج أيضًا عن ابن مسعود رفعه: «إنه عُرضت عليَّ الجنة، فرأيت فيها دالية قطوفها دانية، فأردت أن أتناول منها شيئًا، فأُوحي إليَّ أن استأخر، فاستأخرت، وعُرضت عليَّ النار فيما بينكم وبيني حتى رأيت ظلي وظلكم فيها، فأومأت إليكم أن استأخروا، فأُوحي إليَّ أن أقرهم.. الحديث».

وأخرج أبو يعلى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بينا نحن في صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ، فتقدمنا معه، ثم تناول شيئًا ليأخذه، ثم تأخر فلما قضى الصلاة قال له أُبي بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم في الصلاة شيئًا ما كنت تصنعه؟ قال: إنه عُرضت عليَّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه ما بين السماء والأرض لا ينقص منه».

ذكره ابن كثير في تفسيره.

وأورده في الجمع من عند أحمد، وعبد بن حميد، وأبي يعلى، والشاشي، والضياء عن

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٥٠٣/٤).

جابر بلفظ: «**عُرضت عليَّ الجنة بما فيها من النضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض ولا ينقص، ثم عُرضت عليَّ النار، فلما وجدت سفعها تأخرت عنها**» الحديث.

وأخرج أحمد، والحاكم في المستدرك، والضياء المقدسي من طريق الطفيل بن أُبي بن كعب عن أبيه مرفوعًا: «**عُرضت عليَّ الجنة بما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت قطفًا من عنبها لآتيكم به، ولو أخذته لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه، فحيل بيني وبينه، وعُرضت عليَّ النار، فلما وجدت حر شعاعها تأخرت**» الحديث[1].

وأخرج مسلم من حديث أنس أنه ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا**». قَالُوا: وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ**»[2].

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والترمذي وقال: حسنٌ صحيحٌ، واللفظ له والنسائي والحاكم وصححه، والبيهقي في الدلائل، وابن جرير، وابن مردويه عن حذيفة بن اليمان قال: «أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - يعني ليلة الإسراء - بِدَابَّةٍ طَوِيلَةِ الظَّهْرِ مَمْدُودَةٍ هَكَذَا خَطْوُهُ مَدُّ بَصَرِهِ، فَمَا زَايَلا ظَهْرَ الْبُرَاقِ حتى رَأَيَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَوَعْدَ الآخِرَةِ أَجْمَعَ ثُمَّ رَجَعَا عَوْدَهُمَا على بَدْئِهِمَا قَالَ: وَيَتَحَدَّثُونَ أَنَّهُ رَبَطَهُ لِمَ أَيَفِرُّ مِنْهُ وَإِنَّمَا سَخَّرَهُ لَهُ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ[3]».

وفي لفظ عن حذيفة أنه حدَّث عن ليلة أُسري برسول الله ﷺ فقال: «ما زايل البراق حتى فُتحت له أبواب السماوات، فرأى الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع، ثم عاد».

ولفظ ابن مردويه كما في الدر المنثور: «فأُري ما في السماوات وما أُري في الأرض.. الحديث».

---

(١) رواه أحمد (٣/٣٥٢) والحاكم في المستدرك (٤/٦٤٧).

(٢) رواه مسلم (٤٢٦).

(٣) رواه الترمذي (٥/٣٠٧) .

وفي الجمع للسيوطي: «أتيت بالبراق وهو دابةٌ أبيض طويل، يضع حافره حيث منتهى طرفه، فلم نــزايل ظهره أنا وجبريل حتى أتيت بيت المقدس، ففُتحت لي أبواب السماء، ورأيت أبواب الجنة والنار».

رواه أحمد وابن أبي عمر وأبو يعلى وابن حبان والحاكم والضياء عن حذيفة انتهى.

وأخرج أحمد والبخاري في عدة مواضع منها في الصلاة والرقاق والفتن والاعتصام، ومسلم في المناقب في فضائل النبي ﷺ، والترمذي في التفسير، والنسائي في الرقائق، وغيرهم، واللفظ للبخاري عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس، فصلَّى الظهر، فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة، وذكر أن بين يديها أمورًا عظام ثم قال: «من أحب أن يسأل عن شيءٍ فليسأل عنه، فوالله لا تسألوني عن شيءٍ إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا، قال أنس: فأكثرَ الناس البكاء، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول: «سلوني سلوني؟» قال أنس: فقام إليه رجلٌ فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: «النار» فقام عبد الله بن حذافة، فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: «أبوك حذافة»، ثم أكثر أن يقول: «سلوني سلوني؟»، فبرك عمر على ركبتيه وقال: رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً، قال: فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك، ثم قال رسول الله ﷺ: «أو لي؟ والذي نفسي بيده لقد عُرضت عليَّ الجنة والنار آنفًا في عرض هذا الحائط، وأنا أصلي فلم أرَ كاليوم في الخير والشر[1]».

هكذا أورده في باب ما يُكره من كثرة السؤال من كتاب الاعتصام، وساقه أيضًا بنحوه في باب وقت الظهر من كتاب الصلاة، وأورده في باب التعوذ من الفتن من كتاب الفتن بلفظ عن أنس ﷺ قال:

سألوا النبي ﷺ حتى أحفوه بالمسألة فصعد النبي ﷺ ذات يوم المنبر فقال: «لا تسألوني عن شيءٍ إلا بيَّنته لكم».

ولفظ رواية مسلم: «لا تسألوني عن شيءٍ إلا بينته لكم»، فلما سمع ذلك القوم أرموا ورهبوا أن يكون بين يديه أمر قد حضر.

---

(١) رواه البخاري (٦٨٦٤)، ومسلم (٢٣٥٩).

ثم قال البخاري في روايته عن أنس: فجعلت أنظر يمينًا وشمالاً، فإذا كل رجل رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان إذا لاح يُدعى إلى غير أبيه فقال: يا نبي الله من أبي؟ فقال: «أبوك حذافة»، ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً، نعوذ بالله من سوء الفتن، فقال النبي ﷺ: «ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه عُرضت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط».

وفي رواية مسلم: «لم أرَ كاليوم قط في الخير والشر، إني صورت لي الجنة والنار فرأيتهما دون هذا الحائط».

وأورده البخاري أيضًا في باب رفع البصر إلى الإمام في الصلاة، ولفظه فيه عن أنس ابن مالك قال: صلّى بنا النبي ﷺ ثم رقي المنبر فأشار بيده قبل قبلة المسجد، ثم قال:

«لقد رأيت الآن منذ صليت لكم الجنة والنار ممثلتين في قبلة هذا الجدار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر ثلاثًا».

وفي لفظ لمسلم في الفضائل عن أنس بن مالك: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال: «**عُرضت عليَّ الجنة والنار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**» الحديث.

وقد ذكره السيوطي في جامعه الصغير من عنده، فقال شارحه المناوي في ((فيض القدير)) ما نصه:[1]

وقد تجلّى له ﷺ الكون كله، وزويت له الأرض بأسرها، فأُري مشارق الأرض ومغاربها، وكل ذلك عند اندراج المسافات في حقه انتهى.

قلت: وقوله: (في عرض هذا الحائط) العُرض بضم العين: الجانب.

وقيل: الوسط.

وقيل: الجهة.

---

(١) انظره في الفيض: (٤/٣١٢).

وعرض الجنة والنار عليه في الحائط يحتمل أن يكون حقيقة، وأنه ﷺ رآهما من ذلك الموضع، كما يُقال: رأيت الهلال في منـــزلي في الطاق، والمراد من موضع الطاق، ويدل له قوله في الحديث الآخر: «فتناولت منها قطفًا من عنب»، لكن هذه رؤية أخرى في صلاة الكسوف غير هذه الرؤية أنها في صلاة الظهر، ويحتمل أن يكون مجازًا من باب التمثيل، وأنه ضرب له ﷺ مثلهما، وشرح له أمرهما بأمر أريه في الحائط وجهته ويدل عليه رواية مثلت لي، وصورت لي، والقدرة صالحة لكليهما.

وقد قال الأبي في شرح مسلم قال القرطبي: ظاهر أحاديث الكسوف أنه ﷺ رأى الجنة حقيقةً؛ لتناوله العنقود، والنار؛ لتأخره مخافة أن يصيبه لهبها، ولقوله ﷺ: رأيت فيها فلانًا وفلانًا.

وظاهر هذه الأحاديث يعني أحاديث صلاة الظهر أنها صورت له ﷺ، ولا إحالة في ذلك، كما تصور الأشياء في الأجسام الصقيلة، فإن قلت: الحائط ليس بصقيل، قيل: الصقالة شرطٌ عاديٌ لا عقليٌّ، فيجوز أن تنخرق له العادة فتُمثل له في الحائط انتهى.

وقال ﷺ: «ما من شيءٍ لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي هذا حتى الجنة والنار» الحديث[1].

والأخبار كثيرة متواترة حتى لا يكاد أن يرتاب فيها أحدٌ من المسلمين والسلام. انتهى.

وقوله: (**كُوشف عن الذي في قبره يُعَذَّب**).

وأخرج أحمد وابن حبان في «صحيحه» عن أبي أمامة: إن النبي ﷺ مرَّ على قبرين، فقال: «إنهما ليعذبان الآن ويفتنان في قبريهما. قالوا: وحتى متى هما يعذبان؟ قال: غيب لا يعلمه إلا الله، ولولا تمزع قلوبكم وتـــزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع».

ذكره بهذا اللفظ في «جمع الجوامع» وعزاه لمن ذكر، وذكره المنذري في «الترغيب»

---

(١) رواه البخاري (٨٦)؛ ومسلم (٩٠٥).

بلفظ آخر، وقال: رواه أحمد واللفظ له وابن ماجه كلاهما من طريق علي بن يزيد الألهاني عن القاسم، يعني ابن عبد الرحمن الشامي عنه، يعني عن أبي أمامة.

قلت: ولفظ أحمد: حدَّثنا أَبُو الْمُغيرَة، حدَّثنا مُعَانُ بْنُ رِفَاعَة، حَدَّثَني علي بن يَزيد قَال: سَمِعْتُ الْقَاسِم أَبَا عَبْد الرَّحْمَنِ يُحَدِّثُ عَنْ أَبِي أُمَامَة قَالَ: «مَرَّ النَّبِي ﷺ فِي يَوْمٍ شَديد الْحَرِّ نَحْو بَقيع الْغَرْقَد، قَال: فَكَان النَّاسُ يَمْشُون خَلْفَهُ قَال: فَلَمَّا سَمِع صَوْت النِّعَال وَقَر ذَلك في نَفْسه، فَجَلَس حتى قَدَّمَهُمْ أَمَامَهُ؛ لِئَلا يَقَع فِي نَفْسه شيء مِن الْكِبْر، فَلَمَّا مَرَّ بِبَقيع الْغَرْقَد إذَا بقَبْرَيْنِ قَدْ دَفَنُوا فيهمَا رَجُلَيْنِ - قَال - فَوَقَف النَّبي ﷺ فَقَال: «مَنْ دَفَنْتُمْ هَا هُنَا الْيَوْمَ؟» قَالُوا: يَا نَبي اللَّه فُلاَنٌ وَفُلاَنٌ. قَال: «إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَان الآن وَيُفْتَنَان فِي قَبْرَيْهمَا». قَالُوا: يَا رَسُول اللَّه، فيم ذَلكَ؟ قَال: «أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَان لا يَتَنَــزَّهُ من الْبَوْل، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَان يَمْشي بالنَّميمَة». وَأَخَذ جَريدَةً رَطْبَةً فَشَقَّهَا ثُمَّ جَعَلَهَا على الْقَبْرَيْن قَالُوا: يَا نَبي اللَّه، وَلم فَعَلْتَ؟ قَال: «لَيُخَفَّفَنَّ عَنْهُمَا». قَالُوا: يَا نَبي اللَّه وَحتى متى - يعني إلى متى يُعَذِّبُهمَا اللَّهُ؟ قَال: «غَيْبٌ لا يَعْلَمُهُ إلاّ اللَّهُ». قَال: «**وَلَوْلا تَمْزيع قُلُوبِكُمْ أَوْ تَــزَيُّدُكُمْ في الْحَديث لَسَمِعْتُمْ مَا أَسْمَعُ**»[1].

وعلي بْنُ يَزيد هذا اختلف فيه، ووثقه ابن معين والجوزجاني والترمذي وصحح له، وقال العجلي: ثقة يُكتب حديثه، وليس بالقوي.

وابن ماجه رواه في باب من كره أن يوطأ عقباه من أبواب قصر العلم والعلماء، إلا أنه اقتصر على صدره إلى قوله: من الكبر.

وقوله: (لئلا يقع في نفسه شيء من الكبر) معناه في نفس من وقع له مثل هذا؛ لأنه ﷺ معصوم، فهو من التنبيه على ضعف حالة البشر، وأنهم محل للآفات كلها إلا من عصمه الله تعالى.

وأيضًا أبصر الملك على صورته التي خلق فيها.

مرتبة عالم المثال وهي عبارة عن الأشياء الكونية المركبة اللطيفة التي لا تقبل التجزئة والتبعيض ولا الخرق والالتئام.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥/٢٦٦).

وقال في «نقش النصوص»: العالم المثالي هو عالم روحاني من جوهر نوراني، شبيه بالجوهر الجسماني في كونه محسوسًا مقداريًّا، وبالجوهر المجرد العقلي في كونه نورانيًّا، وليس بجسم مركب مادي، ولا جوهر مجرد عقلي؛ لأنه برزخ وحد فاصل بينهما، وكل ما هو برزخ بين الشيئين لا بدَّ وأن يكون غيرهما، بل له جهتان يشبه بكل منهما ما يناسب عالمه، إلا أن يُقال: إنه جسمٌ نورانيٌّ في غاية ما يكون من اللطافة، فيكون حدًّا فاصلاً بين الجواهر المجردة اللطيفة وبين الجواهر الجسمانية المادية الكثيفة، وإن كان بعض من هذه الأجسام أيضًا ألطف من بعض، كالسماوات بالنسبة إلى غيرها، فليس بعالم عرضي كما زعم بعضهم؛ لزعمه أن الصور المثالية منفكة عن حقائقها، كما زعم في الصور العقلية، والحق أن الحقائق الجوهرية موجودة في كل من العوالم الروحانية والعقلية والخيالية، ولها صور بحسب عوالمها انتهى.

وقال آخرون: عوالم المثال عالم لطيف بالنسبة إلى الأجرام، كثيف بالنسبة إلى الأرواح، فهو برزخٌ بين عالمي المجردات والأجسام؛ لتجرده عن المواد، كالمجردات، وامتداده كامتداد الأجسام، غير قابلٍ للفصل والوصل، مثل قبول هذه الأجسام.

وقال: هذه العبارات واحد، سمي بالعالم المثالي؛ لكون أول مثال صوري لما في الحضرة العلمية الإلهية من صور الأعيان والحقائق، ولكونه مشتملاً على صور ما في العالم الجسماني من عرش وكرسي وسماوات وأرضين، وما في جميعها من الأملاك وغيرها، وليس هناك معنى من المعاني الممكنة، ولا روح من الأرواح إلا وله صورة مثالية مطابقة لما هو عليه؛ إذ لكلٍّ منها نصيب من الاسم الظاهر، وكل ما له وجود في العالم الحسي هو في العالم المثالي دون العكس.

ولذلك قال أرباب الشهود: إن العالم الحسي بالنسبة للعالم المثالي كحلقة ملقاة في بيداء، لا نهاية لها، والأصل في وجوده الكتاب والسُّنة والكشف الصحيح.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧].

وأما السُّنة: فأحاديثٌ كثيرةٌ، منها قوله في حديث بدء الوحي في البخاري وغيره:

«**وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**[(١)]».

واستدلَّ البيهقي لذلك بما أخرجه الشيخان عن عائشة أن الحارث بن هشام ﷺ سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثلَ صَلْصَلَة الجرَسِ وهو أشدُّه عليَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ ما قالَ، وأحيانًا يَتَمَثَّلُ لِي الملكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُني فأعِي مَا يَقُولُ».

قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينـــزل عليه الوحي في اليوم الشديدُ البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصد عرقًا[(٢)].

فهذا الحديث ونحوه صريحٌ في أن النبي ﷺ كان ينتقل من حالته المعروفة إلى حالة تستلزم الاستغراق والغيبة عن الحالة الدنيوية، حتى ينتهي الوحي ويفارقه الملك.

قال السراج بن البلقيني: هي حالة يُؤخذ فيها عن حال الدنيا من غير موت، فهو مقامٌ برزخيٌّ يحصل له عند تلقِّي الوحي، ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأحوال، خصّ الله نبيه ببرزخٍ في الحياة يلقي الله فيه وحيه، المشتمل على كثيرٍ من الأسرار، وقد يقع لكثيرٍ من الصلحاء عند الغيبة بالنوم أو غيره، اطّلاعٌ على كثيرٍ من الأسرار، وذلك مستمدٌّ من المقام النبوي، ويشهد له حديث: «رؤيا المؤمن جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوة[(٣)]» انتهى.

ويشهد له حديث مجيء الملك بسورة (اقرأ) حيث قال: «فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدُ[(٤)]»: أي بلغ الغط مني غاية وسعي.

ومنه الغط في الماء، وكأنه أراد ضمني وعصرني، أخرجه الشيخان.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (٢٣٣٣)، والترمذي (٣٦٣٤)، والنسائي (٢/١٤٧)، ومالك في الموطأ (١/٢٠٢)، وأحمد في المسند (٦/١٥٨).

(٢) رواه البخاري (١/٢).

(٣) رواه البخاري (٩/٣٨)، ومسلم (٧/٥٢)، وأبو داود (٤/٤١٦) والترمذي (٩/١٢٣).

(٤) رواه البخاري (١/٢٢)، ومسلم (١/٩٧).

وحديث: «فأخَذَ بحَلْقي[1]»: أي ضمني وخنقني، أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده بسند حسن.

وأما الكشف فأجمع العارفون بالله على إثباته كشفًا وشهودًا خلافًا لمن أنكره مستدلاً على إنكاره بطريق النظر والعقل، ثم هو عند من أثبته قسمان: قسمٌ يشترط في إدراكه القوة المتخيلة، المتصلة بنشأة الإنسان، فلا يدرك إلا بها، ويذهب بذهابها، ويُسمَّى مثالاً مقيَّدًا، ومثالاً متصلاً، وهو نوعان: نوعٌ مقيد بالنوع، ونوع غير مقيَّد به، ولكنه مشروطٌ بحصول غيبة وفتور ما في الحس، كما في الواقعات المشهورات للصوفية، وأول ما يراه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الوحي إنما هو الصور المثالية المرئية في النوم والخيال، ثم يترقون إلى رؤية الملك في المثال المطلق أو المقيد في غير حال النوم، لكن مع فتور في الحس.

وقسمٌ لا يُشترط فيه ذلك، أعني القوة المتخيلة، فيحصل بدونها، ولا يذهب بذهابها، ويُسمَّى مثالاً مطلقًا، ومثالاً منفصلاً، وهو حضرة ذاتية قابلة دائمًا للمعاني والصور، فتجدها بخاصيتها لا يكون غير ذلك.

ومن هذا القسم الثاني وهو المطلق الصور المرئية في المرايا ونحوها من الأجسام الصقيلة، وتشكل الملك كجبريل عليه السلام بمثل صورة دحية الكلبي أو غيره، والأنبياء والأولياء بمثل أشكالهم العنصرية، وتصور الأعمال الصالحة بصور حسنة جميلة، والسيئة بصور ظلمانية قبيحة، والأنبياء والكُمَّل أكثر ما يرون الأشياء ويشاهدونها في حضرة المثال المطلق، وكل ما يرى فيها لا بدَّ أن يكون حقًّا مطابقًا للواقع: أي للصورة الخارجية من غير اختلال، ومن ثم لا يحتاج فيها إلى تعبير بخلاف حضرة المثال المقيد، فشأنها أن يعبر عن الصورة الممثلة فيها إلى المعاني المقصودة منها، فمن ثم تحتاج إلى التعبير في الغالب، وهو الجواز من صورة ما رأى إلى أمر آخر، وهو المعنى المراد بها.

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده (ص٢١٥، ٢١٦).

النور الرابع

وهو نور النبوة:

فهو ما له ظهر من الآيات، وما تحدّى به من المعجزات، ثم ما أدرك من النوع الأكمل. هذا كشف له به عن مقام النبوءة، وأظهر الله به قدره ومكانه.

❁ قلت: قال ابن دحية: النبي: يُهمز ولا يُهمز، فالنبي بلا همزة معناه: الرَّفيع الشَّأن، العالي الأمر، أُخِذَ من النَّباوة: وهي ما ارتفع من الأرض، ومن جعله من النبأ بهمزة؛ لأنه ينبئ عن الله تعالى، أي: يُخبر، فهو مُنَبِّئ، أو لأنه تنبَّأ هو بالوحي، وقد هَمَزَهُ نافعٌ في جميع القرآن، وقال العباس بن مِرداس السلمي:

يـــا خـــاتم النُّـــبآء إنك مرسلٌ ... بـــالحقِّ كـــلُّ هـــدى السَّبيل هُدَاكَا

إنَّ الإلـــه بَـــنَى علـــيك محبَّةً ... مـــن خَلْقِـــهِ ومحمَّـــدًا سمَّاكـــا

وهذا البيت، والاشتقاق، وقراءة أهل المدينة تُثبت فيه الهمزة، وترك همزة على التخفيف، فمن جعل التخفيف فيه لازمًا، وهو قراءة الأكثرين قال: في جمعه، أنبياء، مثل تَقيّ وأتقياء، ووصِيّ وأوصياء.

قال النحوي، العالم أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل في كتاب: «الاشتقاق» له: وسمعت عليَّ بن سليمان يقول: الأولى في العربية في «نبي» ترك الهمز، ويدل على ذلك القرآن، وذلك قوله ﷻ: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ**﴾ [آل عمران:١١٢]، فهذا جمعٌ غير مهموز، كما يقال: صَفِيّ وأصفياء، ولو كان مهموزًا لقلت في جمعها: نُبَآء، كما تقول: كرماء في جمع كريم.

ولم يأت القرآن الكريم بنُبآء، وإنما جاء في شعر عباس بن مِرْدَاس.

وقيل: النبي «الطريق» سُمِّي بذلك لأنه «الطريق» إلى الله، وسمي رسل الله أنبياء لأنهم «الطرق» إلى الله، إلا أن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً؛ لأن الرسول هو المرسل للأمة من قِبَلِ الله عز وجل، داعيًا إليه، وصادعًا بالدلالة عليه، ومُرشدًا إلى كلِّيات المصالح العامة التي يستقيم بها نظام الدنيا، وينال الفوز الأكبر في العُقْبَى؛ ناسخًا بشرعته لشرعة

من تقدمه من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين، وهو مخاطبٌ من الله جلّ جلاله، ومخبرٌ عنه إما بوساطة الملك كفاحًا، وإما من وراء حجاب صراحًا، وهو سماع الكلام القديم كما سمعه موسى ﷺ بنص القرآن العظيم، ونبينا محمد ﷺ بنص الحديث الكريم.

والوحي على ضروب: فمنه هذا، ثم وحي رسالة بواسطة ملك، ووحي تلقٍّ بالقلب كما ذُكر عن داود عليه السلام، والرسول يَعُمُّ البشر والملائكة، والنبي يخصُّ البشر، وقد جاء بذلك القرآن العظيم.

وأما النبي فهو المبلِّغ عن الله ﷻ للأمة التي هو من جملة شيعة رسولها، واتِّباعه ما يُؤمر بتبليغه إليها من بشارة ونِذارة إما بإلهام، أو منام، أو مخاطبة بعض الملائكة الكرام عليهم السلام، وليس له نسخ شيء من شرعة مَن تقدمه.

وأما قوله جل من قائل: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩].

وكذلك: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤].

وكذلك: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقول عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف:٦].

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:٢].

فإنما أراد جلّ وعلا تعريفه بالاسم؛ ليعلم من جحده أن أمره وكتابه هو الحق، ولأنهم لم يعرفوه إلا بمحمد ولو لم يسمه لم يُعلم اسمه من الكتاب العزيز، مع أن اسمه مشتقٌّ من اسم الله ﷻ كما مُدِحَ به:

وشـــقَّ لَـــه مـــن اسمه ليجلّه فـــذو العـــرش محمودٌ وهذا محمَّدُ

ولم يُواجهه في القرآن العظيم باسمه؛ بل ناداه فيه بالنبوة والرسالة.

وناداه باللطف: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل:١].

و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر:١].

وناداه بالرمز بقوله جلّ من قائل: ﴿طه﴾ [طه:١].

وقال الحرالي: النبوة الخاصة به ﷺ هي نبوة الرفعة المشتقة من نبوة الأرض، وهو ما ارتفع منها، فلرفعته في وجوه الرفعة كلها عروجًا وتدليًا رفعة إحاطة لا رفعة اختصاص كان ﷺ نبيَّ النبوة التي هي عُلوٌّ، وعلت نبوته عن أن تكون خبرًا من النباء؛ لاستغنائه بالعلم عن الخبر، ولذلك والله أعلم لما قيل له: يا نبيء الله (بالهمزة) قال: «لست بنبيء الله؛ أنا نبيُّ الله[1]»، فبين اختصاصه بنبوة العلو والرفعة، وتنـزهه عن نبوءة النباء والإخبار، الذي هو حظٌ من لا علم له بما نبئ به.

فلما علمه الله ما لم يكن يعلم كان ﷺ نبيَّ علوٍّ، لما انتهى إليه علمه إلى الغاية الجامعة المحيطة فكان العالم بالحق الأعلم بالله، كانت نبوة تمامًا، فكان النبيَّ المكمل بما يشير إليه الدوم كلمة (ال).

فإذا أطلق اسم النبيِّ اختصَّ به هو ﷺ، وإلا قيل: نبيُّ بني إسرائيل، ونبيُّ بني فلان.

فهو النبيُّ المحيط النبوة، الذي كلُّ النبوةِ من نبوته، السابق في النبوة، كما قال ﷺ: «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين[2]»، وهو ﷺ النبيُّ بما أوحى إليه ربه ما أوحى بلا واسطة مُلقٍ ولا مُبلغٍ، المنتهي في النبوة إلى جمع علو السمع، والعين المنتهية إلى الوجد العليِّ الذي هو به نورٌ كله، قلبه وقبره وشعره وبشره ولحمه وعظمه ودمه، حتى كان ﷺ طاهر الدم طاهر جميع الفضلات بما هو نورٌ كله، فهو النبيُّ مطلقًا في ذاته نورٌ، وفي بيانه إنارةٌ.

قال السبكي: أُرْسِلَ للخلق كافة من لدن آدم، والأنبياء قبله بعثوا بشرائع معينات، فهو نبي الأنبياء، وأرسل إلى الجن بالإجماع وإلى الملائكة في أحد القولين، رجحه السبكي.

زاد المازري: وإلى الجمادات والحيوانات والحجر والشجر، وبُعِثَ رحمة للعالمين حتى

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣/٤٢٠)، وابن عدي في الكامل (٢/٤٣٧)، وذكره الذهبي في الميزان (٢/٣٧٦)، وابن حجر في لسان الميزان (٤/٥).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/٥٤)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/١٦٩)، والقاري في المصنوع (١/١٤٢)، والمباركفوري في تحفة الأحوذي (١٠/٥٦).

الكفار بتأخير العذاب عنهم، ولم يعاجلوا بالعقوبة كسائر الأمم المكذبة، وبأن الله أقسم بحياته وأقسم على رسالته، وتولى الرد على أعدائه، وخاطبه بلطف ما خاطب به الأنبياء، وقرن اسمه باسمه في كتابه، وفرض على العالم طاعته والتأسي به فرضًا مطلقًا لا شرط فيه ولا استثناء، ووصفه في كتابه عضوًا عضوًا، ولم يخاطبه في القرآن باسمه، بل: يأيها النبي يأيها الرسول، وحرم على الأمة نداءه باسمه.

وكره الشافعي أن نقول في حقه: (الرسول) بل (رسول الله)؛ لأنه ليس فيه من التعظيم ما في الإضافة، وفرض على من ناجاه أن يقدم بين يدي نجواه صدقة ثم نسخ ذلك، ولم يره في أمته شيئًا يسوؤه حتى قبضه بخلاف سائر الأنبياء، وبأنه حبيب الرحمن، وجمع له بين المحبة والخلة، وبين الكلام والرؤية، وكلمه عند سدرة المنتهى، وكلم موسى على الجبل، قاله ابن عبد السلام.

وجمع بين القبلتين والهجرتين، وجمع له بين الحكم بالظاهر والباطن معًا، ونصر بالرعب مسيرة شهر أمامه وشهر خلفه، وأُوتي جوامع الكلم، وأُوتي مفاتيح خزائن الأرض على فرسٍ أبلق عليه قطيفة من سندس، وكُلِّمَ بجميع أصناف الوحي، عد هذه ابن عبد السلام.

وهبط عليه إسرائيل ولم يهبط على نبيٍّ قبله، عد هذه ابن سبع، وجمع له بين النبوة والسلطان، عدَّ هذه الغزالي في الإحياء.

وأُوتي علم كل شيء إلا الخمس التي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقيل: إنه أوتيها وأُمِرَ بكتمها، والخلاف جار في الروح أيضًا، وبيّن له أمر الدجال ما لم يبن لأحد، ووعد بالمغفرة، وهو يمشي حيًا صحيحًا.

قال ابن عباس: ما أمّن الله أحدًا من خلقه إلا محمدًا.

قال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وقال الله تعالى للملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

وقال عمر بن الخطاب: «والله ما تدري نفس ماذا مفعول بها، ليس هذا إلا للرجل الذي قد بين له أنه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر» ﷺ، أفرده الحاكم، ورفع ذكره؛ فلا يذكر الله جلَّ جلاله في أذان ولا خطبة ولا تشهد إلا ذُكر معه، وعرض عليه أمته بآخرهم حتى رآهم، وعرض عليه ما هو كائن في أمته حتى تقوم الساعة.

قال الأسفراييني: وعرض عليه الخلق كلهم من لدن آدم فمن بعده، كما علم أسماء كل شيء، وهو سيد ولد آدم[1]، وأكرم الخلق على الله، فهو أفضل من سائر المرسلين، وجميع الملائكة المقرَّبين، وكان أفرس العالمين، عد هذه ابن سراقة، وأُيِّدَ بأربعة وزراء: جبريل وميكائيل وأبي بكر وعمر، وأُعطي من أصحابه أربعة عشر نجيبًا، وكل نبي أعطي سبعة، وأسلم قرينه، وكان أزواجه عونًا له، وأصحابه أفضل العالمين إلا النبيين وكلهم يجتهدون.

ولهذا قال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم[2]»، ومسجده أفضل المساجد، وبلده أفضل البلاد بالإجماع، فيما عدا مكة على أحد القولين فيها وهو المختار، وتربتها مؤمنة، وغبارها يطفئ الجذام، ونصف أكراش الغنم فيها، مثل ما عليها في غيرها من البلاد، ولا يدخلها الدجال ولا الطاعون، وصرف الحمى عنها أول ما قدمها، ونقل حماها إلى الجحفة، ثم لما أتاه جبريل بالحمى والطاعون أمسك الحمى بالمدينة، وأرسل الطاعون إلى الشام، ولما عادت الحمى إلى المدينة باختياره إياها لم تستطع أن تأتي أحدًا من أهلها، حتى جاءت وقفت ببابه واستأذنته فيمن يبعثها إليه، فأرسلها إلى الأنصار[3]، وأُحلت له مكة ساعة من نهار، وحرم ما بين لابتي المدينة.

وقال المازري والقاضي عياض: لا تقتل حيات المدينة التي للنبي ﷺ إلا بإنذار، والحديث الوارد في إيذان الحيات خاصٌّ بها، ويسأل عنه الميت في قبره، واستأذن ملك

---

(١) رواه مسلم (٧/٥٩).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٦/٢٩٧).

(٣) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٣٠٥).

الموت عليه و لم يستأذن على نبي قبله، والبقعة التي دفن فيها أفضل من الكعبة ومن العرش، ويحرم التكني بكنيته، والتسمي باسمه محمد، والتسمي بالقاسم؛ لئلا يكنى أبوه أبا القاسم، حكاهما النووي في شرح مسلم[١]، ويجوز أن يُقسم على الله به[٢]، وليس ذلك لأحد، ذكر هذه ابن عبد السلام، ولم تر عورته قط، ولو رآها أحدٌ طمست عيناه، وذكر المازري في توثيق عرى الإيمان من خصائصه: أنه لخواص الأنبياء وأنه نبي الأنبياء، وأنه ما من نبي إلا وله خاصة نبوة من أمته إلا وفي هذه الأمة عالم من علمائها يقوم في قومه مقام ذلك النبي في أمته وينحو منحاه في زمانه، ولهذا ورد: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل[٣]».

وورد: «أن العالم في قومه كالنبي في أمته[٤]».

ومن خواصه أن سماه الله عبد الله ولم يطلقها على أحدٍ سواه وإنما قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص:٣٠].

ومن خواصه: أنه ليس في القرآن ولا غيره صلاة من الله على غيره، فهي خصيصةٌ اختصه الله بها دون سائر الأنبياء انتهى.

النور الخامس

وهو نور النشأة:

فهو الذي كشف له مكانته وعناية الله به وحفظه، وما فعلت الملائكة به وتطهيره، وشق بطنه، واتصافه بما يجب، وكونه كان يتيمًا محفوظًا حتى إن أمه الأولى حدثت عنه ﷺ أنه كان يسبح في بطنها وعند ولادته تَغنى وبعدها وأمه أعني أم تربيته كذلك

---

(١) رواه البخاري (٤/٢٢٦)، ومسلم (٦/١٦٩).

(٢) رواه ابن ماجه (١/٤٤١).

(٣) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/٣٨٤).

(٤) رواه الديلمي في الفردوس (٢/٣٧٣)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٢/٣١٨).

كانت تقول: إذا أكلت الطعام المختلف فيه لا يشرف لبنها.

وجملة الأمر كان مجموع قرائن أحوال رسول الله ﷺ.

❁ قلت: قال الشيخ الكتاني: جرت المشيئة الإلهية الأزلية بإيجاد الإنسان الكامل أولاً وبالذات من الذات الأحدية، وجعله أصلاً ومنبعًا لجميع العوالم الخلقية، ومادّة ممدة لكل ذرة من ذرات البرية، فكان منه الأمر والخلق، وكل جمع وفرد، ومنه المبدأ وإليه المنتهي وفيه كل ما يرام ويشتهى والمفاض عليه سر الذات والمحلى بحلي الصفات، والمسمى بالأسماء العلية، والمخلوق على الصورة الجليلة البهية، والمعلّم بلا واسطة، والمقرب بدون رابطة، والمعنى دون غيره حقيقة بالخطاب، والمنـــزل عليه أصالةً كل ما أنـــزل من كتاب.

فهو رسول الرسل ونبي الأنبياء، هو المبعوث إلى كل من تقدم أو تأخر من الأمم وسائر البرية وجميع الأصفياء والمعطى جزامًا والخليفة، المفوض إليه أمر العوالم كلها وفاقًا بين المحمديين من أهل الله لا خلافًا، أشرف الموجودات مكانة ومكانًا، وأعلاها وأسماها منـــزلة ومنـــزلا وأولاها، أدار الله عليه رحى مخلوقاته، وجعله قطب فلك جميع مصنوعاته، فكان لهذا العالم الكوني القطب الأصلي والأب الحقيقي لكل موجود منه فرعي أو أصلي، والقطبية لغيره بحكم النيابة عنه والعارية، والكل في قبضته وتحت ولايته الممتدة والسارية.

وقد غُسل قلبه ﷺ بعدما شُقَّ بماء النسيم في طست من ذهب مملوءٍ ثلج؛ فهو أنقى الخلق وأتقاها، استخرجا قلبه ﷺ ملكان عظيمان أجلُّ الملائكة، فشقّاه، فاستخرجا منه علقةً سوداء، فطرحاها، ثم غسلا قلبه وبطنه بذلك الثلج حتَّى أنقياه.

ورأت أمه حين وضعته نورًا خرج منها أضاءت له قصور بصري، ولم تجد في حملها به ما تجده النساء من المشقّة، وإنما عرفت حملها به بإخبار ملك أتاها بين النوم واليقظة، وبشّرها بأنها حملت بسيد هذه الأمة ونبيّها، مع ارتفاع حيضتها، وانتقال النور الذي كان في وجه عبد الله والده إلى وجهها.

وحصلت ليلة مولده إرهاصات كثيرة منها:

خمود نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام.

وارتجاج إيوان كسرى حتى انشقَّ وسقطت منه أربع عشرة شرافة.

وغيض بحيرة ساوة.

وتنكس جميع الأصنام، وكذا اتكست عند الحمل به.

ومات أبوه عبد الله وأمه حامل به على الصحيح الذي عليه أكثر العلماء.

ولهذا كان المسمَّى له بمحمد، والعاق عنه بشاة يوم سابع ولادته: جده عبد المطلب صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

النور السادس

وهو نور السابقة:

فكونه في الأول أريد بذلك، فإنه قد أخبر أنه سيد ولد آدم، وكان وكل ذلك عن الله، وخبر الله لا يتغير، وكذلك علمه لا يتبدل وأيضًا كونه قال: «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين»، فكشف له هذا الطين أنه كان مشتهر ما بين الأنبياء في الأزل قبل الكون واظهر أنه نبيٌّ، وهو ممكن الوجود وقبل كونه، وهذه أيضًا سابقة ثانية.

وكذلك اسمه في اللوح إذا أرادت الملائكة ترحم عباد الله وتدعو الله فيهم لكي يدفع أو يُرفع عنهم العذاب النازل - قصدوه وتوسلوا له به. ذكر ذلك ابن شوع ورفعه إلى أبي بكر الصديق ﷺ.

۞ قلت: قال الشيخ الكتاني: روى مسلم في المناقب، وأبو داود في السُّنة عن أبي هريرة:

«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأنا أول من ينشق عنه القبر، وأنا أول شافع وأول مشفع[1]».

وحديث أحمد، والترمذي في المناقب وقال: حسن صحيح، وابن ماجه عن أبي سعيد

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٨).

الخدري: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدى لواء الحمد ولا فخر، ما من نبـــي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر[1]».

وحديث الدارمي، والترمذي مختصرًا وقال غريب عن أنس مرفوعًا:

«أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا وَأَنَا قائدهم إِذَا وَفَدُوا وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا أنصتوا وأنا شفيعهم إذا حبسوا وأنا مُبَشِّرُهُمْ إذا أَيِسُوا [2]».

وفي رواية: «أيسوا الكرامة، والمفاتيح يومئذ بيدي، ولِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي يطوف عليَّ ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور».

وحديث الطبراني في «الكبير» عن عبد الله بن سلام: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأول شافع ومشفع، لواء الحمد بيدى يوم القيامة تحتي آدم فمن دونه».

وحديث الديلمي عن ابن عباس: «وأنا سيد الأولين والآخرين من النبـــيين ولا فخر».

وحديث البيهقي في «فضائل الصحابة»، والحاكم في «المستدرك» وصححه وتعقب: «أنا سيد العالمين».

وحديث الدارمي بسند رجاله ثقات، والبخاري في «تاريخه»، والطبراني في «الأوسط» والبيهقي، وأبي نعيم عن جابر، وابن عساكر في «تاريخه» عن أبي هريرة: «أنا قائد المرسلين ولا فخر» الحديث[3].

وحديث أبي الحسن القطان في «المطولات»، وابن عساكر قال في: «الجمع»: وسنده حسن.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢/٣)، والترمذي (٥٨٧/٥).
(٢) رواه الدارمي (٣٩/١)، والترمذي (٥٨٥/٥).
(٣) رواه أحمد في المسند في مسنده (١٢٧/٧)، وابن ماجه (١٤٤٣/٢)، والترمذي (٥٨٦/٥)، والحاكم في المستدرك (٨٨/٤).

عن حذيفة: «ولد آدم كلهم تحت لوائي يوم القيامة وأنا أول من يفتح له باب الجنة».

وحديث أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم في «المستدرك» والبيهقي، وابن أبي شيبة بسند صحيح عن أبي بن كعب: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر[1]».

وحديث الطبراني في «الكبير»، والضياء عن جابر، والحاكم وصححه وتعقب عن عائشة، والدارقطني في «الأفراد» عن ابن عباس: «إذا كان يوم القيامة كان لواء الحمد معي، وكنت إمام المرسلين وصاحب شفاعتهم».

وحديث سعيد بن منصور وسمويه والضياء المقدسي عن جابر: «أنا سيد النبيين ولا فخر».

وحديث ابن النجار عن أم كرز: «أنا سيد المرسلين إذا بعثوا، وسابقهم إذا وردوا، ومبشرهم إذا أيسوا، وإمامهم إذا سجدوا، وأقربهم مجلسًا إذا اجتمعوا، أتكلم فيصدقني، وأشفع فيشفعني، وأسأل فيعطيني».

وحديث الطبراني، والبيهقي في «الدلائل» وعياض في «الشفا» عن ابن عباس: «وأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم على الله ولا فخر[2]».

وحديث الترمذي وقال: حسن غريب والدارمي وأبي نعيم عنه أيضًا: «وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر[3]».

وحديث الحاكم في «المستدرك»، وابن عساكر عن عبادة بن الصامت: «إني لسيد الناس يوم القيامة ولا فخر ولا رياء، وما من الناس من أحد إلا وهو تحت لوائي يوم القيامة[4]».

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه (٨٣/١)، والطبراني في الكبير (١٨٤/٢).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٥٦/٣).

(٣) رواه الترمذي (٥٨٧/٥)، الدارمي (٣٩/١).

(٤) ذكره الهيثمي في زوائده (٣٧٦/١٠) وقال: رواه الطبراني وإسحق بن يحيى لم يدرك عبادة وبقية رجاله ثقات.

وحديث الديلمي عن جابر: «أنا أشرف الناس حسبًا ولا فخر، وأكرم الناس قدرًا ولا فخر.. الحديث[1]».

وحديث الطبراني في «الكبير»، وابن النجار في «تاريخه» عن عمر:

«إن الجنة حُرِّمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها، وحُرِّمت على الأمم حتى تدخلها أمتي[2]».

وحديث ابن أبي حاتم في «تفسيره» وأبي نعيم في «الدلائل» من طرق عن قتادة عن الحسن، عن أبي هريرة وابن سعد عن قتادة مرسلاً: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث».

وفي رواية: «أول الأنبياء خلقًا وآخرهم بعثًا».

وحديث أحمد، والبخاري في «تاريخه الكبير»، وأبي نعيم والبغوي وابن السكن وابن سعد، والطبراني، والحاكم، وصححه، والبيهقي عن ميسرة الفجر، والبزار، والطبراني، وأبي نعيم من طريق الشعبي عن ابن عباس، وابن سعد عن عبد الله بن أبي الجدعاء التميمي أو الكناني: «كنت نبيًّا وآدم بين الروح والجسد».

وحديث الترمذي وقال: حسنٌ صحيحٌ غريبٌ.

والحاكم والبيهقي وأبي نعيم عن أبي هريرة قال: «قالوا: يا رسول الله، متى وُجبت لك النبوة؟ قال: وآدم بين الروح والجسد[3]».

وحديث أحمد، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي، والطبراني، والبزار، وأبي نعيم عن العرباض بن سارية:

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/٤٥).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٣/٦٣).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٦٦٥)، والترمذي (٥/٥٨٥)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من حديث أبي هريرة لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وفي الباب عن ميسرة الفجر.

«إني عبد الله وخاتم النبـــيين[١]».

وفي لفظ: عند الله في أم الكتاب لخاتم النبـــيين، «وإن آدم لمجندل في طينته[٢]».

وحديث أحمد، وأبي يعلى عن جابر، وأبي نعيم عن عمر بن الخطاب: «والذي نفس محمد بيده لو أن موسى كان حيًّا» - زاد في رواية اليوم - ما وسعه - أي ما جاز له - «إلا أن يتبعني».

وحديث أحمد، وأبي داود، وابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن جابر: «أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتّباعي[٣]».

وحديث أحمد أيضًا والبزار عنه: «والله لو كان موسى بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني[٤]».

وحديث الدارمي عنه أيضًا: «والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيًّا وأدرك نبوتي لاتبعني[٥]».

وحديث ابن مردويه عن ابن عباس عن النبـــي ﷺ قال: «لما قرب الله موسى إلى طور سيناء نجيا قال: أي رب هل أحد أكرم عليك مني قربتني نجيًّا وكلمتني تكليمًا؟ قال: نعم محمد أكرم عليّ منك[٦]».

وحديث النسائي عنه أيضًا: أنه ﷺ صعد المنبر وقال: «أيها الناس أي أهل الأرض

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٢٧/٤)، والحاكم في المستدرك في مستدركه (٤٥٣/٢) وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخه (١٦٨/١).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٠/١).

(٤) رواه أحمد في المسند (٣٣٨/٣)، والهيثمي في زوائده (١٧٤/١) وقال رواه البزار وعند أحمد بعضه وفيه جابر الجعفي وهو ضعيف اتّهم بالكذب.

(٥) رواه الدارمي (١٢٦/١).

(٦) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٧١/٥).

تعلمون أكرم على الله ﷻ؟ فقالوا: أنت[١]» أخرجه في القسامة.

وحديث مسلم عن أبي هريرة وحذيفة وحديثه معًا في الشفاعة: وفيه قول إبراهيم عليه السلام: «إنما كنت خليلاً من وراء وراء»: أي من وراء مرتبة الحبيب التي هي المرتبة الحائلة بين الرب وجميع الخلق[٢].

وحديث الحاكم في «تاريخه» عن أبي بن كعب: «والذي نفسي بيده إن إبراهيم ليرغب في شفاعتي[٣]».

وحديث مسلم عن أبي بن كعب: إن الله تعالى قال له عليه السلام في مسألة ترديده في قراءة القرآن على حرف وعلى حرفين وعلى سبعة أحرف: «ولك بكل ردة رددتكها مسألة تسألنيها، قال: فقلت: اللهم اغفر لأمتي، اللهم اغفر لأمتي، وأخرّت الثالثة ليوم يرغب إليَّ الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام[٤]».

إلى غيرها من الأحاديث الواردة في هذا الباب، كالأحاديث الواردة بأن عيسى عليه السلام إذا نـــزل في آخر الزمان يحكم بشريعته، ويكون على دينه وملته، والواردة في تمني غير واحد من المرسلين أن يكون من أمته وأتباعه المختصين به وزمرته، فإنما كلها تؤذن بأنه نبـــي الأنبـــياء، ورسول الرسل، وسيدهم، وإمامهم، وزعيمهم، وأخصهم، وأقربهم، وأعرفهم بالله، وأعلمهم به، وأولاهم بالكرامة، وأحقهم بالفخامة والزعامة، فيكون باسم الخلافة أولى وأحق، ولكل كرامة من الله لخلقه أسرع وأسبق، والخلفاء قبله وبعده نوابون عنه، وتابعون له، ولهذا لم يُبعث إلى الخلق عامةً إلا هو خاصة ﷺ، ومما يُؤذن بذلك أيضًا ما ذكره غير واحد من المحققين من أن السجود الواقع لآدم عليه السلام من الملائكة إنما كان من أجل ما أكرم به في صورته الآدمية من الظهور بالسمة المحمدية وفي الفتوحات المكية سجود الملائكة لآدم إنما كان لأجل الصورة لا لأن علمهم الأسماء انتهى.

---

(١) رواه النسائي (٤/٢٢٧).
(٢) رواه مسلم (١/١٨٧).
(٣) رواه ابن عساكر في تاريخه (٧/٣٣٠).
(٤) رواه مسلم (١/٥٦١)، رقم (٨٢٠).

وهو محتمل لأن يريد به الصورة الإلهية أو المحمدية أو هما معًا وفي «الطبقات الشعرانية» في ترجمة أبي المواهب الشاذلي أنه كان يقول: كان سجود الملائكة لآدم عليه السلام إشارة لتواضع الصغير للكبير، وإظهارًا للكرامة بظهور صورته بسمة محمد ﷺ، وذلك أن رأس آدم ميم، ويديه حاء، وسرته ميم، ورجليه دال، وكذا كان يُكتب في الخط القدي،م انظر تمامه.

وذكر آخرون أنه إنما كان من أجل ما كان في جبهته وجبينه من نور سيدنا محمد ﷺ، ويرحم الله القائل:

يـــا بـــني الزهـــراء لا لاقيـــتم ... أبـــد الآبـــاد ســـوء مـــن أحـــد

ســـــــركم لاح بمعـــــــنى آدم ... فلـــذا كـــل إلـــيه قـــد ســـجد

وفي «الفتوحات المكية» في الباب العاشر بعدما ذكر فيها أنه ثبت له ﷺ السيادة والشرف على أبناء جنسه من البشر، وأن الذين تقدموا على زمن ظهوره كانوا في العالم نوابه من آدم إلى آخر الرسل، وهو عيسى عليه السلام لو كان موجودًا بجسمه من لدن آدم إلى زمن وجوده لكان جميع بني آدم تحت حكم شريعته إلى يوم القيامة حسًّا، وإنه الملك والسيد على جميع بني آدم، وإن جميع من تقدمه كان ملكًا له وتبعًا، والحاكمون فيه نواب عنه، وإن هذا إذا كان الملك عبارة عن الأناسي خاصة، فإن نظرنا إلى سيادته ﷺ على جميع ما سوى الحق كان ملكه وسيادته على جميع الخلق ما نصه:

فالإنسان آخر موجود من أجناس العالم، فإنه ما ثم إلا ستة أجناس، وكل جنس تحته أنواع، وتحت الأنواع أنواع، فالجنس الأول: الملك، والثاني: الجان، والثالث: المعدن، والرابع: النبات، والخامس: الحيوان، ولما انتهى الملك وتمهد واستوى كان الجنس السادس: جنس الإنسان، وهو الخليفة على هذه المملكة، وإنما وجد أخيرًا ليكون إمامًا بالفعل حقيقة لا بالصلاحية والقوة، فعندما أوجد عينه لم يوجده إلا واليًا سلطانًا ملحوظًا ثم جعل له نوابًا حين تأخرت نشأة جسده، فأول نائب كان له وخليفة آدم عليه السلام ثم ولده واتصل النسل، وعين في كل زمان خلفاء إلى أن وصل زمن نشأة الجسم الطاهر المحمدي ﷺ، فظهر مثل الشمس الباهرة، فاندرج كل نور في نوره الساطع، وغاب كل حكم في

حكمه، وانقادت جميع الشرائع إليه، وظهرت سيادته التي كانت باطنة، فهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم. انتهى المراد منه.

وقد تقدَّم قبل هذا تمام كلامه في هذا المرام انتهى.

وفي الفتوحات المكية في الباب الثالث والسبعين في الجواب عن السؤال السادس والسبعين من أسئلة الحكيم الترمذي، وهو ما لواء الحمد بعد أن ذكر أنه حمد الحمد، وهو أتم المحامد وأسناها وأعلاها مرتبة، وإنه سمي لواء لأنه يلتوي على جميع المحامد، فلا يخرج عنه حمد، وإنه لا يكون إلا بالأسماء، وآدم عليه السلام عالم بجميعها كلها في المقام الثاني من مقامه ﷺ ما نصه:

فكان قد تقدَّم لمحمد ﷺ علمه بجوامع الكلم، والأسماء كلها من الكلم، ولم تكن في الظاهر لمحمد ﷺ عينًا، فيظهر بالأسماء؛ لأنه صاحبها، فظهر ذلك في أول موجود من البشر وهو آدم عليه السلام، فكان هو صاحب اللواء في الملائكة بحكم النيابة عن محمد ﷺ؛ لأنه تقدم عليه بوجوده الطيني، فمتى ظهر محمد ﷺ كان أحق بولايته ولوائه، فيأخذ اللواء من آدم يوم القيامة بحكم الأصالة، فيكون آدم فمن دونه تحت لوائه ﷺ، وقد كانت الملائكة تحت ذلك اللواء في زمن آدم، فهم في الآخرة تحته، فتظهر في هذه المرتبة خلافة رسول الله ﷺ على الجميع انتهى.

النور السابع

وهو نور التشريف:

فهو النور الذي كشف له عن الخصوصية الملكوتية، ورسم اسمه مع اسمه في اللوح وكتب بالنور.

۞ قلت: قال الشيخ أبو عبد الله المكيُّ: ولهذا الاسم الكريم يعني محمدًا إشاراتٌ لطيفةٌ من حيث صورته ومادته: أي من جهة حروفه المادية، ومن جهة هيئته الصورية.

أما الأول: فلما اشتمل عليه في اعتبار حروفه من ميم الملكوت الأجلى، وحاء الحياة والحفظ الذي به، وفيه كتب العلم الأسنى، وميم الملكوت الباطني في ميم الملك الظاهر، ودال الدوام منه، والاتصال الماحية لوهميْ الانقطاع والانفصال.

وأما الثاني: فإن صورة هذا الاسم على صورة الإنسان؛ فالميم الأولى رأسه، والحاء جناحاه، والميم الثانية بطنه، والدال رجلاه، والإنسان صغيرٌ وكبيرٌ كما هو في مصطلح القوم انتهى.

للعلماء في تفسير الملك والملكوت عباراتٌ حاصلها أن الملك هو: التصرف في الأمور، وفي تحقيقه كلامٌ يطلب من محله، والملكوت: عظم الملك؛ لأنه مبالغة فيه كالرَّهَبُوت، ولهذا فسر الملك بعالم الشهادة، والملكوت بعالم الغيب، وهو عالم الأمر.

وقيل: الملك: ما يدرك بالحس، والملكوت: ما لا يدرك به.

وذكر بعضهم عبارةً أبسط من هذه فقال: عالم الملك: عالم الشهادة، ويُقال: عالم الخلق، وهو عالم الأجسام والجسمانيات، ويكون بقدرة الله تعالى بعضه من بعض، وبتضمنه التغير، وعالم الملكوت عالم الغيب، ويقال له: عالم الأمر، وهو عالم الأرواح والروحانيات، وهو ما أوجده الله تعالى بالأمر الأزلي بلا تدريج، وبقي على حالةٍ واحدةٍ من غير زيادة ولا نقصان، والجبروت عالم الأسماء والصفات الإلهية، يعني صفات العظمة والعلو.

وقيل: هو عالمٌ بين العالمين يشبه أن يكون في الظاهر من عالم الملك، فجبر بالقدرة الأزلية بما هو من عالم الملكوت.

وأما الحاء: فقد تقدم أنه يمكن أن تكون إشارة إلى الحكم والحكمة والحلم.

وأما الدال: فيمكن أن تكون مشعرة بالدلالة كما سبق، ومظاهر الدلالة الكبرى أربعةٌ: وهي: العلم المأمور في الأزل بكتابة الكائنات، واللوح المحفوظ، وأمين الوحي، ومُبلغه للخلق عليهما أفضل الصلاة وأزكى التسليمات، ولا يعارض ما ذكرناه هنا ما أسلفناه؛ لأن المقام مقام التماس نكات، والنكات لا تتزاحم، فكل ما بدا وظهر للفهم من وجوه اللطائف المناسبة لا يبعد ولا يستنكر، وأما هيئته فحركة الميم الأولى هي الضمة التي هي أقوى الحركات، يناسبها قوة ذلك الملك، وظهور سلطانه، وإشارته في قوله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣].

وفي نحو: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف:٨].

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة:٣٢].

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [الفتح:٢٨].

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء:٨١].

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر:٥١].

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة:٢١].

وحركة الحاء هي الفتحة، وكم فتح الله بحكمه وحكمته وحلمه قلوبًا عميًا، وآذانًا صمًّا، ومناسبة فتح حاء الحكم لضمة ميم الملك، تظهر بأدنى توجه.

وحركة الميم الثانية: الفتحة المؤيدة بالتشديد المشعر بتأكد ملك الآخرة؛ لبقائه واستمراره، وعزة آثاره، وعدم تناهي أسراره، وأما ملك الدنيا فهو وإن قوي سلطانه وظهر أبَّانه معرضٌ للزوال بزوال محله، فكأنه نموذجٌ بل مقدمة للثاني، وتقدم كلام الشيخ أبي عبد الله المكي في فصل معاني حروف الاسم المكرم فلا تغفل عما فيه.

وأما **الدال**: فموردٌ للحركات الإعرابية، وكذا للسكون إذا تجرد الاسم عن العوامل اللفظية والمعنوية، أو وُقف عليه، وهذا يناسبه توارد واردات الدلالات الملكية والإلهامية، وتنوع أنواع النعيم في دوام التنعيم، ومراتب التعظيم في دار التكريم، وسكون أشرف وارده بأعظم الموارد، ولا شبهه في التجرد حينئذ من طوارق العوارض الدنيوية، والدنيا دار الأكدار، والجنة دار القرار، فإن قلت أن سكون الميم الثانية يسبب الإدغام يناسبه الإشارة إلى السكون البرزخي، وإلى أن البرزخ هو المنـزلة الثانية الكائنة بين الدارين، الفاصلة بين المقامين، فلا بأس، وأيّ بُعد لفهم يُلتمس من سر ذلك المقتبس، وأن تدعني وخيالي، فقد رضيت بحالي، فاطوِ عنّي بيانك وبديعك، لا أسمع صنيعك، ما أنت طبيي، خلني وحبيبي، لا زال هيامي يتجدد، وغرامي يتأكد، وفؤادي يتوقد.

إذا ذُكر اسم محمد هنالك تقوم القلوب على أقدام الخدمة، وتطرق رؤوس العقول؛ مهابةً لتلك الحرمة، وتذرف عيون الأرواح حنينًا إلى تلك النعمة، وتسبح الملائكة تعظيمًا

لتلك النعمة، وتطمئن العوالم لعموم تلك الرحمة، أول من وحَّد نور محمد، قارن في أشهد، إذ هو أحمد، سيد من يحمد، أشرف من يحمد، صَدَا الجوانح، من نداءه صائحٌ، والشوق صادحٌ، والبدر لائحٌ.

أشـرقَ الـبدر علينا من ثنيَّات   وجب الشكر علينا ما دعا لله داعْ

قال بعض أرباب التسليك: الناظرين إلى مدارج الإيقاظ لا إلى إعراب الألفاظ وكسر قفص طبعك يكشف لك الغُطا، ألقِ للأكوان سمعك تسمع كلَّ شيء.

قال الجلال السيوطيُّ في الخصائص: ومن خصائصه أن الله تعالى قرن اسمه باسمه في كتابه عند ذكر طاعته ومعصيته وفرائضه وأحكامه ووعده ووعيده؛ تشريفًا وتعظيمًا.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١].

﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٧١].

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١٥].

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة:١].

﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:٢٤].

﴿شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر:٤].

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الجن:٢٣].

﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة:٣٣].

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ﴾ [التوبة:١٦].

﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:٢٩].

﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١].

﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩].

وقوله: ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة:٥٩].

﴿أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة:٧٤].

﴿كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة:٩٠].

﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٣٧] انتهى.

النور الثامن

وهو نور التدلل:

كشف له عن مقام القرب وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ لأمر.

❁ قلت: قال الشيخ القاشاني في القرب: هو القيام بالطاعة، والقرب: هو دنو العبد من الله تعالى بكل ما يعطيه من السعادة، لأقرب الحق العبد، فإنه من حيث دلالة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد:٤]، عليه قرب عام سواء كان سعيدًا، أو شقيًا، فكل عبد، في كل وقت، تحت حكومة الأسماء الإلهية قرب، من حيث تجلي اسم إلهي وبعد من حيثية اسم آخر، فالقريب من المضل فلا بعيد من الهادي، والعكس، فكل اسم يعطي قربا، فالسعادة ترجع إلى هذا القرب المصطلح عليه، وقد يكون للحق قرب خاص من العبد زائد على قربه العام.

كما قال تعالى لموسى وأخيه عليهما السلام: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾، فإن هذه المعية، معية العناية بالحفظ والكلاءة، لا المعية العامة، فقرب العبد من الحق بكل ما يعطي من السعادة يتبع له قربًا خاصًا من الحضرات بالحقية، كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «من تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يسعى أتيته هرولة».

والقرب على قسمين: علمي، و عملي.

فالعلمي: أعلاه العالم بتوحيد الألوهية، وهو على نوعين نظرى، وشهودي.

والعملي: على نحوين:

قرب بأداء الواجبات: وهو القرب الفرضي كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «ما تقرب المقربون بأحب إليّ من أداء ما فرضته عليهم».

وقرب نفلي: كما قال ﷺ عن ربه تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت له سمعًا وبصرًا». ومداد العمل المقرب:

إما من الباطن إلى الظاهر، فأعمه وأتمه الإيمان.

وإما من الظاهر إلى الباطن، فأعمه وأتمه الإسلام.

وإما من القلب الجامع بين الظاهر والباطن، فأعلمه وأتمه الإحسان.

فمقتضى القرب النفلي: تجلي الحق للعبد متلبسا القابلية المحدودة.

ومقتضى القرب الفرضي: تجلي الحق له، وظهور العبد بحسب الحق، غير محدود، ولا متناه.

فالتمييز بين قوسي الحقانية والعبدانية في القرب المفرط إن كان خفيًا يعبر بـ «قاب قوسين».

وإن كان أخفى يعبر عنه بـ «أو أدنى».

ومن هنا قال قدس سره: وقد يطلق على حقيقة: «قاب قوسين»، فالتجلي بحكم هذا القرب، إن كان في مادة وصورة، تتبعها القرب في النسبة المكانية، في مجلس الشهود، وإن كان في مجلس الشهود، وإن كان في غير مادة، كان قرب المنزلة والمكانة، كقرب الوزير من الملك .. فافهم.

وقال الشيخ محمد بن عمر القادري: اعلم أن قاب قوسين مقام القرب الأسمائي باعتبار التقابل بين الأسماء في الأمر الإلهي المسمى دائرة الوجود كالإبداء والإعادة والنزول، والفاعليّة، والقابليّة، وهو الاتحاد بالحق مع بقاء التمييز والاثنينية، المعبر عنه بالاتصال، ولا أعلى من هذا المقام إلا مقام أو أدنى لارتفاع الاثنينية، الاعتبار به والتمييز

هناك بالفناء المحض، والطمس الكلي للرسوم كلها تنبيه في تفسير الآية، ثم دنا: أي النبي ﷺ من الله تعالى وترقى عن مقام جبريل بالفناء في الوحدة، والترقي عن مقام الروح.

وفي هذا المقام قال جبريل عليه السلام: «لو دنوت أنملة لاحترقت[1]» إذ وراء مقامه ليس إلا الفناء في الذات، والاحتراق بسبحات الجمال لا سبحات الجلال؛ لأن سبحات الجلال هي أنوار تجليات الصفات، وسبحات الجمال هي أنوار تجليات الذات، والاحتراق بالجمال، فتدلى: أي مال إلى الجهة الإنسيَّة بالرجوع من الحق إلى الخلق حال البقاء بعد الفناء، والوجوب الموهب الحقاني، فكان قاب قوسين: أي كان ﷺ مقدار دائرة الوجود الشاملة للكل المنقسمة بخط موهوم إلى قوسين، باعتبار الحق والخلق، والاعتبار هو الخط الموهوم القاسم للدائرة إلى نصفين، فباعتبار البداية والتداني يكون الخلق هو القوس الأول الحاجب للهوية في أعيان المخلوقات وصورها، والحق تعالى هو النصف الأخير، وباعتبار النهاية والتدلي، فالحق هو القوس الأول الثابت على حاله أزلاً وأبدًا، والخلق هو القوس الأخير الذي يحدث بعد الفناء بالوجود الجديد الذي وهب له.

وهذا ما دامت الإثنينية أو أدنى من مقدار القوسين بارتفاع الاثنينية الفاصلة الموهومة لاتصال أحد القوسين بالآخر، وتحقق الوحدة الحقيقة في عين الكثرة بحيث تضمحل الكثرة فيها وتبقى الدائرة غير منقسمة بالحقيقة، وهذا نهاية الولاية.

فما أكمل نبيَّنا محمد ﷺ وما أسعدنا به ﷺ، فلله الحمد والمنّة على هذا النبي الكريم الذي شرف الأكوان ﷺ.

لائحة سدرة المنتهى شهود الخلائق الكونية، وقاب قوسين شهود: (الرقائق الأسمائية) أو أدنى شهود الذات، ورؤيتها شهود لا أكمل منه.

النور التاسع

وهو نور التركيب:

فهو الذي انكشف له به عن الغاية العظمى في التوحيد، فإنه كان إذا فكَّر في

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٥/٥٥).

الموجودات، ثم في النظام القديم، ثم في سر القدر، ثم في الأمور العالية كان يُغان على قلبه إذا ركب هذه المعلومات العزيزة.

﴿ قلت: قال الشيخ جعفر: ولهذا قال ﷺ: «ليُغان على قلبي، فأستغفر الله[1]»: أي لتراكم الأنوار والمعارف على قلبي، وتكثر التجليات الذاتية والصفاتية على باطني ولبي بسبب ترقي في المعارج العرفانية والكمال، وارتقاء على ما هو أعلى وأوسع في الحال، فأستغفر الله مما كنت فيه قبل ذلك، وأتوب إليه مما أسلفته من التقصير هنالك.

وقد نقل الشيخ زروق في بعض شروحه على الحكم العطائية أن أبا الحسن الشاذولي اجتمع بالنبي ﷺ وقال: يا رسول الله إنك قلت: «إنه ليغان على قلبي؟» قال: نعم، قال: ما هذا الغين؟ فقال ﷺ:

«هو غين أنوار لا غين أغيار يا مبارك» فسمَّاه مباركًا وأجابه بهذا الجواب.

وفي اللطائف للقاشاني في الكلام على الغيون بعدما ذكر أنه يراد بها تجليات الذات الأقدس ما نصه:

تكاد الذي يغطي قلبه ﷺ ويغسله إنما هو تجليات ذاتية متظاهرة فكان لقوة حقيقتها، وغلبة أحديتها تمحو حطم بشريته، وتمحو أثر خلقيته، بحيث لا تبقي أثرًا ولا رسمًا، بل تذهب العين في العين بالكلية فلهذا يستغفر الله: أي يطلب الغفر والستر خوفًا من غلبة أحكامها عليه، وتظاهر آثارها؛ لئلا يهمل حكم نبوته، وكمال وسطيته، ولئلا يظهر أثر ذلك للخلائق فيعبد، أو يُقال فيه كما يُقال في عيسى وعزير عليهما السلام انتهى.

ومثله ذكره أيضًا الشيخ أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن محمد سعد الدين الفرغاني في شرحه لتائية ابن الفارض الكبرى، وهو أول شارح لها، ووفاته في حدود سنة سبعمائة، وفي كلام غير واحد من الأكابر أن الترقّي المذكور له ﷺ غير مقصور على حالة الحياة الدنيوية، بل هو موجود في حياته البرزخية، وفي الموقف، وفي الجنة، لا ينقطع ما دام ملك الله موجودًا، فخرج من هذا أن علمه ﷺ ومقامه وكماله يقبل الزيادة دائمًا وأبدًا،

(١) رواه مسلم (٤/٢٠٧٥).

وإن غايات كمالاته وعلومه ومراتبه وارتقائه لا حد لها ولا انتهاء، بل هو دائم الترقّي بما لا يطلع عليه ويعلم كنهه إلا الله تعالى، وإن الترقّي الحاصل له ﷺ هو في الذات الإلهية وكمالاتها وأسرارها وعلومها لا في غير ذلك.

وذكر بعضهم أنه ﷺ كان يزداد علمًا بجزئيات الأسماء الإلهية والكوائن الجزئية التي لا تتناهى قال: لأن الكائنات لا تـــزال تظهر كل آن بالتجلّي الإلهي، وكل تجلٍّ له اسم إلهي يخصه يظهر من الغيب؛ إذ لا تكرار في التجلّي للوسع الإلهي، فلهذا كان ﷺ لا يزال يزداد علمًا مع الآنات دنيا وبرزخًا وآخرة وإن كان عالمًا بما لا يتناهى إجمالاً.

وفي عبارة: إن الترقي حاصل له في مدارج الجزئيات الداخلة تحت أجناس الكمالات المتعلقة بإكمال الدين والشفاعة للمذنبين، الحاصلة له ﷺ على الكمال قبل وفاته؛ لأن جزئياتها وأشخاصها لا تنتهي إلى غاية كنعيم أهل الجنة فليتأمل.

النور العاشر

وهو نور المولد:

فإنه كشف له عن سعادة مولده بالبرهان الفلكي الإلهي السماوي، فإنه كان له نصبة عجيبة لم يبصر قط في أيام العالم مثلها، ثم ظهر يوم مولده في الآفاق مائة معجزة:

منها: خمود نار فارس، وانشقاق إيوان كسرى، وزلزلة أبداد الهنود.

ﷺ قلت: بيان مولده الشريف: اختلفوا في عام ولادته، فالأكثرون أنه عام الفيل، بل حُكي الاتفاق عليه، والمشهور أنه وُلد بعده بخمسين يومًا.

والصواب: إنه بمكة بالعشب، والمشهور أنه بالمسجد المشهور الآن بالمولد، وكان بعد طلوع فجر يوم الإثنين، ثاني عشر شهر ربيع الأول على المشهور، وقيل: ثامنه، وانتصر له كثيرون، قيل: وهو قول أكثر المحدثين، ووافق مولده بالشهور الشمسية ليسان، وما أحسن ما قيل في حقه:

يقـــولُ لـــنا لســـانُ الحالِ منه ... وقـــولُ الحـــق يعـــذب للسَّميع

فوجهـــي والزمان وشهر وضعي ... ربـــيعٌ في ربـــيعٍ في ربـــيع

وقال الإمام أحمد بن المبارك في كتابه الإبريز: سألت شيخنا القطب الغوثي سيدي عبد العزيز الدباغ، وقع خلافٌ بين أهل السُّنة في وقت ولادته ﷺ.

ففي بعض الروايات: وُلد ليلاً، وفي بعضها وُلد نهارًا، فعلى أي الروايتين نعتمد؟.

فقال: على كلٍّ منهما يُعتمد، وأنه لا خلف بينهما حقيقةً، بل هو لفظي، وذلك أن ابتداء الوضع كان من أول السدس الأخير، وانتهاؤه كان بعد الفجر، فمن قال: وُلد ليلاً نظر لابتداء الوضع، ومن قال نهارًا نظر لانتهائه انتهى.

ونقل الزركشي في شرح البُردة عن ابن عباس رضي الله عنه لمَّا وُلد النبي ﷺ قال في أذنيه رضوان خازن الجنان: أبشرْ يا محمد فما بقي لنبي علمٌ إلا وقد أُعطيته؛ فأنت أكثرهم علمًا، وأشجعهم قلبًا انتهى.

ونـــزل ﷺ على يد الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف، فهي قابلته رافعًا بصره إلى السماء، واضعًا يديه بالأرض.

وفي ذلك من الإشارات ما لا يخفى، مكحولاً، نظيفًا، مسرورًا: أي مقطوع السُّر بضم السين: وهو ما تقطعه القابلة من السُّرة، مختونًا: أي على صورة المختون.

وقيل: ختنه جده سابع ولادته، وجُمع بينهما بأنه يجوز أن يكون وُلد مختونًا ختانًا غير تامٍّ، كما هو الغالب في المولود مختونًا، فتمم جده ختانه.

وقيل: ختنه جبريل عليه السلام يوم شقَّ قلبه عند مرضعته حليمة.

ورُوي أنه تكلم حين خروجه من بطن أمه فقال: جلال ربي الرفيع، وقيل: قال: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلاً، ويمكن الجمع.

وقال عياض: و ما جرى من العجائب ليلة مولده من ارتجاج إيوان كسرى، و سقوط شرفاته، و غيض بحيرة طبرية، و خمود نار فارس، وكان لها ألف عام لم تخمد.

وأنه كان إذا أكل مع عمه أبي طالب وآله وهو صغير شبعوا وروروا، فإذا غاب فأكلوا في غيبته لم يشبعوا.

ومن ذلك حراسة السماء بالشهب وقطع رصد الشياطين ومنعهم استراق السمع.

وما حدث ببلاد الهند أشار إليه ابن كثير في سيرته الفصول (٢/١١٥).

النور الحادي عشر

وهو نور الخلقة:

فكان ﷺ يظهر بين عينيه النور الذي لا يخفى على أحدٍ حتى إن من العرب من كان يغنيه في إيمانه عن طلب المعجزة والآية منه.

ومع ذلك أيضًا النور في تبسمه، وفي جبينه كما حدثت عائشة رضي الله عنها.

وفي موضوعه كله. ولما كلامه وأفعاله وحركاته كل أكوانه وما ظهر من خلقه، وما بطن من مجموعة أنوار هذا في أصل وضعه.

وكيف، وهو أيضًا قد قال: «اللهم اجعلني نورًا» بعدما عدد أجزاء بدنه ﷺ وهذا كشف له أنه النور بل نور النور الروحاني والجسماني.

۞ قلت: قال ابن كنون: جاء أنه ﷺ أقنى الأنف: أي طويلة مع دقة أرنبته، وأُحديداب في وسطه، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم: أي مرتفع قصبة الأنف مع استواء أعلاها، وإشراق الأرنبة، فلحُسن قناه، والنور الذي علاه يخفى على الناظر إليه من غير تأمل أُحديداب وسطه، ويظن استواء القصبة، ولو أمعن النظر لحكم بخلاف ذلك.

وسمي ﷺ نورًا لضياء وجهه وتلألؤ بدره، وحسن منظره وإشراقه.

وقد كان ﷺ لا ظل له؛ لأنه نور كله.

وقد دخل على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وقد سقطت لها إبرة في الظلام من يدها في بيتها. فلما دخل المصطفى ﷺ أشرق نوره العظيم عليها، وحلّت بركته لديها فرأت إبرتها لضياء نوره، وزاد نور قلبها بمشاهدة تلألوه.

فهو ﷺ صاحب الجبين الأزهر، لزهارته.

وذكر حسان بن ثابت رضي الله عنه ذلك بالليل في قوله :

أضــاء في الـــداج البهـــيم جبينه   يـــلح مـــثل مصباح الدجى المتوقد

فمـــن كان أو من قد يكون كأحمد نظامًـــا لحـــق أو نكـــالاً لمـــلحد

وليس ظهور النور في الليل أقوى وأشد، وإنما خُص الجبين؛ لأن النور أول ما يظهر في الأماكن المرتفعة ثم ينتشر.

وفي البخاري: عن كعب بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا سُر استنار وجهه كأنه قطعة قمر وكنا نعرف ذلك منه انتهى.

ولا يُفهم من هذا أن استنارة وجهه خاصة بوقت السرور؛ لأن أصلها ظاهر في كل وقت؛ لأن نورانيته ﷺ ذاتية لازمة، وكمالها وتمامها خاص بوقت السرور، وهذا أمرٌ معروفٌ في كل حسنٍ يتجلّى تمام حسنه عند السرور أكثر.

وقد دخل ﷺ يومًا على عائشة وأساريره تبرق: أي يلمع منها شبه البرق فقالت: يا رسول الله أنت أحق بقول أبي كثير الذي قال في ربيبه:

وإذا نظـــرت إلى أســـرة وجهه برقـــت كـــبرق العـــارض المتهلل

وهذا أصل كما قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين في قلب المعنى الحسن، وأخذه من غير حقه ووضعه في حقه.

وكان ﷺ يعرف غضبه في وجهه لشدة صفاء بشرته وقوة نورانيته.

وقد شبَّه بعضهم جبهته المقدسة ﷺ في بياضها المشوب بالحمرة، وصفائها وإشراقها واستنارتها بلوح فضة يتموج فيه الذهب، وفي هذا التشبيه وصف جبهته الشريفة بتمام الحُسن، وكمال الجمال، وتفريج الناظر، وظفره بأكمل المطالب، وأشرف المآرب.

وقد روى ابن المبارك وابن الجوزي عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنه ﷺ لم يقم مع شمس قط إلا غلب ضوءه ضوء الشمس، ولم يقم مع سراج قط إلا غلب ضوءه ضوء السراج، ولهذا لم يظهر له ﷺ ظل في شمس ولا قمر، كما قاله ابن سبع، والقاضي عياض وغيرهما.

وقد كانت رضي الله عنها تتذكر بديع صفاته، وحسن جماله، وبهاء نوره، كأن

الشمس تجري في وجهه ونصاعة منظره، وإذا تكلم فالنور يخرج من ثنياه، وإذا تبسَّم أضاء نوره في الجدرات.

وتذكر محاسن أعضائه، وظرافة شكله، وحسن شمائله، وحلاوة ألفاظه، ورشاقتها في نطقه.

ثم تذكر ما شاء الله من الصفات التي عجز البلغاء عن حصرها، وكلّت ألسن الفصحاء عن عدها.

ثم يقول: كان والله ﷺ كما قال شاعره حسان ﷺ:

متى يدب في الداجي البهيم جبينه ... يـــلح مثل مصابح الدجى المتوقد

فمن كان أو من قد يكون كأحمد ... نظـــام الحـــق، أو نكـــال للملحد

وقال الأشعري: إنه تعالى نور ليس كالأنوار، والروح النبوية القدسية لمعة من نوره، والملائكة شرر تلك الأنوار انتهى، نقله في مطالع المسرات.

والإشارة بقوله ﷺ: «اجعلني نورًا»: أي حقًّا يظهر في كل شيءٍ ولا أظهر بشيء، وقد يستهلك الحق به، فكل شيءٍ يُنسب لوجوده، ويكون هو المرتدي والحق رداءه، فالمرتدي هو المستهلك فيه، فإذا كان العبد رداء كان هو الظاهر والحق باطن، وإذا كان الحق رداء فالأمر بالعكس.

وبالنسبة للنور الروحاني: وهو الانعكاس نور الأنبياء، ويُسمَّى بالانعكاس الثاني، ومنه خُلقت أرواح الملائكة، فالملائكة خُلقت من نورٍ، وهي نورانية، وهذا النور هو النور المحمدي في الانعكاس الثاني، والمرحلة الثالثة من عالم الأمر، فهو فرع الفرع.

والحقيقة لبشريته ﷺ في الكل، وخُلقت من نوره ﷺ، وهو أول عين تعين، ومنه تفرَّعت الأعيان.

والنور الحسِّي والجسماني: هو الانعكاس الثلاثي، فالنور المحمدي الأول كلما ازداد انعكاسه وابتعد عن أصله ازداد كثافةً، إلى أن أصبح ضياءً حسيًّا كالشمس، ثم انعكاس النور المحمدي على الوجود بأركانه الأربعة وهي الماء والعرش والقلم واللَّوح المحفوظ،

أحدث ظلاً، وهذا الظل هي الظلمة، ومنها خلق كل كثيف من الأشباح والصور والأشكال.

وبهذا كان النبي ﷺ وما زال أصل كل وجود، وبه تكون أوليته، ونورانيته ﷺ.

واعلم أن النور المعنوي والعقلي والقلبي من جنس النور الروحاني.

النور الثاني عشر

وهو نور التربية:

فما كشف له عن العناية الحافظة له والعصمة الإلهية التي لا يشترط فيها العقل وأسباب التكليف والعلامات مثل: السحابة التي كانت تظله، وما ظهر في بنيان البيت، ومصارعته لأبي جهل، هذه كلها أنوار كاشفة لأمور خارقة للعادة.

❁ قلت: هو صاحب العصمة الكاملة التي تفرَّعت عنها جميع العصم، فعصمه الله من كل ذنب ولو صغيرًا أو سهوًا، وكذلك الأنبياء، ويتنـــزَّه عن فعل المكروه.

وقد وعده الله تعالى العصمة بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

وهذه الآية نزلت بالمدينة فيما أخرجه الشيخان عن عائشة قالت: أرق النبي ﷺ ذات ليلة فقال: «ليتَ رجلاً صالحًا مِنْ أصحَابِي يَحرُسُني الليلةَ؛ إذ سمعْنا صَوتَ السِّلاحِ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قِيلَ: سَعد يا رَسُولَ اللهِ، جِئتُ أحرُسَكَ، فَنَامَ النبي ﷺ حَتَّى سَمِعْنَا غَطِيطَهُ[(١)]».

وما أخرجه الترمذي عنها أيضًا، قالت: كان النبي ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبّة فقال لهم: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ انْصرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللهُ[(٢)]».

ثم قال الترمذي: حديثٌ غريبٌ، ورواه الحاكم في المستدرك، وقال: صحيحُ الإسناد،

---

(١) رواه البخاري (٤/٤١)، ومسلم (٧/١٢٤).

(٢) رواه الترمذي في السنن (٤/٣١٧).

ولم يخرجاه.

قلت: لأن في سنده أبا قدامة الحارث بن عبيد الإيادي، وقد قال أحمد: مضطرب الحديث، وقال ابن معين: ضعيفٌ، لكن أخرج له البخاري في المتابعات، واحتجّ به مسلم، والله أعلم.

فهذا الحديث مع الذي قبله يدل على أن ذلك كان بالمدينة؛ لأن عائشة أخبرت عن مشاهدة ذلك، وهي لم تكن عنده ﷺ بمكة، ويعارض ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره عن جابر: كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه حتى نزلت: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فذهب ليبعث معه، قال: «يا عمُّ، إن الله قد عصمني، لا حاجة لي إلى من تبعث[1]».

وما أخرجه الطبراني وغيره عن ابن عباس: كان النبي ﷺ يُحرس، وكان يرسل معه أبو طالب كل يومٍ رجالاً من بني هاشم حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، قال: فأراد عمّه أن يرسل معه من يحرسه، فقال: « يا عمُّ، إنَّ الله قَدْ عَصمَني مِن الجنِّ والإنسِ[2]».

فهذا الحديث والذي قبله يدلان على أن نزول الآية بمكة في أوائل الأمر، فحينئذ يحتاج إلى الجمع بين الروايات، وما في الصحيح أولى، لكنا نلتزم تأخر نزول الآية بالمدينة، وندعي أن الإنكار كان داخلاً وكان في عموم التشريع لمن هو مخاطب به، بشرط استطاعته له ﷺ وهي الأمن من مفسدة تحصل له، بدليل عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٥٩].

فلما نزلت آية العصمة وجب الإنكار مع الاستطاعة وعدمها؛ لأن الله تعالى تولّى حفظه وعصمته، ولهذا كان أولاً يحتاج إلى الحرس، وثانيًا لا يحتاج إليه، وهذا معنًى بديعٌ تزول به إشكالات كثيرة، والله أعلم.

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٧٨/٢).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٢٥٧/١١).

وقد ثبتت أحاديث في كراماته ومعجزاته وما ظهر على يديه من خوارق عاداته، فإنها تعطى بمجموعها وجملتها أن بيديه في العالم العلوي والسفلي وجميع المملكة الربانية التصرف والتحكيم والأمر والنهي والرد لما شاء أو التسليم من غير منازعة ولا معارضة ولا مناقشة ولا مناقضة وإن الكل تحت خدمته وطاعته لا قدرة له على معصيته أو مخالفته كأحاديث تظليل الغمام وطاعة السحاب له بالتمام ونـــزول المطر وارتفاعه بأمره غير مرة ومرتين وانشقاق القمر لما أشار له فرقتين ونـــزول ملائكة السماوات عليه بالطاعة لما يأمر به أو يشير إليه وإحياء الموتى ونطقهم بكرامته وكلام الصبيان معه وشهادتهم برسالته وإبرائه للمرضي وذوى العاهات وسجود الشجر والحجر له والحيوانات ونطقها له كغيرها من الأحجار والجمادات والأشجار والنباتات وطواعيتها لجنابه ومجيئها لحضرته ورحابه وانفعال الأشياء كلها بدعوته ورجوعها لما يطلبه منها في خلوته وجلوته وقوله لأشياء كن فتكون على حسب ما أراده وتتكون في الحال طبق المراد وذلك كله معلوم مشهور وفي كتب السير والمعجزات مذكور.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: «هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت، فيهم فناداني ملك الجبال، فسلم عليَّ ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»[1].

---

(١) رواه البخاري (٣ /١١٨٠).

النور الثالث عشر

وهو نور الانتقال:

فهو النور الذي كان يبصر في عين أبيه وأمه، وما سمع في ذلك بعد ما حملت به أمه، وكونه ﷺ، ورث ذلك منهم بعد ولادته ﷺ وانتقاله من الظهر الطاهر إلى الظهر الطاهر.

وحكى أبو الفضل عياض أنه كان كل من تقدم من آبائه ﷺ إذا أوقع في الرحم ما أودع الله تعالى في ظهره من نطفة المصطفى ﷺ يجد الفراغ والكسل وتختل عليه أحواله كلها حتى جاهه في الناس، هذا بالنظر إلى مكانه الأول، وهذا النور كشف له عن نورانية نُطْفَته ﷺ.

❁ قلت: قال الشيخ أبو محمد عبد الجليل القصري في «شعبه»: فقد أعلمك - يعني عليًا ﷺ أن النبي ﷺ عقدت له النبوة قبل كل شيء وأنه دعا الخليقة عند خلق الأرواح وبدء الأنوار إلى الله تعالى كما دعاهم آخرًا في خلقة جسده آخر الزمان.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾... الآية إلى قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١].

إلى آخر المعنى فقد آمن الكل به فهو آدم الأرواح ويعسوبها كما أن آدم أبو الأجساد وسببها، ثم قال وانظر قوله عز وجل ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١].

والعالمون هم جميع الخليقة فقد أنذر الخليقة أجمع، وآمن الكل به في الأولية والآخرية، وانتقال النور في جميع العالم من صلب إلى صلب فافهم انتهى.

قال الشيخ محمد بن جعفر الكتاني: ولما خلق آدم ﷺ باطنًا من أصل هذه الطينة المحمدية ولذا كان هو وبنوه مرسومين بقلم القدرة على رسم اسم محمد ﷺ وهو قول ابن الفارض على لسان الحقيقة المحمدية وذلك في «تائيته الكبرى»:

وإني وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

فإن هذا كما قاله الشيخ عبد الغني في «شرح الديوان الفارضي» هو الطينة المحمدية وظاهرًا من قبضة قبضها الحق تعالى أي قبضها عزرائيل عليه السلام بأمره من جميع أجزاء الأرض من جميع أي ما قدر الله أن يسكنه بنو آدم منها وخمرت فيها أي في الأرض وألقيت حتى استعدت لقبول الصورة الإنسانية فحملت إلى الجنة وعجنت بمائها ليطيب عنصره ويحسن خلقه ويطبع على طباع أهلها وصورت جعلت درته عليه السلام بالدال المهملة وإن شئت قلت جوهرته وما معها في طينة من الذرات الكريمة التي هي ذوات إخوانه من النبيين والمرسلين وعترته الطاهرين وأقطاب أمته العارفين في موضع الصلب من ذاته الحمئية وكذا جعل فيه بقية الذرات التي كل ذرة فيها مادة صورة من بني آدم لكن من طينة آدم أهل السعادة منهم في ناحية اليمين وأهل الشقاوة في ناحية اليسار ولما تم خلقه ونفخت فيه الروح وذلك في الجنة وأقام فيها ما شاء الله أن يقيم وأهبط إلى الأرض أراد الحق تعالى أن يستخرج ذريته منه ليختبر حالهم ويرى الذي بالدعوة إليه قر وثبت لهم على ما يفيده أكثر الأحاديث من أن أخذ الميثاق من بني آدم كان بعد خلقه ونفخ الروح فيه، وقيل: كان قبل النفخ ورد ذلك في بعض الأحاديث كما يأتي فأهبط بقدرته الأرواح كلها من أماكنها على تلك الذرات على وفق علمه وحكمته حتى حييت ثم كلمهم وذلك بعد أن مسحهم من ظهر آدم بيمينه ونثرهم بين يديه كالذر وذلك في يوم عرفة بين مكة والطائف بموضع يقال له نَعْمان بالفتح، وهو واد في طريق الطائف يخرج إلى عرفات يسمى نَعْمان الأراك، وقيل: كان أخذ الميثاق بدهناء من أرض الهند في موضع هبوطه، وقيل: كان في السماء قبل هبوطه، وقال المحققون بتعدد المواثيق والعهود، وبذلك تجتمع الأخبار قائلا في خطابه لهم: ألست بربكم ؟ فكانت درته أول من قال بلى. إرشادا لهم إلى الإجابة بمثل ذلك على وفق التعليم السابق منه لهم هنالك، فمنهم من أجاب محبة وطوعا، ومنهم مخافة وكرها، ثم حل سبحانه عقال الأرواح، فطارت إلى مكامنها في الملكوت إلى وقت اتصالها بالأجنة في الأرحام، وردت الذرات إلى محلها من صلب آدم عليه السلام فكان ﷺ نبيًا ورسولاً بالفعل عالمًا بنبوته ورسالته في عالمي الحقائق والأرواح كما مر ثم في عالم الأجسام والذر واتصلت نبوته بجميع الخلائق من غير انقطاع إلى زمن وجود جسده المكرم فبعث بجسده في عالم الأجساد إلى كل أحمر وأسود وكل عين مخلوقة،

وكان من قبله من الأنبياء والرسل نوابا عنه ثم بعد انتقاله إلى الدار الآخرة بقيت نبوته كما هي قائمة إلى أبد الأبد من غير انقطاع ولا زوال، وهذا لم يكن لغيره وبه تفهم معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «**كنت نبيًا وآدم بين الروح والجسد**».

أخرجه ابن سعد في طبقاته وأحمد والبخاري في تاريخه وأبو نعيم في الحلية والحاكم وصححه والبغوي وابن السكن وغيرهم كلهم من حديث ميسرة الفجر، وابن سعد في طبقاته عن عبد الله بن أبي الجدعاء، والطبراني في الكبير عن ابن عباس وعن أبي هريرة أنهم قالوا: يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: وآدم بين الروح والجسد. رواه الترمذي وقال: حديث حسن[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا قال: «إن قريشًا كانت نورًا بين يدي الله ﷻ قبل أن يخلق آدم ﷺ بألفي عام، يسبح ذلك النور فتبح الملائكة بتسبيحه، فلما خلق الله آدم جعل ذلك النور في صلبه، فقال رسول الله ﷺ: فأهبطه الله على الأرض في صلب آدم ﷺ، فجعل في صلب نوح في السفينة، وقذف في النار في صلب إبراهيم، ولم يزل ينقلني من أصلاب الكرام إلى الأرحام حتى أخرجني من بين أبواي، لم يلتقيا عل سفاح قط»[(٢)].

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظره في إتحاف الخيرة (٨٤٨٥)، والمطالب العالية (٤٦٧٦)، والحديث بالمتابعات والشواهد يرتقي إلى درجة الحسن لغيره.

النور الرابع عشر

وهو نور النهاية:

فهو نور الله تعالى الذي ختم به النبوة وانتهي الأمر عنده، وصور التكميل بالجملة. وهذا أظهر له ﷺ أنه خير الرسل.

فإنه نسخ ما ظهر أنه صاحب نهاية الأمور الذي يرجع إليه والكامل الذي لا يمكن أن يزاد فيه ولا ينقص منه.

۞ قلت: قال الشيخ القونوي: ختم نبوة التشريع ورسالته فلا يوجد بعده نبي مشرع أصلاً، وهو سيدنا محمد ﷺ وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقال الشيخ عبد الغني النابلسي في كتاب الرد المتين على منتقص العارف محيي الدين ما نصه:

اعلم أن سيدنا محمدًا ﷺ خاتم جميع الأنبياء والمرسلين، ومعنى ذلك أنه ذائق لمشرب كل نبيٍّ، وكل رسول ممن تقدمه، فهو جامعٌ لجميع مشارب الأنبياء والمرسلين، ولهذا جاء بتصديقهم كلهم، وأفصح عن مقاماتهم ومراتبهم، وكشف له عن أحوالهم كلها، وتنـــزلت أخبارهم على نفسه بما تلاه علينا من القرآن العظيم، فنبوته أصل لجميع النبوات، والنبوات فرعٌ عن نبوته، ولهذا قال ﷺ: «كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين».

وبقية الأنبياء عليهم السلام إنما كانوا نبيين حين بُعثوا لا قبل ذلك، فأصل مشارب الأنبياء كلها، وهي روحانياتهم الفاضلة، كالمياة المنقسمة مجموعة في مشرب محمد ﷺ الجامع الذي هو روحانيته التي بدأ الله تعالى بها الوجود، كما ورد أنه أول ما خلق الله نور محمد ﷺ من نوره تعالى، والحديث في ذلك طويل، ثم لما خلق الله طينة آدم عليه السلام، وسواه أجرى ماء روحانية آدم من مشرب محمد ﷺ الجامع، وكذلك حين خلق طينة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وبقية المرسلين عليهم السلام على حسب ترتيب خلق طيناتهم في هذا الوجود أجرى الله تعالى مياه روحانياتهم التي هي مشاربهم الخاصة من ماء روحانية محمد ﷺ التي هي مشربه الجامع، ثم لما خلق الله تعالى طينة محمد ﷺ أجرى ماء روحانيته،

الجامعة في طينته المخصوصة ﷺ، فظهر في هذا الوجود مرتين مرة بطريق التفصيل في أطوار رقائق الأنبياء والمرسلين قبله، ومرة بطريق الإجمال.

ومعلوم أن الإجمال بعد التفصيل، ولهذا ختمت به النبوة، فلا نبي بعده لتمام التفصيل بإجماله ﷺ، انتهى منه بلفظه.

وقلت: فهو ﷺ النسخة الصغرى وهي العبد الكامل الذي كان مظهرًا لكل اسمٍ إلهيٍّ من غير أن يغلب عليه اسم من الأسماء، ويُسمَّى من وجه بالخليفة والنائب، وهو الرداء على الحق، وقد يستهلك بالحق بحيث لا يظهر له وجود عين أصلاً، فيكون حقًّا كله والانفعالات تقع منه من غير أن تنسب إلى شيءٍ من وجوده.

وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «واجعلني نورًا[1]»: أي حقًّا يظهر في كل شيءٍ ولا أظهر بشيء، وقد يستهلك الحق به، فكل شيءٍ يُنسب لوجوده، ويكون هو المرتدي والحق رداءه، فالمرتدي هو المستهلك فيه، فإذا كان العبد رداء كان هو الظاهر والحق باطن، وإذا كان الحق رداء فالأمر بالعكس.

وقد أشار حضرة الشيخ الأكبر إلى هذا في المسائل الترمذية بقوله: أنا البرداء، أنا السر الذي ظهرت في ظلمة الكون؛ إذ صيرتها نورًا، فهذا الخليفة مع صغر حجمه جمع مظهره وعينه كل مظهر، وعين من العلوي والسفلي، فما من شيءٍ إلا وهو تفصيله وجزء منه، بمعنى أن فيه أنموذج كل شيءٍ كما سيذكر، إلا أن الأشياء أجزاؤه حقيقة كما يتوهم، بل هو مبدأ الآثار في كل شيءٍ.

وتمام هذه النسخة المظهر المحمدي الأتم، وكون غيره من الكُمَّل متحققًا بهذه النسخة، باعتبار أنه مظهر من مظاهره ﷺ التي تفرَّعت عنها النسخة الكبرى، أعني هذا العالم الكبير المفصل، فإنه بأجمعه تفصيل مظهره ﷺ في كل مرتبة.

أما في الأعيان والصور فلما قدمناه من أنه أول تعين للحق تعالى، مشتمل ومنطوٍ على

(١) رواه مسلم (١/٥٢٨)، وأحمد (١/٢٨٤).

كل حقيقة إلهية وكونية، فهو كجنس الأجناس لها.

وأما في الأرواح فلأن روحه العقل الأول الذي خلق الله به السماوات والأرض، بل أوجد به كل العالم، وهو مجمل كلي منطوٍ على كل روحٍ وعقلٍ ونفسٍ.

وأما في المثال فكذلك لجمع خياله.

وأما في الطبيعيات فكذلك، فإنه ظهر بصورة الهباء هيولي الكل، واستوى على العرش، ومنه تفصلت الأشياء حتى انتهى الحال إلى هذا النوع الإنساني الحسي الجامع لكل ما عداه، وهو هذه النسخة، بل هو الذي كان للحق بمنــزلة إنسان العين من العين، فيه يرى جميع ما سواه، فالأمر في كل المراتب جملي ثم يتفصل.

والجملي هو النسخة الصغرى، وما تفصل منه وتفرع هو النسخة الكبرى، نظير ذلك نقطة البسملة والقرآن العظيم الجامع.

النور الخامس عشر

وهو نور التضمن:

فهو الذي كشف له به أن الذي كان عليه أسهل وأكمل من الذي سلكه أبوه إبراهيم عليه السلام، فإن هذا كان في أمره كالمختار المحبوب، وأبوه كالطالب المجتهد.

وقصة انتقال إبراهيم عليه السلام تعلمك بالحال.

❁ قلت: قال الشيخ ابن غانم المقدسي رضي الله عنه: لما توسل به آدم عليه السلام سلم من الملام، ولما انتقل إلى صلب إبراهيم الخليل عليه السلام صارت النار عليه بردًا وسلامًا، ولما أودعته ذرة وجوده صدفة إسماعيل، فدي بذبح عظيم، فثمرة غصن أصحاب اليمين يحبهم ويحبونه.

ولأن آدم ﷺ لما خلق الله نور سيدنا محمد ﷺ في جبينه كانت الملائكة تستقبله، وتسلم على نور محمد ﷺ وآدم عليه السلام لم يره، فقال: يا رب أحب أن أنظر إلى نور ولدي محمد ﷺ، فحوله على عضوٍ من أعضائي لأراه، فحوله إلى سبابته في يده اليمنى، فنظر إليه يتلألأ في مسبحته، فرفعها فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، لذلك سميت المسبحة. والله أعلم.

النور السادس عشر

وهو نور التسخير:

فهو كشف له ﷺ أنه الغاية في السموات والأرض، وأن القمر انشق له والكواكب سخرت لحفظ نظام ملته، وتلك أيضًا معجزة ظهرت في مدة ملته ﷺ، وهي باقية، وغفل عنها كثير من الناس، وهي الشهب التي ترسل على الشياطين.

وما ذلك إلا بركة كتابه ولأجل موضوعه، وكذلك الملائكة من تسخيره وخدمته، فإنها تكتب فضائل أمته ﷺ، وقاتلت معه ﷺ، وإلى الآن أولياء أمته في منادمتهم ومخاطبتهم مشافهة، وكذلك الصور الروحانية كلها.

وهذا نور كشف له أنه المدلل في السموات والأرض، وفي كل العوالم.

❁ قلت: قال الشيخ الكتاني: وقد ذكر العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه «العهود المحمدية» وفي «كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان» وغيرهما من بعض كتبه أنه لا يجمع بين رؤية الملك وسماع خطابه إلا الأنبياء فقط وأما الولي فإن رأى شخصه لا يكون مكلما له وإن كلمه لا يرى شخصه وأصله للشيخ الأكبر في «فتوحاته» ونصه في الباب الثامن والستين ومائتين:

وأهل الله يشاهدون تنزل الأرواح على قلوبهم، ولا يرون الملك النازل إلا أن يكون المنزل عليه نبيًا أو رسولا، فالولي يشهد الملائكة، ولكن لا يشهدها ملقية عليه، أو يشهدون الإلقاء ويعلمون أنه من الملك من غير شهود، فلا يجمع بين رؤية الملك والإلقاء منه إلا لنبي أو رسول، وبهذا يفترق عند القوم ويتميز النبي من الولي، انتهى منه بلفظه.

وقال في الباب الثالث والخمسين وثلاثمائة بعد ما ذكر أن الأولياء لهم من الله الإلهام لا الوحي وإن الإلهام خبر إلهي وإخبار من الله للعبد على يد ملك مغيب عن هذا الملهم، وأنه قد يلهم من الوجه الخاص ما نصه:

فالرسول والنبي يشهد الملك ويراه رؤية بصر عندما يوحى إليه، وغير الرسول يحس

بأثره ولا يراه رؤية بصر، فيلهمه الله به ما شاء أن يلهمه، أو يعطيه من الوجه الخاص بارتفاع الوسائط، وهو أجل الإلقاء وأشرفه، وهو الذي يجتمع فيه الرسول والولى أيضًا، انتهى بلفظه أيضًا.

وقال في الباب الرابع والستين وثلاثمائة ما نصه: وصل: وأما من قال من أصحابنا وذهب إليه كالإمام أبي حامد الغزالى وغيره بأن الفرق بين النبـــي والولى نــزول الملك، فإن الولي ملهم والنبـــي ينـــزل عليه الملك مع كونه في أمور يكون ملهما، فإنه جامع بين الولاية والنبوة، فهذا غلط عندنا من القائلين به، ودليل على عدم ذوق القائلين به، وإنما الفرقان إنما هو مما ينـــزل به الملك لا في نـــزول الملك، فالذي ينـــزل به الملك على الرسول والنبـــي خلاف الذي ينـــزل به الملك على الولي التابع.

ثم ذكر أن الملك قد ينـــزل على الولي التابع بالاتباع وبإفهام ما جاء به النبـــي مما لم يتحقق هذا الولي بالعلم به، وقد ينـــزل عليه بتعريف صحة ما جاء به النبـــي، وسقمه مما قد وقع عليه أو توهم أنه صحيح عنه أو ترك لضعف الراوى وهو صحيح في نفس الأمر وقد ينـــزل عليه بالبشرى من الله بأنه من أهل السعادة والفوز وبالأمان.. إلى آخر ما قال.

ولم يذكرها هنا في هذا الملك النازل على الولي بشيء هل يراه الولي رؤية بصر أو لا يراه، وإنما يحس بأثره، وهذا هو الظاهر جمعا بين كلاميه، وإن كان الأول هو المتبادر من إطلاقه.

وأقول: قد ثبت في السُّنة الغراء جمع الصحابة وليسوا بأنبـــياء ولا برسل بين رؤية الملك المتمثل بصورة البشريين وسماعهم لكلامه، وذلك بحضرة النبـــي ﷺ كما في حديث سؤال جبريل للنبـــي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان بمحضر الصحابة، وهم يرونه بأبصارهم ويسمعون كلامه إلا أن الخطاب فيه كان للنبـــي دونهم.

وقد قال الحافظ في «فتح الباري» فيه أن الملك يجوز أن يتمثل لغير النبـــي ﷺ فيراه ويتكلم بحضرته وهو يسمع قال: وقد ثبت عن عمران بن حصين أنه كان يسمع كلام الملائكة انتهى.

وفي «الاستيعاب» لأبي عمر بن عبد البر في ترجمة عمران هذا ما نصه:

وكان من فضلاء الصحابة وفقهائهم يقول عنه أهل البصرة أنه كان يرى الحفظة وكانت تكلمه حتى اكتوى انتهى.

فظاهره أنه كان يجمع بين رؤيتهم وسماع كلامهم.

وقد ورد أيضًا أنها كانت تسلم عليه فلما اكتوى رفع ذلك، فلما زال أثر الكي عاد إليه.

وورد أنها كانت تصافحه.

وفي «الطبقات» للمناوى في ترجمة القطب سيدي إبراهيم الدسوقي نقلاً عنه قال: وليت القطبانية فرأيت المشرقين وما تحت التخوم وصافحت جبريل. انتهى.

ففيه مصافحة الملائكة للصحابة والأولياء وتسليمها عليهم، ولا بعد في ظهورها لهم عند ذلك بل هو الظاهر، وفيه أيضًا لقاء الأولياء لسيدنا جبريل عليه السلام بعد وفاته ﷺ، وما اشتهر من أنه لا ينــزل إلى الأرض بعد وفاته ﷺ، لا أصل له إلا ما ورد في خبر ضعيف جدًّا أنه قال للنبـــي ﷺ قبيل وفاته وطآتى بالأرض.

ومن الدليل على بطلانه ما للطبراني في «الكبير» عن ميمونة بنت سعد قالت: يا رسول الله هل يرقد الجنب؟ قال: ما أحب أن يرقد حتى يتوضأ، فإني أخاف أن يتوفى فلا يحضره جبريل.

ففيه أنه يحضر كل من مات من هذه الأمة إلا أن يمنع من حضوره مانع.

ولنعيم بن حماد عن النبـــي ﷺ في وصف الدجال قال: فيمر بمكة فإذا هو بخلق عظيم فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا ميكائيل بعثني الله لأمنعه من حرمه. ويمر بالمدينة فإذا هو بخلق عظيم فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا جبريل بعثني الله لأمنعه من حرم رسوله[1].

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله تعالى: ﴿تَنَــزَّلُ المَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر:٤] قال: الروح جبريل. راجع «الإعلام بنــزول عيسى عليه السلام» للحافظ السيوطي،

(١) رواه نعيم بن حماد في الفتن (٢/٥٤٤).

وكذا ما اشتهر من أنه لا ينــزل على الأولياء، وأن نــزوله خاص بالأنبــياء لا أصل له ولا يصح، بل ينــزل على الأولياء ويصافحهم كما سبق عن سيدي إبراهيم الدسوقي ويسلم عليهم، ويأتيهم بالأمر والنهي كما في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٤٢]، يعني جبريل وحده كما أخرجه إسحاق بن بشر، وابن عساكر عن ابن عباس.

قال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢: ٤٣] إلى قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٤٥].

فأفاد أن الملائكة: أي جبريل منهم نــزلت عليها بالأمر وهو قوله: ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران:٤٣] إلى آخر الآية، والظاهر المتبادر منه أيضًا أنها جمعت بين رؤيتهم وسماع خطابهم.

ويؤيده ما في «الدر المنثور» قال: أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ [آل عمران:٤٥] قال: شافهتها الملائكة بذلك، والصحيح أنها لم تكن نبــية، بل نفى النبوة عن جميع النساء.

وفي «الإبريز» في الكلام على هذه الآية نقلاً عن شيخه قال: وأما ما ذكروه في الفرق بين النبــي والولي من نــزول الملك وعدمه فليس بصحيح؛ لأن المفتوح عليه سواء كان نبــيًا أو وليًا لا بدَّ أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه، ويخاطبهم ويخاطبونه، وكل من قال أن الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه فذاك دليل على أنه غير مفتوح عليه، انتهى منه بلفظه.

فظاهره الجمع بينهما للولي، وهو ظاهر كلام غير واحد من الفحول.

وفي كتاب «الأسرار لأحد مفاتيح الكنوز الأربعة»، وهو العارف بالله سيدي عبد الرحمن الشامي قضايا جمع له فيها بين رؤية الملائكة ومخاطبتهم فراجعه والله أعلم.

ثم ظاهر كلام الشيخ الأكبر السابق في الفرق بين النبــي والولي:

إن الولي لا ينــزل عليه الملك بالأمر والنهي.

واعترضه مؤلف «الإبريز» وقال: إنه غير ظاهر.

فإن الولي ينـــزل عليه الملك بالأمر والنهي، ولا يلزم منه أن يكون ذا شريعة كما في قصة مريم، فإن الملك نـــزل عليها بالأمر وليست نبـــية كما سبق انتهى كلامه.

وعليه فالصواب في الفرق بين النبـــي والولي، وإن كان كل منهما ينـــزل عليه جبريل أو غيره من الملائكة، فيراه ببصره، ويسمع خطابه بالأمر أو النهي أو غيرهما على ما تحرر أن النبـــي ينـــزل عليه الملك بالنبوة وبما يناسبها، ويتبعها من الأحوال والأقوال والشرائع، والولي لا يأتيه بنبوة ولا بما يناسبها، وإنما ينـــزل عليه بغير ذلك مما يناسب حال الولاية مما تقدم أو نحوه فاعرفه.

النور السابع عشر

وهو نور العادة:

فإنه أظهر في أيام الدنيا، وأيام العالم، وأيام الدين من العدل وصلاح الأحوال، وسياسة المنـــزل والتدبير المحمود، فأظهر له أنه الحكيم الأعظم.

ﷺ قلت: كان ﷺ أوجز الناس كلامًا، وبذلك جاءه جبريل عليه السلام، وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد، وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير، كأنه يتبع بعضه بعضًا، بين كلامه توقُّفٌ يحفظه سامعه ويعيه، وكان جهير الصوت، أحسن الناس نغمةً.

وكان طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، ولا يقول المنكر.

وكان ﷺ أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع المقدرة.

وكان ﷺ في حرب فرأوا في المسلمين غرَّةً، فجاء رجلٌ حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: «مَنْ يمنعك مني؟ فقال: الله، قال: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ السيف، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: كن خير آخذ، قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله. فقال: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك،

فخلا سبيله، فجاء أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس[١]».

وكان ﷺ أجود الناس وأسخاهم.

وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئًا، وما سُئل شيئًا قط على الإسلام إلا أعطاه.

وإن رجلاً أتاه فسأله فأعطاه غنمًا سدَّت ما بين جبلين، فرجع إلى قومه، وقال: أسلموا؛ فإن محمدًا يعطي عطاءً من لا يخشى الفاقة[٢].

وما سُئل شيئًا قط فقال له: لا، وحُمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير، ثم قام إليها فقسَّمها فما ردَّ سائلاً حتى فرغ منها.

ولمَّا قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخُطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ، وقال: «**أعطوني ردائي، لو كان عندي عدد العضاه نعمًا لقسَّمتها بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذَّابا ولا جبانًا**[٣]»، فحاشاه من ذلك ﷺ لبيان كرمه، وشجاعته ﷺ، وكان ﷺ أكرم الناس وأشجعهم.

قال عليٌّ رضي الله عنه: «**لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربُنا إلى العدوِّ، وكان من أشدِّ النَّاس يومئذ بأسًا**[٤]».

وقال أيضًا رضي الله عنه: «**كنَّا إذا احمرَّ البأس ولقي القومُ القومَ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه**[٥]».

وقيل: «كان ﷺ **قليلَ الكلام، قليلَ الحديث، فإذا أمر النَّاس بالقتال تشمَّر، وكان**

(١) رواه أحمد (٣/٣٩٠)، وابن حبان في صحيحه (٧/١٣٨)، والحاكم في المستدرك (٣/٣١).

(٢) رواه مسلم (٤/١٨٠٦)، والبيهقي في الكبرى (٧/١٩).

(٣) رواه البخاري (٣/١٠٣٨)، وأحمد (٤/٨٢).

(٤) رواه أحمد (١/٨٦)، وابن أبي شيبة (٦/٤٢٦)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٢).

(٥) رواه أحمد (١/١٥٦)، وأبو يعلى في المسند (١/٢٥٨).

من أشدِّ الناس بأسًا، وكان الشجاعُ هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو[١]».

وقال عمران بن الحصين ﷺ: «**ما لقي رسول الله ﷺ كتيبةً إلا وكان أوَّلَ مَنْ يضربُ[٢]**»

وكان ﷺ أشدَّ الناس تواضعًا في علوِّ منصبه، فكان يركب الحمار موكفًا عليه قطيفةٌ، وكان مع ذلك يستردف، وركب مرةً حمارًا عريًّا، وأمر أبا هريرة ﷺ أن يركب معه، وكان فيه ثقلٌ، فوثب ليركب فلم يقدر، فأمسك به ﷺ فوقعا جميعًا، ثم ثانيًا كذلك، ثم أمره ثالثًا فقال: «**والذي بعثك بالحق لأركبنَّك ثالثًا[٣]**».

وكان ﷺ يعود المريض، ويتبع الجنائز، ويجيب دعوة المملوك، ويخصف النعل، ويرقِّع الثوب.

وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجاتهم.

وكان أصحابه رضي الله عنهم أجمعين لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك، وكان يمر على الصبيان فيسلِّم عليهم، وأُتي برجلٍ فأرعد من هيبته، فقال له: «**هوِّن عليك، فلستُ بمَلِك، إنَّما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد[٤]**».

وكان ﷺ يجلس بين أصحابه مختلطًا بهم كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، حتى طلبوا إليه ﷺ أن يجلس مجلسًا يعرفه الغريب، فبنوا له دكانًا من طينٍ فكان يجلس عليه[٥].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٤/٢٢٩).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/١٧٢).

(٣) رواه أحمد في المسند (٢/٩٤) بنحوه.

(٤) رواه ابن ماجه (٢/١١٠١)، والطبراني في الأوسط (٢/٦٤)، والحاكم في المستدرك (٢/٥٠٦).

(٥) رواه أبو داود (٤/٢٢٥)، والنسائي (٦/٥٢٨).

وكان لا يدعوه أحدٌ من أصحابه وغيرهم إلا وقال: لبيك.

وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم، وإن تحدثوا في طعامٍ أو شرابٍ تحدَّث معهم، وإن تكلموا في الدنيا تحدَّث معهم رفقًا بهم وتواضعًا لهم.

وكان يتناشدون الشعر بين يديه أحيانًا، ويذكرون أشياءً من أمر الجاهلية، ويضحكون فيبتسم هو إذا ضحكوا، ولا يزجرهم إلا عن حرامٍ.

* * *

النور الثامن عشر

وهو نور الأتباع:

فما ظهر لهم من النصر بالسنان فإنهم استفتحوا بلاد الكفر من بعده ﷺ وما فتح الله به، وما ظهر على رجال أمته من الكرامات على العلماء من العلوم على أنحائها.

وبالجملة: ظهر أن الأمر فيه مع الأنبياء والرسل هو الأمر فيهم مع العلماء والملل والدول.

وقوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾** [البقرة: ١٤٣] **فهي ذلك** الآية.

۞ قلت: فهو نور الأمم: أي البادي في نفسه المبدي لغيره، والأمم: جمع أُمَّة، وهي الطائفة القاصدة لِأَمٍّ: أي مقصدٍ يقصده؛ ليهتدي به مما أحست به من ضلال مسلكها، وأن الله ﷻ كما ورد: خلق الخلق في ظلمة(١)، وظلمة الخلق ذواتهم وإحساسهم بأنفسهم، تلك ظلمتهم التي طمست عنهم الوجد بربِّهم، ثم تضاعفت عليهم ظلم ذواتهم دركةً دركةً إلى أسفل سافلين وإلى أطباق سجين، بحيث صارت أدنى الظلمتين طمسًا أهونهما بما يداخل أدنى الظلمتين من نورٍ يظهر ظلمه أشدهما، وكل نورٍ يظهر ذاتًا من ذوات الخلق؛ فهو بما يظهر نورٌ، وبما هو دون إراته الحق وإظهار نور الله ظلمةٌ.

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (١١٣/٤)، وذكره المباركفوري في تحفة الأحوذي (١٦٦/٧).

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:٥].

فهو نورٌ بما يظهر من طمس الظلمة، وهو ظلمةٌ بما هو بادٍ من بوادي الخلق، حجابٌ من دون نور الحق.

قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها وقد نظرت القمر: «استعيذي بالله من شرِّه؛ فإنَّه الغاسق إذا وقب[١]»، فكلُّ بادٍ من الخلق ظلمةٌ بوجه ما إلا محمدًا ﷺ وآله.

فهو نورٌ لكل من أمَّه من الأمم بما أبدى الله به من نوره وطمس مما سواه، حتى شهد ببطل ما خلا الله، وبمحو الكفر الذي تغطيته هي الظلمة التي محاها نوره، فهو نور الأمم الذي لا يبقي لمن آمن به ظلمةً من وراء نوره، وذلك بما هو النور الأول.

كما قال ﷺ: «إنَّ الله خلقني من نورٍ[٢]»، فهو ﷺ نورٌ لا بقية لظلمة فيه، بما هو فانٍ عن نفسه قائمٌ بربِّه، كما يقول هو ﷺ: «ما أنا حملتكم، الله حملكم[٣]».

وكما قيل في أنه شعاعٌ، نوره من أصحابه وأنصاره: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال:١٧].

وكما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]، فهو ﷺ نورٌ ليس في إنارته بقية ظلمةٍ بما نزع الله ممن ائتمَّ به واتَّبعه، خفيُّ الشرك الباقي في خواص أمته، فصاروا أئمةً، ولذلك كانوا نور الأمم الذي ينتهي إلى نوره الأنوار ويأتمُّ به الأئمة، فهو نور الله المستمد بمدد الله، فلذلك هو نورٌ لا يطفأ ﷺ.

فلما كان ﷺ محيطًا في خلقه بما كل خلقٍ منه ومحيطًا في أمره بما كل أمرٍ من أمره كان ﷺ مبينًا أعلى أمر الله لأدنى خلق الله، فهو نور الله البادي الذي أرسله، وهو نور الأمم

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢/٥٨٩)، والطيالسي في مسنده (١/٢٠٨).

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (١٢/٢٨٦).

(٣) رواه البخاري (٦/٢٤٤٤)، ومسلم (٣/١٢٦٨)، والنسائي في الكبرى (٣/١٢٦)، وأحمد (٤/٣٩٨)، وابن ماجه (١/٦٨١)، وأبو يعلى في مسنده (١٣/٢٢٩)، والبزار في مسنده (٨/٥١)، والبيهقي في الكبرى (١٠/٥١).

الهادي الذي أوصلها، فهو نور الأمم بما هو هاديها، ونور الله بما هو باديه، الذي لا خفاء له، ولما كان الأول الآخر فكان الخاتم ليس وراء مكانته مكانةٌ ولا وراء إنارة نوره إنارةٌ، لم يكن وراءه ما هو أكمل نوريَّةً منه فيطفئ نوريَّته، كما شأن الأنوار المترتبة في حكمة الله أن تطفئ أشدها أضعفها، كما يطفئ نور الكواكب ويطفئ ضوء الشمس بعد القمر، والإطفاء إذهاب الإنارة، والإنارة الإراءة للأشياء بما شأنه أن يبدو ويبدي، فالإطفاء ذهابٌ له أو ذهابٌ لأثره، كما يذهب السراج وتذهب إثارة القمر بضوء الشمس، فكل نورٍ يطفئه فهو أكمل منه، ونور الله الذي هو نور السماوات والأرض نورٌ لا يُطفأ، فلما كان ﷺ نور البادي كله خلقًا وأمرًا لم يكن وراءه نورٌ بما هو نور الإحاطة إلى ما ورائها من إطلاق الحدّ؛ فهو لذلك نور الله الذي لا يطفأ، بما ليس وراء نوره مرمًى.

والكلام على الآية التي استدل بها الشيخ ابن سبعين، قلت:

قال الرصاع: نقلاً عن بعض أهل التحقيق في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، إن الله تعالى أيد موسى باسمه الرب فقال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف:١٤٣].

وأيَّد عيسى باسمه المحيى وإبراهيم باسمه الباطن فأراه ملكوت السماوات والأرض.

وأيَّد سيد أهل الأكوان الجامع لخصال أهل العرفان بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال:٦٤]، فذكر له اسمه الجامع لذاته وصفاته، فقرنه باسم نبوته، فليس ذلك لغيره.

ثم نقل عن بعضهم أن ذاته الكريمة ﷺ جمعت حقائق الموجودات، ونبوته جامعة لسائر النبوات، ونوره جامع لسائر الأنوار، وسره منه تفرَّعت الأسرار، ويومه جامع لسائر الأيام، وكتابه جامع للكتب المنـزلة على أنبياء الله الكرام عليهم الصلاة والسلام، انتهى.

وقال الحرالي: لما كان ﷺ شاهدًا من ربِّه في خلقه فكان شاهدهم بما أشهده الله منهم، حتى عرفهم حال كونهم وقبل كونهم، وعرض عليه الكون كله ملكه وملكوته ظاهره وباطنه، وأشهد الله بإشهاده من شاء ممن اصطفاه من أئمة أمته، والبراء من الانتهاء في الافتراق إلى اللعن والمنابذة، وكان ﷺ شهيدًا على شهداء أمته الذين هم الشهداء على الناس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣].

والوسط: ما بين طرفي الشيء المالئ لكليته، وكانوا وسطًا بما شهدوا من أمر الله مما بين الأزل والأبد، فكانوا بذلك شهداء على خلق الله، وكان هو ﷺ شهيدًا على هؤلاء الشهداء كما كان نبيًّا للأنبياء؛ ليكون في الرتبة الثالثة علوًّا من كل بداية، فيكون له أحمديَّة الحمد الذي هو عليٌّ على المدح.

قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

ومن الناس من لم يستخلصه الإيمان بالكلية، وبقي له توقين إلى عاجلة الدنيا حبّ شرفها وحبّ مالها كما هو حال الملوك وأتباعهم ورؤساء القبائل وأتباعهم، الذين حظهم منه التذكرة لأجل ذلك الحب للعاجلة كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس:٢].

فأمته الحمَّادون لله على كل حال، الذين لا يلعنون شيئًا ولا يبرأون من خلق، بما شهدوا من حمد ربهم هم الشهداء كما قال ﷺ: «اللَّعَّانون لا يكونوا شهداء ولا شفعاء يوم القيامة(١)».

فالانتهاء في الافتراق إلى اللعن جرحة هذه الشهادة المحمديَّة؛ لأنهم منه بما قيل له هو ﷺ: «إن الله لم يبعثك سبَّابًا ولا لعَّانًا، وإنما بعثك رحمةً و لم يبعثك عذابًا(٢)».

ولذلك يقول ناطق العلم: إنه لا ينبغي لأهل النقل والرواية أن يقولوا: لعن رسول الله ﷺ كذا في نقلهم بعد هذا التقرير، ولكن يكون لفظ النقل أن يُقال: قال رسول الله ﷺ: لعن رسول الله كذا، ليقع الفرق بين أن يكون في اللعنة ناقلاً أو منشئًا؛ لأن الله ﷻ أسند اللعن في كتابه لما صرح به في قوله:

﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة:١٦١] فكالذين انتظم في أنهم يلعنون، هم الذين يشهد عليهم، وهم الناس لا الذين يشهدون

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه في مسنده (٢٦٤/١).

(٢) رواه أبو داود في المراسيل (١١٨/١)، وأحمد في المسند (١٢٦/٣).

الذين ليس شأنهم أن يُلعنوا؛ فهو ﷺ شهيد الشهداء بما شهد من عين المشار إليه في إشارة قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨].

وفي هذا فشهوده عيانٌ، هذا المشار إليه في هذه الإشارة العظيمة هو سرُّ شهادته، كما قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج:٧٨]، فالناس مشهودٌ عليهم، والوسط الشاهدون شهداء على الناس، والله أعلم.

النور التاسع عشر

وهو نور اللواحق:

فما بعده من الآيات التي أخبر به، وما أيضًا في العالم من العجائب فهي له حتى فضائل أمته، فإنها هي فضائله.

فإن قلت: لا تحصر كراماتهم وعلومهم فقد قلت: لا نهاية لمعجزاته ﷺ هو فإنه الأصل في ذلك. والذي يفيد الكرامة بتبعيته هو الكامل.

حتى أن هذا النوع باتباعه يترجح على المعجزة الحاضرة معه، فإن تلك بإزاء تكذيبه ولضرورة المعاند، وهذه من عند الله على جهة الإكرام ثم هي أيضًا مركبة بزيادة أمر محمود وهذا أظهر له ﷺ أصل كل فضل وسعادة وعناية.

❁ قلت: قال الشيخ الموصلي الكردي: قال الإمام نجم الدين عمر النسفي في «عقائده»: وكرامات الأولياء حقٌّ، فتظهر الكرامة على طريق تقضي العادة للولي من قطع المسافة البعيدة في المدة القليلة، وظهور الطعام، واللباس، والشراب، والمشي على الماء وفي الهواء، وكلام الجماد، والعجماء وغير ذلك من الأشياء، ويكون ذلك معجزةً للرسول الذي ظهرت هذه الكرامة لواحد من أمته؛ لأنه يظهر بها أنه وليٌّ، ولن يكون وليًّا إلا وأن يكون محقًا في ديانته، وديانته الإقرار برسالة رسوله مع الطاعة له في أوامره ونواهيه.

قال الشارح سعد الدين: حتى لو ادَّعى هذا الولي الاستقلال بنفسه وعدم المتابعة لم يكن وليًّا، ولم يظهر ذلك على يده، وإذا ظهر فلا يكون كرامةً بل استدراجًا.

والحاصل أن الأمر الخارق للعادة فهو بالنسبة إلى النبي معجزةٌ سواء ظهر من قبله أو من قبل آحاد أمته، وبالنسبة إلى الولي كرامةٌ؛ لخلوّه عن دعوى نبوة من ظهر ذلك من قبله.

وقال إمام الحرمين في كتابه «الإرشاد»: ما صار إليه أهل الحق انخراق العادات للأولياء.

ثم قال: وإن الكرامة والمعجزة ليس بينهما فرقٌ إلا وقوع المعجزة على حسب دعوى النبوة والكرامة دون ادِّعاء النبوة.

وقال الإمام فخر الدين الرازي في كتابه «المحصَّل»: ثم تتميز الكرامة من المعجزة بتحدِّي النبوة.

وقال الإمام ناصر الدين البيضاوي في كتابه «المصباح»: الكرامات جائزةٌ خلافًا للمعتزلة والأستاذ، وتتميز عن المعجزة بعدم التحدي.

وقال الإمام عبد الله بن أسعد اليافعي في كتابه «نشر المحاسن»: ظهور الكرامات للأولياء جائزٌ عقلاً، وواقعٌ نقلاً، أمَّا جوازه في العقل فلأنه ليس مستحيلٌ في قدرة الله تعالى بل هو من قبيل الممكنات كظهور معجزات الأنبياء، هذا مذهب أهل السنَّة من المشايخ العارفين، والنُّطقاء الأصوليين، والفقهاء، والمحدثين، وتصانيفهم ناطقةٌ بذلك شرقًا وغربًا عجمًا وعربًا، وأمَّا وقوع ذلك بالنقل فقد جاء في القرآن والأخبار والآثار بالإسناد ما يخرج عن الحصر والتعداد، فمن ذلك في القرآن ما أخبر الله تعالى عن مريم عليها السلام بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ [آل عمران:٣٧]، وكان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، هكذا جاء في التفسير، وكذلك ما أخبر الله تعالى من إلهام أم موسى عليه السلام في أمره ما هو معروفٌ، وكذلك ما أخبر الله تعالى من العجائب عن الخضر مع موسى عليهما السلام، وكذلك قصة أصحاب الكهف والأعاجيب التي ظهرت عليهم من كلام الكلب معهم وغير ذلك، وكذلك قصة آصف بن برخيا مع سليمان عليه السلام في عرش بلقيس في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل:٤٠].

ومن ذلك في الأخبار حديث جريج الرَّاهب الذي كلَّمه الطفل في المهد، وهو حديثٌ صحيحٌ أخرجه البخاري ومسلم.

وحديث الغار الذي انطبقت عليهم الصخرة، ثم انفرجت عنهم، وهو أيضًا حديثٌ صحيحٌ أخرجه البخاري ومسلم.

وحديث البقرة التي كلّمت صاحبها، وهو حديثٌ صحيحٌ مشهورٌ، والحديث المتفق على صحته المذكور في الصحيحين في أبي بكر الصديق مع ضيفه وبركة الطعام حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان قبله ثلاث مرات، وكذلك ما اشتهر عن الصدّيق أيضًا أنه أُخبر أن حمل امرأته أنثى فكان كذلك، وحديث الصحيحين المتفق على صحته في عمر ﷺ أنه من المحدَّثين بفتح الدال، وكذلك ما صحَّ عنه أنه قال: يا سارية الجبل في حال خطبة في يوم الجمعة، فبلغ صوته إلى سارية، فكان لعمر ﷺ في ذلك كرامتان: إحداهما: ما كُشف له عن حال ساريةٍ وأصحابه المسلمين، وحال العدو، والثانية: بلوغ صوته إلى بلادٍ بعيدة.

والحديث المتفق على صحته في سعد وسعيد في إجابة دعوة كل واحدٍ منهما، والحديث الصحيح في البخاري في «خبيب» في قطف العنب الذي وجد في يده يأكله في غير أوان الثمر.

والحديث الصحيح حديث البخاري أيضًا في: أسيد بن حضير، وعبَّاد بن بشر الّذين خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلةٍ مظلمةٍ ومعهما مثل المصباحين بين أيديهما.

والحديث الصحيح: حديث الرجل الذي سمع صوتًا في السحاب يقول: اسقي حديقة فلان، وما جاء أن ابن عمر رضي الله عنهما قال للأسد الذي منع الناس الطريق: تنحَّ، فبصبص بذَنَبه وذهب، وما جاء أن رسول الله ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي، فحال بينهم وبين الموضع قطعةٌ من البحر، فدعا بالاسم الأعظم، ومشى على الماء.

وما جاء أنه كان مع سلمان وأبي الدرداء قصعةٌ فسبَّحت حتى سمعا التسبيح، وكذلك ما اشتهر أن عمران بن الحصين كان يسمع تسبيح الملائكة عليه حتى اكتوى، فانحبس عنه ذلك، ثم أعاده الله تعالى عليه.

والحديث الصحيح حديث مسلم قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسمَ على الله لأبرَّه**[1]».

قلت: ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكفى دليلاً.

وقد ورد عن السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المشايخ العارفين

(١) تقدم تخريجه.

والفقراء الصادقين وسائر الأولياء والصالحين من الكرامات المستفيضات، الصادرات عن العيان والمشاهدات، ما طَبَّقَ الآفاق، وملأ جميع البلاد، وعجزت الدفاتر عن اليسير منه في الحصر والتَّعداد، وأمَّا كثرة ظهور الكرامات واشتهارها بعد زمن الصحابة وزيادتها على ما كان في زمانهم فالجواب عن ذلك ما أجاب به الإمام أحمد لما قيل له: يا أبا عبد الله، إنَّ الصحابة لم يُروَ عنهم مثلما قد رُوي عن الأولياء والصالحين، فكيف هذا؟! فقال: أولئك كان إيمانهم قويًّا، فما احتاجوا إلى زيادة شيءٍ يتقوون به، وغيرهم كان إيمانهم ضعيفًا لم يبلغوا إيمان أولئك، فقووا بإظهار الكرامات.

وكذلك قال الشيخ شهاب الدين السهروردي: وخرق العادة إنما يكاشف به لموضع ضعف يقين المكاشف رحمةً من الله تعالى على عباده العبَّاد، وثوابًا معجَّلاً لهم، وفوق هؤلاء قومٌ ارتفعت الحجب من قلوبهم، وباشر بواطنهم نور اليقين، وصدق المعرفة، فلا حاجة لهم إلى مددٍ من المخرقات، ورؤية القدر والآيات، ولهذا ما نُقل عن أصحاب رسول الله ﷺ كثيرٌ من ذلك إلا القليل، ونُقل عن المتأخرين من المشايخ والصادقين أكثر؛ لأن أصحاب رسول الله ﷺ لبركة صحبة النبي ﷺ ومجاورة نزول الوحي وتردُّد الملائكة وهبوطها تنوَّرت بواطنهم، وعاينوا الآخرة، وزهدوا في الدنيا وتزكَّت نفوسهم، وانخلعت عاداتهم، وانصقلت مرايا قلوبهم، فاستغنوا بما أعطوا من رؤية الكرامة، واستماع أنوار القدرة.

قال اليافعي: وأيضًا فهذه الكرامات من الكشف وغيره أنوارٌ، والأنوار إنما يظهر حسن بهائها في الظلمة، فأما الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فكلُّهم أنوارٌ ليس فيهم ظلمةٌ؛ لتوهُّج ضياء شمس النبوة عليهم، وكمال محاسنهم، ثم أن الشمس إذا غربت تظهر الظلمة عقيب غروبها ولا تظهر إلا الكواكب الكبار، فكلما تغرب عن الأفق تكثر الظلمة، فتظهر سائر الكواكب إلى أن يظهر فجر الوعيد، وأيضًا الصحابة كانوا أهل حقٍّ، وسُنَّة، وطاعة، وعدلٍ، ومعروف، ثم ظهر بعدهم عكس ذلك من الباطل والبِدَع، والمعاصي، والظلم، والمنكر، فبثَّ الله تعالى في سائر البلدان رجالاً قلَّدهم سيوفًا ماضيات تقطع أعناق المنكرين عليهم.

والحاصل أنه قد علمت أنهم قد اتفقوا على أن الفارق بين الكرامة والمعجزة هو تحدي النبوة فقط، ولم يشترط أحدٌ منهم لكون الكرامة دون المعجزة في جنسها وعظمها، فدلَّ ذلك على جواز استوائهما فيما عدا التحدي المذكور، ويشهد لصحة هذا القول قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**لو أقسمَ على الله لأبرَّه**[1]».

فإن الإبرار المذكور عامٌّ في كل مقسَمٍ فيه، ثم إن وقوع ذلك من كثيرٍ من الأولياء أعني عظام الكرامات خارجٌ عن الحصر، وها أنا أقتصر في التنبيه على ذلك بذكر عشرة أنواع:

النوع الأول: إحياء الموتى: روى القشيري بإسناده في رسالته: أن أبا عبيد البسري غزا سنةً من السنين، فخرج في البرية، فمات المهر الذي كان تحته وهو في البرية، فقال: يا ربِّ، أعرناه حتى نرجع إلى بسر: يعني قرينه، فإذا المهر قائمٌ، فلمَّا غزا ورجع إلى بشر، قال لابنه: يا بني، خذ السرج من المهر، قال ابنه: فقلت له: إنه عَرِق فإذا أخذت السرج دَاخلهُ الريح، فقال: يا بني، إنه عاريةٌ، قال: فلما أخذت السرج وقع المهر.

وروى أيضًا بإسناده في رسالته: أنه انطلق رجلٌ من اليمن، فلمَّا كان في بعض الطريق نفض حماره، فقام فتوضأ، ثم صلَّى ركعتين، ثم قال: اللّهُمَّ إني جئت مجاهدًا في سبيلك ابتغاء مرضاتك، وإني أشهد أنك تُحيي الموتى، وأنك تبعث مَنْ في القبور، ولا تجعل لأحدٍ عليَّ مِنَّةً اليوم، أطلب منك أن تبعث حماري، فقام الحمار ينفض أذنيه، وقد نقل هذا عن الإمام الشعبي أيضًا.

وروى أيضًا بإسناده فيها أن محمَّد بن سعيد البصري قال: بينما أنا أمشي في طرق البصرة إذ رأيتُ أعرابيًّا يسوق جملاً، فالتفتُّ فإذا الجمل وقع ميتًا، ووقع الرحل والقتب، فمشيت ثم التفتُّ فإذا الأعرابي يقول: يا مسبِّب كل سبب، ويا مأمول من طلبه رُدَّ عليَّ ما ذهب، وحمِلِ الرحل القتب، فإذا الجملُ قائمٌ، والرحل والقتب فوقه.

وروى أيضًا بإسناده فيها إلى الشيخ سهل بن عبد الله التستري أنه قال:

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٢/٣)، ومسلم (١٣٠٢/٣).

الذّاكر لله على الحقيقة لو همَّ أن يحيي الموتى لفعل بإذن الله تعالى، ومسح يده على عليلٍ بين يديه فبرأ وقام.

وكان الشيخ مفرّج الدماميلي عبدًا حبشيًّا اصطفاه الله تعالى، ولما تكاثرت كراماته أحضرت عنده فراخٌ مشويةٌ، قال لها: طيري، فطارت أحياءً بإذن الله تعالى.

ومن المشهور ما روي سندًا في كتاب «**مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني**» قُدِّس سرُّه من خمسة طرقٍ عن جماعةٍ من الشيوخ الأجلاّء قالوا:

جاءت إليه امرأةٌ بولدها، وقالت له: إني رأيت قلب ابني هذا شديد التعلق بك، وقد خرَّجتُ من حقي فيه لله سبحانه وتعالى ولك، فقبَّله الشيخ، وأمره بالمجاهدة وسلوك الطريق، فدخلت أمه عليه يومًا فوجدته نحيلاً مصفرًا من آثار الجوع والسهر، ووجدته يأكل قرصًا من شعير، فدخلت على الشيخ، فوجدت بين يديه إناءً فيه عظام دجاجةٍ مسلوقةٍ قد أكلها، فقالت: يا سيدي، تأكل لحم الدجاج ويأكل ابني خبز الشعير. فوضع يده على تلك العظام، وقال: قومي بإذن الله تعالى الذي يحيي العظام وهي رميمٌ، فقامت دجاجةً سويَّةً، وصاحت، فقال الشيخ: إذا صار ابنك هكذا فليأكل ما شاء.

قالوا: ومرَّت على مجلسه حدأةٌ طائرةٌ في يومٍ شديد الريح، فصاحت، فشوشت على الحاضرين، فقال: يا ريح، خذي رأس هذه الحدأة، فوقعت لوقتها في ناحيةٍ ورأسها في ناحية، فنــزل الشيخ من الكرسي، وأخذها في يديه وأمرَّ يده الأخرى عليها، وقال: بسم الله الرحمن الرحيم فحييت وطارت والناس يشاهدون ذلك.

قلت: فإحياء الله تعالى الموتى كرامةً لهم، فهو وإن كان عظيمًا فهو جائزٌ كما قدَّمنا عن الأئمة أن ما جاز أن يكون معجزةً لنبيٍّ جاز أن يكون كرامةً لوليٍّ بشرط ألا يدَّعي النبوة.

النوع الثاني: كلام الموتى:

قال اليافعي: أخبرني بعض الشيوخ الصالحين من أهل اليمن عن الفقيه إسماعيل الحضرمي أنه مرَّ يومًا على مقبرةٍ ومعه ناسٌ كثيرون، فبكى بكاءً شديدًا ثم ضحك في

الحال، فسُئلَ عن ذلك؟ فقال: رأيتُ أهل هذه المقبرة يُعذَّبون، فحزنت لذلك، ثم سألتُ الله ﷻ أن يُشفِّعني فيهم، فشفَّعني، فقالت صاحبة هذا القبر وأشار إلى قبرٍ قريب العهد بالحفر: وأنا معهم يا فقيه إسماعيل، أنا فلانة المغنِّيَّة. فضحكتُ، وقلت: أنتِ معهم، ثم أرسل إلى الحفَّار، وقال له هذا قبر مَنْ؟ فقال: قبر فلانة المغنِّيَّة.

وروى القشيري أن الشيخ أبا سعيد الخرَّاز قال: كنتُ مجاورًا بمكة، فجزتُ يومًا بباب بني شيبة، فرأيت شابًّا حسن الوجه ميتًا، فنظرت في وجهه، فتبسَّم، وقال لي: يا أبا سعيد، ما علمت أن الأحياء أحياءٌ وإن ماتوا، وإنما يُنقلون من دارٍ إلى دارٍ.

ومن المشهور ما رُوي مسندًا من ثلاثة طرقٍ عن جماعةٍ من الشيوخ الأكابر في كتاب «مناقب الشيخ عبد القادر»، قالوا:

زار شيخنا محيي الدين عبد القادر الكيلاني الشونيزي يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذي الحجة سنة تسعٍ وخمسمائة ومعه جمعٌ كثيرٌ من الفقهاء والفقراء، ووقف عند قبر الشيخ حمَّاد الدبَّاس زمنًا طويلاً حتى اشتدَّ الحرُّ والناس واقفون خلفه، ثم انصرف والسرور بَيِّنٌ في وجهه، فسُئل عن سبب طول قيامه؟ فقال: كنت خرجت من بغداد في يوم الجمعة منتصف شعبان سنة تسعٍ وتسعين وأربعمائة مع جماعةٍ من أصحاب الشيخ حمَّاد لنصلي الجمعة في جامع «الرصافة» والشيخ معنا، فلمَّا كنَّا عند قنطرة النهر دفعني، فرمى بي في الماء وكان في شدة البرد في كوانين، فقلت: بسم الله غسل الجمعة، وكان عليَّ جبةٌ صوف، وفي كمي أجزاءٌ، فرفعت يدي لئلا تبتل وتركوني وانصرفوا، وخرجت من الماء، وعصرت الجبة وتبعتهم وقد تأذَّيت بالبرد أذىً كثيرًا، فطمع فيَّ أصحابه، فنهرَهم وقال: إنما أوذيه لأمتحنه فأراه جبلاً لا يتحرك، وإني رأيته اليوم في قبره وعليه حلةٌ من جوهرٍ، وعلى رأسه تاجٌ من ياقوتٍ، وفي يده أساور من ذهبٍ، وفي رجليه نعلان من ذهبٍ، ويده اليمنى لا تطيعه، فقلت: ما هذا؟ قال: هذه اليد التي رميتك فهل أنت غافرٌ لي ذلك؟ قلت: نعم، قال: فاسأل الله تعالى أن يردَّها عليَّ. فوقفت أسأل الله تعالى في ذلك، وقام خمسة آلاف وليٌّ من أولياء الله تعالى في قبورهم يسألون الله ﷻ أن يقبل مسألتي فيه، ويشفعون عندي في تمام المسألة، فما زلت أسأل الله ﷻ في مقامي ذلك حتى ردَّ الله تعالى يده، وصافحني بها وقد تمَّ سروره.

قالوا: فلمَّا اشتهر هذا القول في بغداد اجتمع المشايخ والصوفية من أهل بغداد من أصحاب الشيخ حمَّاد؛ ليطالبوا الشيخ عبد القادر بتحقيق ما قاله في الشيخ حمَّاد، وتبعهم خلقٌ كثيرٌ من الفقراء، وأتوا إلى المدرسة فلم يتكلم منهم أحدٌ إجلالاً للشيخ، فبدأهم بمرادهم، وقال لهم: اختاروا رجلين من المشايخ يتبين لكم ما ذكرته على لسانهما، فأجمعوا على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني، وكان يومئذ قد ورد إلى بغداد والشيخ أبي محمد عبد الرحمن بن شعيب الكردي وكان مقيمًا ببغداد، وكان من ذوي الكشف الخارق والأحوال الفاخرة، وقالوا له: أمهلناك في بيان ذلك على لسانهما جمعةً. فقال لهم: بل ما تقومون مِنْ مقامكم هذا حتى يتحقق لكم الأمر، وأطرق وأطرقوا، فصاح الفقراء من خارج المدرسة، وإذا بالشيخ يوسف قد جاء حافيًا يشتد في عدوه حتى دخل المدرسة، وقال: أشهدني الله ﷻ ساعة الشيخ حمَّاد لو قال لي يا يوسف أسرع إلى مدرسة الشيخ عبد القادر وقل للمشايخ الذين فيها: صَدَقَ الشيخ عبد القادر فيما أخبر به عني فلم يتمَّ كلامه الشيخ يوسف حتى جاء الشيخ عبد الرحمن بن شعيب، وقال مثل قول الشيخ يوسف، فقام المشايخ كلهم يستغفرون للشيخ عبد القادر قدَّس الله تعالى روحه.

قال الإمام عبد الله بن أسعد اليافعي في كتابه «نشر المحاسن»: أخبرني بعض الأخيار عن بعض الصالحين أنه يأتي قبر والده في بعض الأوقات ويتحدث معه.

ومن المشهور أن الشيخ الكبير أحمد بن موسى بن عجيل سمعه بعض الفقهاء الصلحاء من قرابته يقرأ في سورة النور في قبره.

قال: وروينا أن الشيخ نجم الدين الأصبهاني طَلَعَ مع جنازة بعض الصالحين، فلمَّا جَلَسَ بعض الناس من أهل العلم يُلقِّن الميت ضحك الشيخ نجم الدين ولم يكن الضحك عادته، فسُئل عن ذلك؟ فقال: سمعت صاحب القبر يقول: أما تعجبون من ميتٍ يُلقِّن حيًّا وغير ذلك مما يطول ذكره من كلام الموتى للأولياء.

النوع الثالث: انغلاق البحر وجفافه: من ذلك ما رُوي أنه مات بعض الفقراء في سفينة، قال الراوي: فأردنا إلقاءه في البحر، فرأيت البحر قد انشقَّ نصفين، ونزلت السفينة إلى الأرض، فخرجنا وحفرنا له قبرًا ودفناه فيه، فلمَّا فرغنا استوى الماء، وارتفعت السفينة وسرنا.

روى القشيري رحمه الله تعالى في رسالته عن بعضهم قال: كنَّا في مركبٍ فمات رجلٌ عليلٌ كان معنا، فأخذنا في جهازه، وأردنا أن نلقيه في البحر، وسار البحر جافًّا، ونزلت السفينة فخرجنا، وحفرنا له قبرًا، ودفنَّاه، فلمَّا استوى الماء وارتفع المركب سرنا.

النوع الرابع: انقلاب الأعيان: اعلم أن هذا النوع مما كثر وقوعه لهم واشتهر عنهم، كانقلاب الحصى جواهر وذهبًا لكثيرٍ منهم، وانقلاب ماء البحر عذبًا، ولبعضهم سمنًا، ولبعضهم مع الرمل سُويقًا وسكرًا، ولبعضهم الحطب ذهبًا، وغير ذلك مما يتعذَّر حصره، وهذه الأشياء مشهورةٌ مذكورةٌ في الكتب المشتملة على بعض كرامات الأولياء كالرسالة وغيرها، وأعجب من ذلك انقلاب الخمر سمنًا، كما روي عن الشيخ عيسى المعروف بالهتَّار اليمني: أنه مرَّ على امرأةٍ بغيٍّ، فقال لها: بعد العشاء آتيك، ففرحت بذلك، وتزيَّنت، فلمَّا كان بعد العشاء دخل عليها البيت فصلَّى ركعتين ثم خرج.

فقالت: أراك خرجت. فقال: المقصود حصل، فورد عليها واردًا أزعجها عمَّا كانت عليه، وخرجت بعد الشيخ وتابت على يديه، فزَوَّجها من بعض الفقراء.

وقال: اعملوا الوليمة عصيدةً، ولا تشتروا لها أدامًا، ففعلوا ذلك، وأحضروه، وحضر الفقراء والشيخ معهم كالمنتظر لشيءٍ يُؤتى به، فوصل الخبر إلى أمير تلك البلدة، فأخرج قارورتين مملوءتين خمرًا، وأرسل بهما إلى الشيخ، وأراد أن يستهزئ بالفقراء ويفضحهم، وقال للرسول: قل للشيخ: قد سرَّني ما سمعت، وبلغني أنه ما عندكم أدامٌ فخذوا هذا فآدموا به، فلمَّا أقبل الرسول قال له الشيخ: أبطأت، ثم تناول إحداهما فخاضها، ثم صبَّها، ثم كذلك الأخرى، ثم قال للرسول: اجلس فكُل، فأكل فطعم سمنًا لم يرَ مثله طعمًا، وريحًا، ولونًا، ورجع وأخبر الأمير بذلك، فجاء الأمير فأكل، وتحيَّر مما رأى، فتاب أيضًا على يد الشيخ، والحمد لله الذي جعل هؤلاء السادة سببًا للسعادة.

وأعظم من ذلك ما رواه اليافعي في نشر المحاسن عن جماعةٍ من الصالحين.

رُوي عن بعض الأولياء أنه طلب بعض الناس يدعو له إلى الله تعالى أن يرزقه ولدًا ذكرًا، فقال له: إن أحببت ذلك فسلِّم للفقراء مائة دينارٍ. فسلَّم إليه ذلك، ثم جاءه بعد ذلك بمدةٍ، وقال له: يا سيدي، وعدتَّني بولدٍ ذكرٍ وما وضعت امرأتي إلا أنثى.

فقال له الشيخ: الدنانير التي سلمتها ناقصةٌ. قال: يا سيدي، ما هي ناقصةٌ إلا شيئًا يسيرًا. فقال له الشيخ: ونحن أيضًا ما نقصناك إلا شيئًا يسيرًا، فإن أحببت أن نوفّي لك فأوفِ لنا. قال: نعم يا سيدي، ثم ذهب وعاد إليه بتوفية ذلك النقصان.

فقال له الشيخ: اذهب فقد أوفينا لك كما أوفيت، فرجع إلى منــزله، فوجد الولد غلامًا بقدرة الله تعالى وإكرامه للأولياء.

ومن ذلك ما رُوي مسندًا في كتاب «مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني» أنه خرج يومًا لصلاة الجمعة، فمرَّ به في الطريق ثلاثة أحمالٍ خمرًا للسلطان قد فاحت رائحتها واشتدت، ومعها صاحب الشرطة وأعوان الديوان، فقال لهم الشيخ: قفوا. فلم يفعلوا، وأسرعوا في سوق الدواب.

فقال الشيخ للدواب: قفي. فوقفت مكانها كأنها جماداتٌ، فضربوها ضربًا عنيفًا فلم تتحرك من مواضعها، وأخذهم كلهم القولنج، وجعلوا يتقلّبون على الأرض يمينًا وشمالاً من شدة الْمَهَمّ، وضجُّوا بالشيخ، وأعلنوا بالتوبة والاستغفار، فزال عنهم المهم، وانقلبت رائحة الخمر برائحة الخل، ففتحوا الأواني فإذا هي خلٌّ ومشت، فَعلتْ أصوات الناس بالضجيج، وذهب الشيخ إلى الجامع، وانتهى الخبر إلى السلطان، فبكى رعبًا، وارتدع من فعلِ كثيرٍ من المحرَّمات، وجاء إلى الشيخ زائرًا، وكان بعد ذلك يجلس بين يديه متواضعًا متصاغرًا.

وعن بعضهم قال: بينما أنا أسير في فلاةٍ من الأرض إذ برجلٍ يدور حول شجرة شوكٍ، ويأكل منها رطبًا، فسلَّمت عليه، فقال: وعليك السلام تقدَّم وكُلْ.

فتقدَّمت للشجرة، فكلَّما أخذت منها رطبًا عاد شوكًا فتبسَّم الرجل، وقال: هيهات لو أطعتهُ في الخلوات أطعمك الرطب في الفلوات.

النوع الخامس: عِلْمُهم ببعض الحوادث قبل وجودها، والاطِّلاع على ضمائر الخلق:

وأما قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ**

ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦،٢٧]، فقد قال الإمام ناصر الدين البيضاوي، واستدلَّ به على إبطال الكرامات، وجوابه تخصيص الرسول بالملك والإظهار بما يكون بغير وسط، وكرامات الأولياء على المغيبات إنما تكون تلقِّيًا عن الملائكة كاطِّلاعنا على أحوال الآخرة بتوسط الأنبياء عليهم السلام: يعني أن الله سبحانه وتعالى يظهر الغيب على الملك، والملك على الأنبياء وعلى الأولياء.

قال الإمام مظهر الدين: وقد تستفيد الأولياء من أرواح الأنبياء، وأما أصحاب الأنبياء من ألسنتهم فظاهرٌ انتهى.

وسُئل الإمام اليافعي هل يكفر من قال: المؤمن يعلم الغيب أم لا؟ فقال: أقول وبالله التوفيق لا يستعجل بتكفيرِ من قال المؤمن يعلم الغيب حتى يُسئل ماذا أراد بالمؤمن وبالعلم وبالغيب؟ فإن أراد بالمؤمن المؤمن الخاص وهو الولي دون المؤمن العام وهو كل مؤمنٍ وبالعلم بأنه يعلم بإعلام الله تعالى له لا يعلمه بنفسه استقلالاً وبالغيب بعض الغيوب لا جميعها فإنه لا يكفر بذلك؛ لأنه جائزٌ في كرامات الأولياء بل واقعٌ.

وقد دلَّ على جوازه العقل، وشهد بوقوعه النقل.

أمَّا العقل: فلأن ذلك ليس بمستحيلٍ في قدرة الله تعالى؛ بل هو من قبيل الممكنات ولا قادح في معجزات الأنبياء، وقدَّمنا أنه لا فرق بين الكرامات والمعجزات إلا دعوة النبوة.

وأمَّا النقل: فهو خارجٌ عن الحصر؛ إذ لا يمكن تعداد ما نُقل عن الأولياء من الكشف في كل عصرٍ ومهرٍ، ولو أمكن جمع ما وقع لهم من المكاشفات في جميع الأشياء في كل زمانٍ ومكانٍ لاحتيجَ في ذلك إلى كتبٍ يطول عدُّها، ويتعذَّر حصرها، فكيف يحصر المكتوب فيها؟ فليس يمكن جميع ذلك، ولا يقدر أحدٌ يحصيه إلا الله تعالى.

ويكفي من ذلك ما أخبر الله ﷻ عن الخضر عليه السلام مع موسى عليه السلام مع كون الخضر وليًا لا نبيًا عند جمهور العلماء، وعند جميع العارفين بالله تعالى، وكذلك ما قدَّمناه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيما كُشف له من حال الحمل في بطن امرأته، وما كشف لعمر رضي الله عنه من حال سارية ومن معه من المسلمين، وحال العدو وما أخبر عنه ﷺ من كونه من المحدَّثين.

وما ورد عن السلف والخلف مما رواه خلائق في كتب الحقائق والرقائق، وصحَّت به الروايات، وأخبر به الأولياء والعلماء والثقات، فمن ذلك:

ما رواهُ القشيري عن الشيخ أبي يعقوب السوسيِّ؟ قال: جاءني مزيد مكة، فقال: يا أستاذنا، غدًا أموت وقت الظهر، فخذ هذا الدينار فاحفر لي بنصفه، وكفنّي بالنصف الآخر.

ثم لما كان الغد وقت الظهر جاء، وطاف، ثم تباعد، ومات فغسلتهُ، ووضعتهُ في اللحد، ففتح عينيه، فقلت أحياةٌ بعد موت، فقال: أنا حيٌّ وكل محبٌّ لله حيٌّ.

وقال أبو سعيد الخرَّاز: دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيرًا عليه خرقتان يسأل شيئًا فقلت في نفسي: مثل هذا كَلٌّ على الناس، فنظر إليَّ وقال: واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه، قال: فاستغفرت الله تعالى في نفسي، فناداني وهو الذي يقبل التوبة عن عباده.

وقال خير النَّساج: كنت جالسًا في بيتي فوقع لي أن الجنيد بالباب فنفيت عن قلبي، فوقع ثانيًا وثالثًا، فخرجت فإذا أنا بالجنيد، فقال: لِمَ لم تخرج مع الخاطر الأول؟.

وقال أبو العباس بن مسروق: دخلتُ على شيخٍ من أصحابنا أعوده فوجدته على حالة رثَّة، فقلت في نفسي: من أين يرتفق هذا؟ فقال: يا أبا العباس دع عنك هذه الخواطر الدنيَّة؛ فإن لله ألطافًا خفيَّةً.

وعن الشيخ أبي عبد الله القرشي قال: هجم أهل الشرك ببلاد الأندلس على قرية من قُراها فدخلوها في غِرة، فشقَّ على أهلها، وأخذوا في طريقهم أسارى عديدةً فانزعج أهل الأندلس لذلك، وبلغ الخبر أن الأسارى يُرمى لهم الحشيش مع الخيل وهم مكتوفون فيأكلون بأفواههم كما ترعى البهائم.

قال: فبت في بعض تلك الليالي عند الشيخ أبي إسحاق بن ظريف، فوضع الطعام بيننا ثم تنفس بعد أن قال: بسم الله، ثم قال: يا محمدُ، أما بلَغكَ ما طرأ على المسلمين. فقلت: نعم. فجعل يقصُّ الخبر، ويبكي حتى علا بكاؤه، ثم قال: والله لا أكلت طعامًا ولا شربت

شرابًا حتى يفرِّج الله تعالى عن المسلمين، ثم اعتزل عن الطعام، ثم جلس ساعةً فسمعته يقول: الحمد لله، ثم دنا إلى الطعام، وقال: كُلْ. فأكلت معه وعجبت منه كيف تَركَهُ ثم عاد إليه بعد قَسمه في ساعة! ثم أن الخبر وصل إلينا بعد ذلك أن الوقت الذي تكلم فيه الشيخ صادف أن النصارى سمعوا رجفةً عظيمةً اعتقدوا أن معسكر المسلمين دهمهم، فركبوا خيولهم، ونجوا بأنفسهم، وتركوا الغنيمة والأسارى، فخلَّص الله المسلمين.

وقال الشيخ أبو زيد القرطبي: سمعت في بعض الآثار أن من قال: لا إله إلا الله سبعين مرةً كانت فداؤه من النار، فعملت ذلك لبركة الوعد، وعلَّمت منها لأهلي، وعملت منها أعمالاً ادخرتها لنفسي، وكان إذ ذاك يبيت معنا شابٌّ يقال أنه يُكاشف في بعض الأوقات بالجنَّة والنَّار، وكانت الجماعة ترى له فضلاً على صغر سنه، وكان في قلبي منه شيءٌ، فاتفق أنه استدعانا بعض الأخوان إلى منـزله فنحن نتناول الطعام والشاب معنا؛ إذ صاح صيحةً منكرةً، واجتمع في نفسه وهو يقول: يا عمُّ، هذه أمي في النار وهو يصيح بصياحٍ عظيمٍ لا يشكُّ من سمعه أنه عن أمرٍ، فلمَّا رأيتُ ما به من الانزعاج قلت في نفسي: اليوم أجري صدقه، فقلت في نفسي: إن كان الأثر حقًّا.

والذين رووه لنا صادقون أن السبعين ألفًا فداء هذه الامرأة أمِّ هذا الشاب فما استتممت الخاطر في نفسي إلى أن قال: يا عمُّ، ها هي أُخرجت الحمد لله الحمد لله. فحصلت لي فائدتين: إيماني بصدق الأثر، وسلامتي من الشاب، وعلمي بصدقه.

وذكر الشيخ شهاب الدين في كتابه «العوارف»:

إن الشيخ عبد القادر الكيلاني بعث إلى شخصٍ، وقال لفلان: عندك طعامٌ وذهبٌ، أئتني من الذهب بكذا، ومن الطعام بكذا. فقال الرجل: كيف أتصرف فى وديعة عندي ولو أستفتيك ما أفتيتني في التصرف. فألزمه الشيخ بذلك، فأحسن الظن بالشيخ، وجاء إليه بالذي طلب، فلمَّا وقع التصرف منه جاءه مكتوبٌ من صاحب الوديعة وهو غائبٌ في بعض نواحي العراق أن حُملَ إلى الشيخ عبد القادر كذا وكذا القدر الذي عيَّنه الشيخ عبد القادر، فعاتبه الشيخ بعد ذلك على توقُّفه، وقال: ظننت بالفقراء أن إشارتهم تكون على غير صحةٍ وعلمٍ.

وروى سندًا من ثلاث عن جماعة من الشيوخ في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر: أنه أرسل إليه بعض الشيوخ جماعةً من أصحابه، وقال لهم: اذهبوا إلى بغداد، وقولوا للشيخ عبد القادر: يُسلِّم عليك عبد الرحمن، ويقول لك: إن له أربعين سنةً في دركات باب القدرة فما رآك تمرُّ لا داخلاً ولا خارجًا.

فقال الشيخ عبد القادر في ذلك الوقت لجماعة من أصحابه: اذهبوا إلى الشيخ عبد الرحمن، وستجدون في طريقكم جماعةً من أصحابه بعثهم إليَّ بكذا وكذا، فإذا لقيتموهم فردُّوهم معكم، فإذا أتيتموه فقولوا: يسلِّم عليك عبد القادر، ويقول لك: أنت في الدركات، ومَنْ هو في الدركات لا يرى من في الحضرة، ومَنْ هو في الحضرة لا يرى من في المخدع، وأنا في المخدع أدخل وأخرج من باب الشر من حيث لا تراني بأمارة أن أخرجت لك الخلعة الفلانية في الوقت الفلاني على يدي وهي خلعة الرضا، وبأمارة خروج التشريف الفلاني لك على يدي وهو تشريف الفتح، وبأمارة أن خلع عليك في الدركات بمحضِ اثنا عشر ألف وليٍّ لله خلعة الولاية وهي فرجيَّة خضراء طرازها سورة الإخلاص على يدي خرجت لك. فانتهوا إلى نصف الطريق، فوجدوا أصحاب الشيخ عبد الرحمن فردوهم، وأتوا إليه، وبلَّغوا رسالة الشيخ عبد القادر، فقال: صَدَقَ الشيخ عبد القادر سلطان الوقت وصاحب التصريف فيه.

وفي كتاب «نشر المحاسن» عن الشيخ أبي الغيث اليافعي اليمني:

أنه قال له الفقراء ذات يومٍ: تشتهي اللحم.

فقال لهم: اصبروا إلى اليوم الفلاني، وكان يوم سوقٍ تأتيه القوافل فلمَّا جاء ذلك اليوم جاء الخبر أن قطَّاعَ الطريق أخذوا القافلة، ثم جاء بعض القطَّاع الحرامية بحَبٍّ، وجاء آخر منهم بثورٍ.

فقال الشيخ للفقراء: تصرَّفوا فيه وخلُّوا رأس الثور على حاله. فتصرَّفوا، وأحضروا العيش، فدعاهم الفقراء إلى الأكل، فامتنعوا.

فقال الشيخ للفقراء: كلوا، الفقهاء ما يأكلون الحرام.

فلمَّا فرغوا من الأكل جاء إنسانٌ إلى الشيخ، وقال: يا سيدي، نذرتُ للفقراء كذا وكذا من الحبِّ فأخذه الحرامية. وجاء آخر أيضًا، وقال: نذرتُ للفقراء ثورًا فنُهب. فقال لهم الشيخ: قد وصل إلى الفقراء متاعهم.

وقال لصاحب الثور: تعرف ثورك إذا رأيت رأسه، قال: نعم.

فأمر الفقراء بإحضاره، فلما رآه قال هذا رأس ثوري بعينه، فَبقي الفقهاء يضربون يدًا على يدٍ ندمًا على ترك مرافقة الفقراء.

ومن اطلاع الله تعالى لهم على ما يشاء في الحوادث قبل وقوعها:

ما رُوي سندًا في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر: قال بعض أصحابه:

كنت أشتغل على سيدي الشيخ محيي الدين عبد القادر الكيلاني، وكنت أسهر أكثر الليل أترقَّب حاجته، فخرج من داره ليلةً، فناولتهُ إبريقًا فلم يأخذه، وقصد باب المدرسة، فانفتح له الباب، فخرج وخرجت خلفه، ومشى إلى أن قرُب من باب بغداد، فانفتح له الباب، فخرج وخرجت معه ثم عاد الباب مغلقًا، ومشى غير بعيدٍ، فإذا نحن في بلدٍ لا أعرفه، فدخل فيه مكانًا شبيهًا بالرباط، وإذا فيه ستة نفرٍ فبادروا إلى السَّلام عليه، والتجأت إلى ساريةٍ هناك، وسمعت من جانب ذلك المكان أنينًا فلم نلبث إلا يسيرًا حتى سكت الأنين.

ودخل رجلٌ وذهب إلى الجهة التي سمعت منها الأنين، ثم خرج يحمل شخصًا على عاتقه، ودخل آخر مكشوف الرأس طويل شعر الشارب، وَجَلَسَ بين يدي الشيخ فأخذ عليه الشهادتين، وقصَّ شعر رأسه وشاربه وألبسه طاقيةً، وسمَّاهُ محمدًا، وقال لأولئك النفر: قد أمرت أن يكون هذا بدلاً عن الميت.

فقالوا: سمعًا وطاعةً. ثم خرج الشيخ وتركهم وخرجت خلفه، ومشينا غير بعيدٍ، وإذا نحن عند باب بغداد، فانفتح كأوَّل مرةٍ، ثم أتى إلى المدرسة، فانفتح بابها أيضًا، ودخل داره، فلمَّا كان الغد جلستُ بين يديه أقرأ على عادتي فلم أستطع من هيبته، فقال لي: أي بنيَّ اقرأ ولا عليك.

فأقسمت له أن يبّين لي ما رأيت، فقال: أما البلد «فنهاوند».

وأما الستة فهم الأبدال، وصاحب الأنين سابعهم كان مريضًا فلمَّا حَضُرتْ وفاته جئت أحضرهُ، وأما الرجل الذي خرج يحمل شخصًا فأبو العباس الخضر ذهب به ليتولى أمره، وأما الرجل الذي أخذت عليه الشهادتين فرجلٌ من أهل القسطنطينية كان نصرانيًّا، وأمرت أن يكون بدلاً عن المتوفى، فأتى به، فأسلم على يدي وهو الآن منهم، وأخذ عليَّ ألا أُحدِّث بذلك أحدًا وهو حيٌّ.

وقد أخبر خلائق منهم بموتهم وموت كثيرٍ من الناس في أزمنةٍ وأمكنةٍ معيَّناتٍ وبأشياء تقع بعد موتهم، فوقع جميع ذلك على وفق ما أخبروا.

فمن ذلك ما رُوي أن الشيخ أبا الغيث اليمني وَقَفتْ بين يديه مغنيةٌ، فغُشي عليها، ووقعت، فلمَّا أفاقت طلبت التوبة وصحبة الفقراء، وكانت من المترفات وأهل الرعونات، فقال لها الشيخ: إنَّا نذبحك أتصبرين على الذبح؟ فقالت: نعم. فأمرها أن تسقي الماء للفقراء، فمكثت ستة أشهرٍ تحمل الماء على ظهرها قد تبذَّلت وتبدَّلت عن حالها الأول، ثم قالت للشيخ: إني قد اشتقتُّ لربي. فقال الشيخ: يوم الخميس تلقين ربك. فماتت يوم الخميس.

وعن الشيخ إسماعيل الحضرمي أنه قال: أنا أموت في الضحى «بفتح الضاد المعجمة والحاء المهملة»، موضعٌ في اليمن، فمات وتقدَّمت الحكاية عن الفقير الذي قال: أنا غدًا أموت وقت الظهر.

وقال بعضهم: صحبتُ خير النسَّاج، فقال لي قبل موته بثمانية أيامٍ: أنا أموت يوم الخميس وقت المغرب، وأُدفن يوم الجمعة قبل الصلاة، وستنسى هذا.

قال: فنسيته إلى يوم الجمعة، فلقيني من أخبرني بموته، فخرجت لأحضر جنازته فوجدت الجنازة قد أخرجت قبل الصلاة كما ذكر.

وعن الشيخ سهل بن عبد الله التســتري قال: مات شاه بن شجاع الكرماني في وقت توقيت موته.

وغير ذلك مما هو خارجٌ عن الحصر.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]: أي المتفرِّسين.

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**اتَّقوا فِراسة المؤمنِ؛ فإنَّه ينظرُ بنورِ الله**[١]».

وعن القشيري: أن الجنيد وقف عليه غلامٌ نصرانيٌّ متنكرًا وهو يتكلم على الناس في الجامع، فقال: أيها الشيخ، ما معنى قول النبي ﷺ: «**اتَّقوا فراسةَ المؤمن؛ فإنَّه ينظرُ بنور الله**»؟ فأطرق الجنيد، ثم رفع رأسه، ثم قال: أسلم؛ فقد حانَ وقت إسلامك. فأسلم الغلام[٢].

وسُئل بعضهم عن الفراسة؟ فقال: أرواحٌ تتقلب في الملكوت، فتشرف على معاني الغيوب، فتنطق عن أسرار الخَلق نطق مشاهدةٍ وعِيانٍ لا نطق ظنٍّ وحسبانٍ.

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي: العالم مَنْ نطق عن سرِّك، واطَّلع على عواقب أمرك.

وقال أيضًا: الولي يرى الأشياء من وراء حجاب الشرع.

وجميع هذه الأقوال مما رويناهم عنهم مشهورةٌ مرويَّةٌ عند أهل العلم في تصانيف مشهورةٍ كالرسالة وغيرها، وليس القصد حصر ما قاله الشيوخ في ذلك ولا ما وقع له منه، فإن ذلك مما لا سبيل إلى نزف بحره التَّيار العميق الزخار، وإنما القصد التنبيه على ذلك مع أنه لا حاجة أيضًا إلى التنبيه عليه؛ فقد قام البرهان القطعي على جواز كرامات الأولياء من حيث الجملة، وهذا من جملتها، وقد تقدَّم الدليل على جواز بلوغ الكرامة مبلغ المعجزة في جنسها وعظمها.

---

(١) رواه الترمذي (٢٩٨/٥)، والطبراني في الكبير (١٠٢/٨)، وفي الأوسط (٢٣/٨).

(٢) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١١٤/١٢)، وطبقات الأولياء لابن الملقن (ص١٢٨)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٣٧٣/١)، والوافي بالوفيات للصفدي (ص١٥٥٦)، وروض الرياحين لليافعي (ص١١٣)، وروضة الحبور لابن الأطعاني (ص١١٠)؛ وكتابنا الإمام الجنيد (ص١٧٩)، وتاريخ بغداد (٢٤٢/٧)، وشذرات الذهب لابن العماد (٢٢٨/٢).

النوع السادس: طي الأرض لهم من غير حركةٍ منهم:

من ذلك ما رُوي أن بعضهم كان في جامع «طرسوس» فاشتاق إلى زيارة الحرم، فأدخل رأسه في جيبه ثم أخرجه وهو في الحرم.

وكذلك اجتمع جماعةٌ في بعض البلدان البعيدة في يوم عرفة، فاغتسلوا، وصلُّوا، وأحرموا، ثم سجدوا، ومكثوا فيها ما شاء الله تعالى، ثم رفعوا رؤوسهم وإذا هم ينظرون الجمال سائرةً من مِنًى إلى عرفات.

وعن الشيخ سهل بن عبد الله التستري قال:

توضأتُ في يوم الجمعة، فمضيتُ إلى الجامع في أيام البداية، فوجدته قد امتلأ بالناس وهمَّ الخطيب أنا يرقى المنبر، فأسأت الأدب، ولم أزل أتخطى رقاب الناس حتى وصلت إلى الصف الأول، فجلستُ وإذا عن يميني شابٌّ حسن المظهر طيب الرائحة عليه أطمار الصوف، فلمَّا نظر إليَّ قال: كيف تجدك يا سهل؟ فقلت: بخيرٍ أصلحك الله، وبقيتُ متفكِّرًا في معرفته، وأنا لم أعرفه، فبينما أنا كذلك إذ أخذني حذقان بول فأكربني، فبقيت على وجلٍ خوفًا أن أتخطى رقاب الناس، وإن جلست لم يكن لي صلاةٌ، فالتفتَ إليَّ وقال: يا سهل أخذك حذقان بولٍ. فقلت: أجل. فنـــزعَ إحرامه من منكبه، فغشاني به، ثم قال: اقضِ حاجتك وأسرع تلحق الصلاة.

قال: فأغمي عليَّ، وفتحت عيني فإذا بباب مفتوحٍ، فسمعت قائلاً يقول:

لج الباب يرحمك الله. فولجت، وإذا أنا بقصرٍ مشيَّد عالي البنيان، وإذا بنخلة قائمة، وإذا بجنبها مَطهرةٌ مملوءةٌ ماءٍ أحلى مِن الشهد، ومنـــزلٌ لإراقة الماء، ومنشفةٌ معلقةٌ وسواكٌ، فحللتُ لباسي، وأرقت الماء ثم اغتسلت، وتنشفت بالمنشفة، فسمعته يناديني، ويقول: إن كنت قضيت إربك فقل: نعم. فقلت:نعم. فنـــزعَ الإحرام عني، وإذا أنا جالسٌ بمكاني، ولم يشعر بي أحدٌ، فبقيت متفكِّرًا في نفسي وأنا أكذِّب نفسي فيما جرى، فقامت الصلاة فصلَّى الناس وصليت معهم ولم يكن لي شغلٌ إلا الفتى لا أعرفه.

فلمَّا فرغ تبعت أثره فإذا به قد دخل إلى دربٍ، فالتفتَ إليَّ، وقال: يا سهل، كأنَّك ما أيقنت بما رأيت.

قلت: بلى. قال: لج الباب يرحمك الله. فنظرت الباب بعينه، فولجت القصر، فنظرت النخلة، والمطهرة، والحال بعينه، والمنشفة مبلولة، فقلت: آمنت بالله.

فقال: يا سهل، مَنْ أطاع الله أطاعه كل شيء، يا سهل، اطلبه بحمده. فتغرغرت عيناي بالدموع، فمسحتهما وفتحتهما فلم أرَ الفتى ولا القصر، فبقيت متحسرًا على ما فاتني منه، ثم أخذت في العبادة.

وهذه الحكاية عجيبةٌ لا يكاد يؤمن بها كثيرٌ من الناس، ولها احتمالاتٌ:

منها: أنه يحتمل أنه نُقل من مكانه لما أغمي عليه إلى حيثما شاء الله تعالى من غير شعورٍ منه، ثم أعيد كذلك إلى مكانه لطفًا من الله تعالى وكرامةً لأوليائه، والله على كل شيءٍ قديرٌ.

وعن الشيخ مفرِّج الدماميلي: أنه رآه بعض أصحابه بِعَرَفة، ورآه آخر من أصحابه في مكانه لم يفارقه في جميع ذلك اليوم، فذكر كل واحدٍ منهما ذلك لصاحبه ثم تنازعا، وحلف كل واحدٍ منهما بالطلاق من زوجته أنه كما ذكر، فاختصما إلى الشيخ، وذكر كل واحدٍ منهما يمينه، فأقرَّهما الشيخ على حالهما، وأبقى كل واحدٍ منهما على الزوجية.

قال الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور: فسألت الشيخ مفرِّجًا عن حكمه في هذه القضية بعدم حنث الاثنين مع كون صدق أحدهما يوجب حنث الآخر، وكان معنا في وقت سؤالي جماعةٌ فيهم رجالٌ معتبرون لهم معرفةٌ بالعلم.

فقال لنا الشيخ: قولوا: يعني تكلموا في هذه المسألة، وكان ذلك إذنًا منه بأن نتحدث في سر هذا الحكم، فتحدث كل منهم بوجه غير كاف، وكانت المسألة قد اتضحت لي، فأشار إليَّ الشيخ بإيضاحها، فقلت: الوليُّ إذا تحقق في ولايته وَمُكِّن من التصور في روحانيته يُعطى من القدرة في التصور في صورةٍ عديدةٍ في وقتٍ واحدٍ في جهاتٍ متعددةٍ على حكم إرادته، فالصورة التي ظهرت لمن رآها بعَرَفة حقٌّ، والصورة التي رآها الآخر في مكانه في ذلك الوقت حقٌّ، وكل واحدٍ منهما صادقٌ في يمينه. فقال الشيخ مُفرِّج: هذا هو الصحيح، فإن قيل كيف يتصور تعداد الصور من شخصٍ واحدٍ؟ قلت: إن ذلك قد وقع، وشُوهِدَ ولا يمكن جحوده، وإن تحيَّر فيه العقل.

ومن ذلك: ما اشتهر عن كثيرٍ من الفقهاء وغيرهم: أن الكعبة المعظّمة شوهدت تطوف بجماعةٍ من الأولياء في أوقاتٍ في أمكنة غير مكانها، ومعلومٌ أنها في مكانها لم تفارقه في تلك الأوقات، فعُلم من هذا أن وراء طور العقل طورًا آخر.

ومن ذلك: الشيخ قضيب البان حين شُوهد وقد صلّى أربع ركعاتٍ في أربع صورٍ، فلمّا أسلم الإمام ضحك في وجه الفقيه الذي بجنبه، وقال له: أي الأربعة الذي صلّى معكم هذه الصلاة.

وقيل: إنما سُمّي الأبدال أبدالاً؛ لأنهم إذا غابوا يبدل في مكانهم صورٌ روحانيةٌ تخلفهم، وهذا أحد القولين في سبب تسميتهم أبدالاً.

ونؤيد ما ذكرناه عن الشيخ سهل عن الولي الذي ستره بإحرامه وعن الشيخ مفرِّج وعن الشيخ قضيب البان ما روي بالإسناد الصحيح المتعدد برواية جماعةٍ من الشيوخ:

إن الشيخ عبد القادر الكيلاني حضر في مجلسه أبو المعالي محمد بن أحمد البغدادي التاجر، فأخذته حقنةٌ شديدةٌ منعته من الحركة، وبلغت منه الجهد، فنظر إلى الشيخ عبد القادر نظر المستغيث، فنـزل الشيخ مرقاة من الكرسي الذي يتكلم عليه، فظهر على تلك المرقاة رأسٌ كرأس الآدمي، ثم نزل أخرى، فظهر كتفان وصدرٌ، وما زال ينـزل مرقاةً مرقاةً حتى تكمّلت على الكرسي صورةٌ كصورته تتكلم على الناس بصوتٍ مثل صوته، وكلامٍ مثل كلامه، ولا يرى ذلك إلا هو ومن شاء الله من الحاضرين، وجاء يشقُّ الناس حتى وقف عليه، وغطّى رأسه بكمه.

وفي رواية: بمنديله، فإذا هو في صحراء متسعة فيها نهرٌ عنده شجرةٌ، فعلّق فيها مفاتيح كانت في كمّه، وأزال حقنته، وتوضأ من ذلك النهر، وصلّى ركعتين، فلمّا سلّم منها رفع الشيخ الغطاء عنه، فإذا هو في المجلس وأعضاؤه مبتلةٌ بالماء ولا حقنة به، والشيخ على الكرسي يتكلم كأنه لم ينـزل منه، وتفقّد مفاتيحه فلم يجدها معه، ثم بعد مدة جهّز قافلةً إلى بلاد العجم، وساروا من بغداد أربعة عشر يومًا، فنـزلوا منـزلاً في بريةٍ فيها صحراء، فذهب فيها ليزيل حقنةً به، فقال: ما أشبه هذه الصحراء بتلك الصحراء.

وذكر شأنه في ذلك اليوم فإذا هو بذلك النهر وتلك الشجرة ومفاتيحه معلقةٌ عليها، فلمَّا رجعوا أتى إلى الشيخ ليخبره بذلك فأمسك بأذنه قبل أن يخبره، وقال له: يا أبا المعالي، لا تذكرهُ لأحدٍ وأنا حيٌّ. فلازم خدمته إلى أن مات.

ورُوي مسندًا في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر عن الشيخ محمد بن الأزهر قال: مكثت مدةً أسأل الله تعالى يُريني أحدًا من رجال الغيب، فرأيتُ ليلةً في المنام أني أزور قبر الإمام أحمد بن حنبل وعند قبره رجلٌ، فوقع في نفسي أنه من رجال الغيب، فاستيقظت فرجوت أن أراه في اليقظة، فأتيت قبر الإمام أحمد في وقتي، فوجدت الرجل الذي رأيته في المنام بعينه، فخرج قدَّامي، وتعجَّلت في الزيارة، وتبعته إلى أن وصل إلى دجلة، فالتقى له طرفاها حتى صارت قدر خطوة الرجل، فعبرها إلى الجانب الآخر، فأقسمت عليه أن يقف ليكلِّمني، فوقف، فقلت: ما مذهبك؟ فقال: حنيفًا مسلمًا وما أنا من المشركين.

فوقع عندي أنه حَنفيُّ المذهب، وانصرفت، فقلت في نفسي: آتي الشيخ عبد القادر، وأذكر له ما رأيت، فأتيت مدرسته، وقمت على بابه، فناداني من داخل داره، وقال: يا محمد، ما في الأرض من المشرق إلى المغرب في هذا الوقت وليٌّ لله سبحانه وتعالى حنفيٌّ سواه.

وحكاياتهم في هذا كثيرةٌ، وفيما ذكرناه كفايةٌ.

النوع السابع: انفجار الماء لهم:

من ذلك ما روى القشيري في رسالته بإسناده فيها: أن أبا تراب النخشبي قال له بعض أصحابه في طريق مكة: أنا عطشان، فضرب برجله الأرض فإذا عين ماءٍ زلالٍ، فقال الفتى: أحب أن أشربه في قدحٍ، فضرب بيده الأرض فناوله قدحًا من زجاجٍ أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب، وسقانا وما زال القدح معنا إلى مكة.

وعن الشيخ أبي عبد الله القرشي: أنه جاء إلى بئرٍ من آبار مِنًي بركوتهِ يطلب ماءً وهو عطشان، فضربه بعض من كان على البئر، ورمى بركوته بعيدًا.

قال: فمضيت إليها لآخذها وأنا منكسر القلب، فوجدتها في بركة ماءٍ حلوٍ،

فاستقيتُ، وشربتُ، وجئتُ بها إلى أصحابي فشربوا، وأعلمتهم بالقصة فمضوا إلى المكان؛ ليستقوا منه، فلم يجدوا ماءً ولا أثرًا لماء، قلت: إنها آيةٌ.

وحُكي عن بعض الأخيار: أنه عطش في طريق الحج، فدار في الركب من أوله إلى آخره في طلب الماء، فلم يحصل له شيءٌ، وإذا بفقير قد ركَّز عكازه في ساقية بركة، والماء ينبع من تحت العكاز، ويجري إلى البركة، فملأ قربَتَهُ، وأعلم الحاجَّ، فاستقوا منها، وتركوها وهي تطفح، وحكاياهم من هذا النوع لا يمكن حصرها، وقصدنا التنبيه عليها والإشارة إليها.

النوع الثامن: كلام الجمادات والحيوانات لهم: من ذلك الحكاية المشهورة في مخاطبة شجرة الرمان لإبراهيم بن أدهم في طريق بيت المقدس، وقولها: يا أبا إسحاق، اكرمنا بأن تأكل منَّا شيئًا، قالت ذلك ثلاث مرات، وكانت شجرةً قصيرةً، ورمانها حامضٌ، وتحمل في السنة مرةً، فلما أكل منها صارت طويلةً، ورمانها حلوًا، وتحملُ في السَّنة مرتين، فسمُّوها رمانة العابدين، ويأوي إلى ظلّها العابدون.

قال الشبلي: اعتقدتُ وقتًا ألا آكل إلا من الحلال، فكنت أدور في البراري، فرأيت شجرة تين، فمددت يدي إليها لآكل منها، فنادتني الشجرة: احفظ عليك عقدك ولا تأكل منِّي؛ فإني ليهوديٌّ.

وقال الشيخ أبو عبد الله القرشي: بينما أنا أسير على بعض السواحل إذ خاطبتني حشيشةٌ: أنا شفاء هذا المرض الذي بك. فلم أتناول منها ولم أستعملها.

وعن بعضهم: أنه قال: كلَّمني جملٌ في طريق مكة لما رأيت الجمال والمحامل عليها وقد مدت أعناقها في الليل، فقلت: سبحان من تحمَّل عنها ما هي فيه، فالتفتَ إليَّ جملٌ، وقال لي: قل: جلَّ الله، فقلت: جلَّ الله.

وعن بعضهم: أنه كان يضرب رأس حمارٍ كان تحته، فرفع الحمار رأسه، وقال: اضرب أو لا تضرب؛ فإنما تضرب على رأسك.

ولا يستنكر هذا؛ فقد أخبر النبي ﷺ في الحديث الصحيح بكلام البقرة التي كلَّمت

صاحبها، وقالت: «إنّما خُلقتُ للحرث.... الحديث[١]».

وقوله ﷺ فيما أخرج: «آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر[٢]»، فشهد لهما بالإيمان بذلك وهما غائبان حينئذ لما قال الناس: سبحان الله بقرةٌ تتكلم، وناهيك بهذا شرفًا لهما.

وكذلك ما رُوي عن الشيخ أبي الربيع المالقي قال: قيّض الله لي طيرًا في بعض الأسفار يبيت يسامرني، فكنت أسمعه الليل كله ينطق: يا قدوس يا قدوس، فإذا أصبح صفّق بجناحيه، وقال: سبحان الرزّاق، وطار.

وكذلك ما رُوي أن بعضهم كان يأتيه طيرٌ بمكة، ويحادثه، فلمّا كان ذات يوم أتاه وقال له: موعدي وموعدك الشام. فاجتمع به بعد ذلك في الشام، وكذلك الحكاية المشهودة المشهورة في الطير الذي يبشّر أبا مسلم بسلامة السريّة، وقدومها في وقت عيّنه له في بعض الغزوات، فقال له: مَنْ أنت يرحمك الله؟ فقال له الطير: أنا مُذهب الأحزان عن قلوب المؤمنين. فقدمت السرية كما ذكر وغير ذلك مما يخرج عن الحصر مما قد عُلم واشتهر.

النوع التاسع: إبراء العلل ببركتهم: من ذلك ما رُوي أنه ظهر بيعقوب بن الليث علةٌ أعيت الأطباء، فقيل له: في ولايتك رجلٌ صالحٌ يُقال له: سهل بن عبد الله، فلو استحضرته لعلّه يدعو لك. فأحضره، وسأله الدعاء، فقال: كيف يُستجاب دُعائي لك وفي سجنك محبوسون؟ فأطلق كل مَنْ كان في السجن، فقال سهل: اللّهُمَّ كما أريته ذُلَّ المعصية فأره عزَّ الطاعة، وفرِّج عنه. فعوفي، فعرض مالاً على سهل فأبى أن يقبل، فقيل له: لو قبلته وفرّقته على المساكين؟ فنظر إلى الحصى في الصحراء فإذا هي جواهر، فقال: مَنْ أُعطي مثل هذا يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث؟!

وعن السرّي السّقطي قال: كنت أطلب رجلاً صدّيقًا مدةً من الأوقات، فمررتُ في

(١) رواه البخاري (١٣٣٩/٣)، ومسلم (١٨٥٧/٤)، والترمذي (٦١٥/٥)، وأحمد في الفضائل (١/ ١٧٩).

(٢) رواه البخاري (١٢٨٠/٣)، وأحمد (٢٤٥/٢)، وابن حبان في الصحيح (٣٢٩/١٥).

بعض الجبال فإذا أنا بجماعة زمنَى، وعميانًا، ومرضى، فسألت عن حالهم، فقالوا: ها هنا رجلٌ يخرج في السَّنة مرةً فيدعوهم، فيجدون الشفاء، فقفوت أثره، وتعلقت به، وقلت: بي علةٌ باطنيةٌ فما دوائها؟ فقال: يا سريُّ، خلِّ عني؛ فإنه غيورٌ لا يراك تُساكن غيره، فتسقط من عينه.

وكذلك الحكاية المشهورة عن البنت الزمنة التي قالت: يا ربِّ أسألك بحرمة ضيفنا أن تعافيني. فقامت تمشي في الليل، فلمَّا رأى ذلك أهلها طلبوا الضيف وكان صبيًّا حمَّالاً في السوق، بات عندهم فلم يجدوه والأبواب على حالها مغلقةٌ.

ورُوي مسندًا في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني: أنه جاءه فضل الله بن إسماعيل البغدادي التاجر فقال له: يا سيدي قال جدك ﷺ: من دُعي فليجب، وقد دعوتك إلى منـــزلي، فقال: إن أذن لي جئت، ثم أطرق مليًّا، ثم قال: نعم، فركب بغلته، وكان عنده شيخان من الشيوخ الكبار فأخذ أحدهما بركابه الأيمن والآخر بركابه الأيسر حتى أتوا إلى داره فإذا فيها مشايخ بغداد وعلماؤها وأعيانها ومدَّ سماط فيه من كل حلو وحامض، وأُتي بسلة كبيرة مختومة يحملها اثنان، ووضعت في آخر السماط، وقال فضل الله: بسم الله، والشيخ مطرقٌ فما أكل أحدٌ ولا أذنَ في الأكل لأحد وأهل المجلس كأن على رؤوسهم الطير من هيبته، فأشار إلى الشيخين الَّذين جاءا معه: أن قدِّما لي تلك السلة. فقاما وحملاها حتى وضعاها بين يديه، وأمرهما ففتحاها فإذا فيها ولدٌ للذي دعاهم أكمهٌ مُقْعَدٌ مجذومٌ ومفلوجٌ.

فقال له الشيخ: قُمْ بإذن الله تعالى معافًى. فإذا الصبي يعدو وهو بصيرٌ ولا عاهة به، فضجَّ الحاضرون وخرج الشيخ في غلبات الناس ولم يأكل شيئًا.

قال الراوي: وهو أحد الشيخين المذكورين، فأتاه بعد ذلك جمعٌ من الرافدة بقفَّتين مخيطتين، وقالوا له: قل لنا ما في هاتين القفتين، فنـــزل من الكرسي الذي يتكلم عليه ووضع يده على إحداهما، وقال: في هذه صبيٌّ مقعدٌ وأمر بفتحها فإذا فيها صبيٌّ، فأمسك بيده، وقال له: قم بإذن الله تعالى.

فقام يعدو، ووضع يده على الأخرى، وقال: في هذه صبيٌّ لا عاهة به، وأمر بفتحها،

وإذا فيها صبيٌّ فقام يمشي، فأمسك بناصيته، وقال له: اقعد. فأُقعد، فتابوا عن الرفض على يديه، ومات في المجلس يومئذ من الحاضرين ثلاثةٌ.

ورُوي أنه مات في مجلسه في بعض الأيام سبعةٌ.

ورُوي أن الشيخ أحمد بن موسى بن عجيل اليمني جاءه بعض الناس وفي يده سلعةٌ، فقال له: ادعُ الله لي أن يزول عني هذه السلعة وإلا ما بقيت أحسن ظنّي بأحدٍ من الصالحين. فقال له: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومسح على يده وربط عليها بخرقة، وقال: لا تفتحها حتى تصل إلى منـــزلك. فخرج من عنده، فلمَّا كان في بعض الطريق أراد أن يتغدّى ففتح يده ليأكل فلم ير لها أثرًا.

ولعل الشيخ أراد أن يستر هذه الكرامة بستر اليد بالخرقة؛ لئلا تظهر في الحال، وربما كان عنده في ذلك الوقت ناسٌ فرأى ظهورها بعد تراخي الوقت أهون وأقل شهرةً.

والكلام في هذا النوع واسعٌ جلُّه ولسنا إلى تتبُّعه نتعدى.

النوع العاشر: طاعة الأشياء لهم: من المشهور أن كثيرًا منهم كانت السباع تحرمهم، وقد ركب كثيرٌ منهم على ظهورها، وبعضهم حمل عليها زاده، وبعضهم حطبًا، منهم الشيخ أبو الغيث اليمني حمل حطبًا على ظهر أسدٍ أفترس حماره، فقال له: وعزة المعبود ما أحمل حطبي إلا على ظهرك، فخضع له، فحمل الحطب على ظهره، وساقه إلى باب البلد ثم حطّ عنه، وخلاّه.

وعن المرأة الصالحة شعوانة: أنها رُزقت ولدًا فربَّته أحسن تربية، فلما كبر ونشأ قال لها: سألتك بالله يا أماه إلا ما وهبتيني لله تعالى.

فقالت له: يا بني، إنه لا يصلح أن يهدي للملوك إلا أهل الأدب والتُقى، وأنت يا ولدي غرٌّ ما تعرف ما يُراد بك ولم يأن لك ذلك. فأمسك عنها ولم يقل لها شيئًا، فلما كان ذات يومٍ خرج إلى الجبل ليحتطب ومعه دابةٌ، فنـــزل عنها ليجمع حطبًا، فلما جمع ورجع وجد السبع قد افترسها، فجعل يده في رقبة السبع.

وقال له: يا كلب الله وحقِّ سيدي لأحملنَّك الحطب كما تعديت على دابتي، فحمل

على ظهره الحطب وهو طائعٌ لأمره حتى وصل إلى دار أمه، فقرع عليها الباب، ففتحت له، وقالت له لما رأت ذلك: يا بني أما الآن فقد صلحتَ لخدمة الملوك، اذهب فقد وهبتك لله تعالى. فودَّعها، وذهب.

ورُوي أن الشيخ الكبير شاه بن شجاع الكرماني خرج للصيد وهو ملك كرمان، فأمعن في الطلب حتى وقع في برية مقفرة وحده فإذا هو بشابٌ راكبٍ على سبعٍ وحوله سباعٌ، فلما رأته ابتدرت نحوه، فزجرها الشاب عنه، وخرجت عجوزٌ بيدها شربة ماء فناولتها الشاب فشرب ودفع باقيه إلى شاه، فشرب وقال: ما شربت شيئًا ألذَّ منه ولا أعذب، ثم غابت العجوز، فقال الشاب: هذه الدنيا وكلَّها الله تعالى إلى خدمتي، فما احتجت إلى شيءٍ إلا أحضرته إليَّ حين يخطر ببالي، أما بَلَغَكَ أن الله تعالى لما خلق الدنيا قال لها: يا دنيا مَنْ خدمني فاخدميه، ومَنْ خدمك فاستخدميه، ووعظه وعظًا حسنًا فكان ذلك سبب توبته وخروجه من الملك ودخوله في طريق القوم حتى كان من أمره ما كان.

ورُوي أن جماعةً من أهل العلم قصدوا زيارة بعض الشيوخ فلما أتوه وجدوه يلحن في قرآنه في الصلاة فتغيَّر اعتقادهم فيه، فلما ناموا تلك الليلة أجنبوا كلهم فخرجوا ليغتسلوا في بركة ماءٍ، فوضعوا ثيابهم ودخلوا في الماء، فجاء الأسد وجلس على ثيابهم، فلم يقدروا يخرجون، فلاقوا شدةً من شدة البرد، فجاء الشيخ وزجر الأسد، وقال له: لا تتعرض لضيفاتنا، فبصبص وذهب. ثم قال لهم الشيخ: أنتم اشتغلتم بإصلاح الظاهر، فخفتم الأسد، ونحن اشتغلنا بإصلاح الباطن فخافنا الأسد.

ومن المشهور أن السباع كانت تأتي إلى سهل بن عبد الله، فكان يُدخلها بيتًا ويضيفها ويطعمها اللحم، ثم يخليها، فكان الناس يسمون ذلك البيت بيت السباع.

قال الشيخ أبو ناصر السراج: ورأيت أهل تُستَّر كلهم متفقون على هذا لا ينكرونه.

وكذلك الحكاية المشهورة عن الشيخ إبراهيم الخواص مع الأسد الذي جاء يعرج فوضع يده في حجره فرآها وارمةً، فنعسها بعود، وأخرج منها قيحًا، فذهب الأسد وجاءه بعد ساعةٍ ومعه شبلان فبصبصا له وحملا إليه رغيفين، وذلك في البرية، وهذه الكرامة اشتملت على كراماتٍ كثيرةٍ:

منها قصد الأسد إليه، واستئناسه به، ومدّه يده إليه، ووضعها في حجره، والتماسه منه لقشها، وإخراج القيح منها، وعوده إليه، وإتيانه بوالديه كالمتودِّد إليه والشاكر له على جميله، وحمله إليه الرغيفين كالمُجازي له، وإحضار الخبز في موضعٍ لا يوجد فيه مع كون محضره ليس من أهل الخبز، وكذلك المِخدة التي شوهدت تروِّح على الشيخ إبراهيم بن أدهم بالنرجس وهو نائمٌ في البستان، والظبية التي كانت تأتي بعضهم فيشرب لبنها في بعض البراري، والطيور التي كانت تؤانسهم في الجبال والقفار، وتحمل إليهم أنواع الثمار، وغير ذلك مما امتلأت باليسير منه كتب الحقيقة، وإنما نبَّهت على قطرةٍ من بحارٍ عميقة، وعلى الجملة فالدنيا كلها تتصور لهم في صورة عجوزةٍ تخدمهم، وأعظم من ذلك طواف الكعبة المعظَّمة بكثيرٍ منهم، وكل ذلك مشهورٌ مذكورٌ بالأسانيد الصحيحة.

قال اليافعي في كتابه «نشر المحاسن»: ومن جملة ما اشتهر في بلاد اليمن وربما تواتر عن الشيخ الفقيه إسماعيل الحضرمي: أنه قال يومًا لخادمه وهو في سفرٍ يقول للشمس تقف له حتى يصل إلى منـــزله، وكان في مكانٍ بعيد، وقد قرب غروبها، فقال لها الخادم: قال لكِ الفقيه إسماعيل قفي له، فوقفت له حتى بلغ مكانه، ثم قال للخادم: ما تطلق ذلك المحبوس. فأمرها الخادم بالغروب، فغربت، وأظلم الليل في الحال.

قال: والمرجوع في هذا كله إلى أصلٍ يجب الإيمان به، وهو أن الله على كل شيءٍ قديرٌ، وليس الخارق للعوائد بمستحيلٍ في العقل كما تقدَّم، ولا ملتبس بالمعجزات والسحر للفرق بين ذلك.

ومن طاعة الجان له ما رُوي مسندًا في كتاب مناقب الشيخ عبد القادر الكيلاني: أنه جاءه بعض أهل بغداد، وذكر له أن ابنة له اختطفت من سطح داره وهي بكرٌ عمرها ستة عشرة سنةً، فقال له الشيخ: اذهب هذه الليلة إلى خراب الكوخ واجلس عند التل الخامس وخطَّ عليك دائرةً في الأرض، وقل وأنت تخطُّها:

بسم الله على نية عبد القادر فإذا كانت فحمة العشاء مرت بك طوائف من الجن على صورٍ شتى فلا يروعنَّك منظرهم، فإذا كان السحر مرَّ بك ملكهم في جحفلٍ منهم، فيسألك عن حاجتك، فقل له: قد بعثني عبد القادر إليك، واذكر له شأن ابنتك.

قال: فذهبت، وفعلت ما أمرني به فمرَّ بي منهم صورٌ مزعجة المنظر، ولا يقدر أحدٌ منهم أن يدنو من الدائرة التي أنا فيها وما زالوا يمرون زُمَرًا زُمَرًا إلى أن جاء ملكهم راكبًا فرسًا وبيِّن يديه، فوقف بإزاء الدائرة.

وقال: يا أنس، ما حاجتك؟ قلت: قد بعثني الشيخ عبد القادر إليك، فنـزل عن فرسه، وقبَّل الأرض، وجلس خارج الدائرة، وجلس من معه وقال: ما شأنك؟ فذكرت قصة ابنتي، فقال لمن معه: من فعل هذا؟ فلم يعلموا من فعله، فأُتي بمارد وهي معه، وقيل له: هذا من مردة الصين. فقال له: ما حملك على أن اختطفت مَنْ تحت ركاب القطب.

قال: إنما وقعت في نفسي. فأمر به، فضرب عنقه، وأعطاني ابنتي، فقلت له: ما رأين كالليلة في امتثالك أمر الشيخ عبد القادر. قال: نعم، إنه لينظر من داره إلى الزمرة منَّا وهم بأقصى الأرض فيفرون منْ هيبته إلى مساكنهم، وإن الله تعالى إذا أقام قطبًا مكنَّه من الجن والإنس.

قال الإمام اليافعي في كتابه «نشر المحاسن»: لا شكَّ أن الكرامات قد ظهرت في زمن الصحابة وكثرت، ولكن ظهورها فيما بعد أكثر، ثم أن كثيرًا من المنكرين لكرامات الأولياء والصالحين لو رأوهم يطيرون في الهواء لقالوا: هذا سحرٌ، وقالوا: هؤلاء شياطين، ولا شكَّ أن من حرم التوفيق فكذَّب بالحقِّ غيبًا وحدسًا كذَّب به عيانًا وحسًّا، كما قال الله تعالى وهو أصدق القائلين مخاطبًا لنبيه سيد المرسلين: ﴿**وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ**﴾ [الأنعام:٧] الآية.

فإن قيل: إن هذه الكرامات تشبه السحر؛ فإن سماع الإنسان الهواتف في الهواء وسماع النداء من بطنه وطي الأرض له وقلب الأعيان ونحو ذلك غير معهود في الحس أنه صحيحٌ، إنما يظهر ذلك من أهل السيميَّاء والنارنجيَّات.

فالجواب: ما أجاب به المشايخ العارفون والعلماء المحققون في الفرق بين الكرامة والسحر أن السحر يظهر على يد الفسَّاق والزنادقة والكفَّار الذين هم على غير شريعة ومتابعة، وأما الأولياء فإنما وصلوا إلى ذلك بكثرة اجتهادهم واتباعهم السُّنَّة حتى بلغوا فيها الدرجة العليا فافترقا، وليس العجب ممن ينكر الكرامات من المعتزلة؛ فليس ذلك

بمستنكرٍ ولا مستكثرٍ منهم؛ فقد خالفوا أهل السنة والجماعة بما هو أنكر وأكثر، وإنما العجب من قومٍ ينكرونها ينتمون إلى أهل السنة، وهم أقسامٌ:

فقسمٌ منهم ينكرون على مشايخ الصوفية ومن ينتمي إليهم، ويسيئون الظن بهم، ويطعنون فيهم، وينكرون كراماتهم، والعجب كل العجب منهم في إنكارهم على سادات ما بين أوتادٍ وأبدالٍ وصدِّيقين عارفين بالله محققين، قد ملأوا الوجود كراماتٍ وأنوارٍ ومعارف وحكمًا وأسرارًا يعدون إقبال الناس عليهم ليلاً وإدبارهم عنهم نهارًا قد صفُّوا بواطنهم من شوائب الكدر واستوى عندهم الذهب والمدرة والمدح والذم والشدائد والنعم، بل يعدون نعمة الدنيا منعًا وبلاءً، والشدة عطاءً ورخاءً، أعرضوا في بدايتهم عمَّا سوى الله فخصُّوا في نهايتهم من فضل الله ما لا يعلمه إلا الله، فما ظنَّهم بقومٍ ضبطوا أنفاسهم مع الله، فشغلهم طول دهرهم بمراقبته.

يقول الصغير منهم: وقفت على باب قلبي عشرين سنةً ما جاز به شيءٌ لغير الله إلا رددته، أما علموا أن أعلام العلماء الصالحين الحلماء لم يزالوا قديمًا وحديثًا يعتقدون طائفة الصوفية ويزورهم ويتبرَّكون بمجالستهم ودعائهم وآثارهم ويحترمونهم.

وقد رُوي أن الإمام تقي الدين بن دقيق العيد المشهور كان يزور بعض الفقراء ويطلب منه الدعاء، ويخضع ويتذلل بين يديه حتى أنه قال في وقتٍ: لهو عندي خيرٌ من مائة فقيه، أو قال: ألف فقيهٍ.

وكذلك الإمام النووي كان يجتمع وينتفع بالشيخ ياسين المزين ويستمع كلامه، ويقبل إشارته حتى أنه أمره بالسفر وردِّ ما كان عنده من الكتب المستعارة قبل موته بقليلٍ فامتثل أمره، وقبل إشارته، وسافر راجعًا إلى بلدته، فمرض، وتوفِّي بين أهله وإخوته.

وكذلك الإمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام كان يعتقد المشايخ ويقول بفضلهم حتى أنه سُئل عن الخضر عليه السلام أحيٌّ هو؟ فقال: ما تقولون لو أخبركم ابن دقيق العيد أنه رآه بعينه أكنتم تصدقونه؟ قالوا: أي والله نصدقه. قال: فوالله لقد أخبر عنه سبعون صدِّيقًا أنهم رأوه كل واحدٍ منهم خيرٌ من ابن دقيق العيد.

قال اليافعي: وقوله هذا يرد قول ابن الجوزي في زعمه أن الخضر ليس بحيٍّ.

قلت: وأظنه قد رجع عن هذا القول؛ فإنه قد روى بإسناده المتصل أربع روايات:

الأولى: إن الخضر عليه السلام حيٌّ، أخذ إياها عن الإمام عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه رآه متعلقًا بأستار الكعبة، وهو يدعو بهذا الدعاء: (اللَّهُمَّ يا مَنْ لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ...) الدعاء المشهور، وخاطبه الإمام وعرفه.

والثانية: عن الإمام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال الراوي: لا أعلمه إلا مرفوعًا إلى النبي ﷺ قال: «**يلتقي الخضر وإلياس عليهما السلام في كل عامٍ في الموسم، فيحلق كل واحدٍ منهما رأس صاحبه ويفترقا عن هؤلاء الكلمات: بسم الله ما شاء الله لا يسوق الخير إلا الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله، ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله**[١]».

والثالثة: عن الإمام عليٍّ رضي الله عنه أيضًا: أنه يجتمع يوم عرفة بعرفات جبرائيل وميكائيل وإسرافيل والخضر عليهم السلام، وذكر أنهم يتحاوبون بنحو هذا الذكر المذكور.

والرابعة: إن عيسى وإدريس في السماء وإلياس والخضر في الأرض.

روى هذه الروايات الأربع بإسناده المتصل.

قال ابن عباس رضي الله عنه في الكلمات التي يقولهن الخضر وإلياس: من قالهن حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات أمَّنه الله تعالى من الغرق والحرق والسرق.

قال الراوي: وأحسبه قال: ومن الشيطان والسلطان والحيَّة والعقرب[٢].

والقسم الثاني من أقسام المنكرين: قومٌ يكذِّبون بكرامات أولياء أزمانهم، ويصدِّقون بكرامات الذين ليسوا في زمانهم.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٥/٥٠٤)، وابن عدي في الكامل (٢/٣٢٨).

(٢) انظر الأخبار التي وردت في أن الخضر عليه السلام كان في زمن النبي ﷺ ثم بعده إلى الآن، الزهر النضر في حال الخضر، (ص١٣١، ٢٠٨) ولا عبرة بقول المخالف لما عليه أهل الحقائق من المتصوفة.

فهؤلاء كما قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: والله ما هي إلا إسرائيليةٌ صدَّقوا بموسى وكذَّبوا بمحمد ﷺ؛ لأنهم أدركوا زمنه.

القسم الثالث: قومٌ يُصدِّقون بأن لله تعالى أولياء لهم كراماتٌ، ولكن لا يصدِّقون بواحدٍ معينٍ من أهل زمانهم، فهؤلاء محرومون أيضًا؛ لأن من لم يسلِّم لواحدٍ معينٍ لم ينتفع بأحدٍ، ومن أنكر على الصالحين حُرِم بركتهم.

قال الشيوخ: وذلك أقل عقوبته، ويُخشى عليه سوء الخاتمة العياذ بالله تعالى انتهى.

قال الشيخ عبد الغني الشامي: وربما طعن بعض المنكرين في الفقراء بأنهم مسرفون على أنفسهم، فتراهم يطلبون فقراء في طريق الله تعالى معصومين من الزلل والمعصية، وهذا لا يكون أبدًا بل من غَلَبَ خيره على شره فهو الكامل، بل في الحديث الشريف النبوي ما هو أبلغ من ذلك، وهو الاكتفاء بالعشر من الخير فضلاً عن غلبته على الشر وكونه نصفًا أو ربعًا، قال رسول الله ﷺ: «**إنكم في زمانٍ مَنْ ترك منكم عُشرَ ما أُمر به هلكَ، ثم يأتي زمانٌ مَنْ عَمِلَ منهم بعشر ما أُمر به نجا**(١)».

رواه الترمذي عن أبي هريرة ﷺ، وذكره السيوطي في «الجامع الصغير».

فقـــد حكم نبينا ﷺ بالنجاة لمن عمل بالعشر، وهي بشارةٌ عظيمةٌ لكل من سلم من الكفر والشرك إلى يوم القيامة، فالحمد لله الذي جعلنا من أمة سيدنا محمدٍ ﷺ.

***

---

(١) رواه الترمذي (٤/٥٣٠)، والبخاري في التاريخ الكبير (٧/٤١٥)، والديلمي في مسند الفـــردوس (١/٣٩٣)، والطبراني في الصغير (٢/٤٢).

النور العشرون

وهو نور الجاه:

فهو كشف له أنه واحد الله في التخصيص، والشفاعة تدل على ذلك وأشباهها.

۞ قلت: فهو ﷺ الشفيع، وشفيع المذنبين، صاحب الشفاعة الكبرى.

وصاحب الشيء مُستحقّه المختصُّ به دون من سواه، ولما كان ﷺ المختصُّ بدعوة الشفاعة كما قال ﷺ: «لكلّ نبيٍّ دعوةٌ، فمنهم من يجعلها في دُنياه، ومنهم من جعلها دعاءً على قومه، وإنّي اختبأت دعوتي؛ شفاعةً لأمّتي يوم القيامة(١)».

فهو ﷺ المخصوص بمطلق الشفاعة من حيث جرت وعلى أيِّ شفيعٍ أجريت، ثم هو ﷺ ظاهر الاختصاص بأجلِّها وأعلاها وأكبرها، فكبر الشفاعة التي يظهر للخاصِّ والعامِّ اختصاصه بها من حيث الكبر ما ظهرت للعيان أتته، واشترك جميع الناظرين في رؤيته، وله الكبرياء في السماوات والأرض، فمن حيث ظهر موجود السماء والأرض كان له فيه تعالى الكبرياء، ومن حيث بطن موجود الملكوت كان فيه العلوُّ، فأظهر شفاعاته للخلائق شفاعته يوم الجمع في استفتاح الحكم وإنقاذ الخلائق من أسرار الوقوف وخطر الانتظار؛ ليفصل سبيل الخلق إلى سبيل المعاد بإنقاذ الجزاء وبما يتبع كبراها الظاهرة من شفاعات الشفعاء دونها يتّضح وجه الكبر في الشفاعة الجامعة.

ورد أن موطنًا من مواطن يوم الجمع يظهر الحق تعالى لمحة من سطوته فيراعُ لها قلوب الأولين والآخرين إلا من شاء الله، فيقول آدم ؈: «لا أسألك اليوم شيث ابني، لا أسألك إلا نفسي(٢)».

ويقول نوح ؈: «لا أسألك اليوم سام ابني، لا أسألك إلا نفسي(٣)».

---

(١) رواه مسلم (١/١٨٩).

(٢) حديث كشفي صحيح.

(٣) كسابقه.

ويقول إبراهيم عليه السلام: «لا أسألك اليوم إسماعيل ابني، لا أسألك إلا نفسي[١]».

ويقول موسى: «لا أسألك اليوم هارون أخي، لا أسألك إلا نفسي[٢]».

ويقول عيسى عليه السلام: «لا أسألك اليوم مريم أمّي، لا أسألك إلا نفسي[٣]».

ويقول محمد ﷺ: «لا أسألك اليوم نفسي ولا فاطمة ابنتي ولا عليًّا أخي ولا الحسن والحسين ابنيَّ، لا أسألك اليوم إلا أمَّتي[٤]».

ويستمر هذا الموقف حتى تفكّه شفاعته الكبرى البادئة الظهور لمجمع العالمين من أهل السماوات وأهل الأرض. قاله الحرالي.

النور الحادي والعشرون

وهو نور الخطابة:

فكونه كيف له أنه الذي أوتي جوامع الكلم.

قال الشيخ الكتاني: وفي «الفتوحات» أيضًا في الباب الرابع والثمانين وثلاثمائة بعدما ذكر فيه أن الحق تعالى لا يكلم عباده ولا يخاطبهم إلا من وراء حجاب صورة يتجلى لهم فيها تكون له تلك الصورة حجابًا عنه ودليلاً عليه ما نصه:

وتُسمّى هذه الحضرة التي منها يكون الخطاب الإلهي لمن شاء من عباده حضرة اللسن ومنها كلم الله موسى عليه السلام ألا تراه تجلى له في صورة حاجته.

ومنها أُعطي ﷺ جوامع الكلم، فجمع له في هذه الحضرة صور العالم كلها فكان علم أسماء هذه الصور علم آدم عليه السلام وأعيانها لمحمد ﷺ مع أسمائها التي أعطيت آدم عليه السلام فإن

---

(١) كسابقه.

(٢) كسابقه.

(٣) كسابقه.

(٤) كسابقه.

آدم من الأولين الذين أعطى الله محمدًا ﷺ علمهم حين قال عن نفسه أنه أعطاه الله علم الأولين والآخرين.

ومنها أتى الله دواد الحكمة وفصل الخطاب، وجميع الصحف والكتب المنـــزلة من هذه الحضرة صدرت.

ومنها أملى الحق على القلم الأعلى ما سطره في اللوح المحفوظ، وكلام العالم كله غيبه وشهادته من هذه الحضرة، والكل كلام الله، فإنها الحضرة الأولى انتهى منه بلفظه أيضًا.

وفيها أيضًا في الباب الرابع والتسعين وثلاثمائة ما نصه:

والممكن الكامل المخلوق على الصورة الإلهية المخصوص بالصورة الإمامية لا بدَّ وأن يكون جامعًا لجميع الخير كله، ولهذا استحقَّ الإمامة والنيابة العامة في العالم، ولهذا قال في آدم عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وما ثم إلا اسم ومُسمَّى وقد حصل علم الأسماء محمد ﷺ حين قال: «علمت علم الأولين والآخرين»، فعلمنا أنه قد حصل عنده علم الأسماء فإنه من العلم الأول لأن آدم له الأولية فهو من الأولين في الوجود الحسي.

وقال عن نفسه فيما خص به على غيره أنه أُوتي جوامع الكلم.

والكلم: جمع كلمة والكلم أعيان المسميات، قال تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء:١٧١]، وليست غير عيسى فأعيان الموجودات كلها أعيان كلمات الحق، وهي لا تنفد، فقد حصل له الأسماء والمسميات، فقد جمع الخير كله فاستحق السيادة على جميع الناس، وهو قوله: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**[١]».

وهناك تظهر سيادته لكون الآخرة محل تجلى الحق العام، فلا يتمكن لتجليه دعوى من أحد فيما ينبغي أن يكون لله أو يكون من الله لمن شاء من عباده انتهى منه بلفظه أيضًا.

وقد فسَّر الكلم بأعيان المسميات: أي مسميات أسماء آدم التي هي أعني المسميات الموجودات.

(٢) رواه البخاري (٣١٦٢)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤).

وفسَّر الشيخ عبد الرحمن الجامي في «شرحه لفصوص الحكم» جوامع الكلم بأمهات الحقائق الإلهية، والكونية الجامعة بجزئياتها، قال كما هي يعني الحقائق مسميات آدم، وعليه فمسميات أسماء آدم هي الحقائق الإلهية، والحقائق الكونية الظاهرة في التعين الثاني، والمرتبة الثانية التي هي أعني الحقائق المذكورة ظلال وصور للشئون الذاتية التي هي اعتبارات الوحدة المندرجة فيها في التعين الأول والمرتبة الأولى، وأسماء آدم هي أسماء تلك الحقائق، وهي من الباري تعالى أسماء الصفات التي لها تعلق وارتباط بالكون، ومن المكونات أسماء كل مخلوقٍ من العرش إلى ما تحت الأرض، وليس المراد بها خصوص الأسماء النازلة وهي التي تشعر بالمسمى في الجملة كما عليه المفسرون؛ لأنه لا يظهر بذلك كبير خصوصية لآدم عليه السلام، وإنما المراد بها الأسماء العالية كما ذكره الشيخ الأكبر ونقله «في الإبريز»، وفي «جواهر المعاني»، كل منها عن شيخه، وهي التي تشعر بأصل المسمى، ومن أي شيءٍ هو، وبفائدته، ولأي شيءٍ يصلح، وبكيفية ترتيبه ووضع شكله، وما يطرأ عليه من ابتدائه إلى انتهائه؛ لأنه ما من مخلوقٍ في الكون إلا وله اسم على قدره في العظم، وبه قوامه إذا سمعه العارف يفهم منه المسمي بجميع أحواله، وسائر ما يتعلق به.

فكان سيدنا آدم عليه السلام يعلم من كل مخلوقٍ من المخلوقات الناطقة والجامدة بمجرد سماع اسمه العالي، أو خطوره في ذهنه كل ما يتعلق به من هذه الأمور المذكورة، وهي علوم آدم عليه السلام التي أشار إليها ابن مشيش في قوله:

وتنــزلت علوم آدم، وهي أيضًا علوم أولاده من الأنبياء والأولياء الكُمَّل كما ذكره في «الإبريز»، نقلاً عن شيخه، وأراد بالأولياء الكُمَّل الأفراد الجامعين، وهم الأقطاب الخلفاء، قال: وإنما خص آدم بالذكر؛ لأنه أول من علم هذه العلوم، ومن علمها من أولاده فإنما علمها بعده انتهى.

وعلى هذا فالكلية في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:٣١].

هي إحاطته بجميع متعلقات الكون حتى لا يشذ عليه منها شيء وإن شئت قلت: هي إحاطته بجميع الأسماء الكونية، وكذا الإلهية التي بها نظام الكون، ومما يشهد له قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ﴾؛ لأن المعروض عليهم إنما هو صور الكائنات ومسمياتها

فدلَّ على أن المراد بالأسماء الأسماء الكونية والتي يطلبها الكون من أسمائه تعالى.

وفي «الفتوحات» في الباب الثامن والأربعين المراد من قوله كل الأسماء الإلهية التي تطلب الآثار في العالم وما يمتد به من أسماء التنـــزيه والتقديس انتهى.

وقال قبله بقليل: خُص آدم بعلم الأسماء كلها التي لها توجه إلى العالم، و لم يكن ذلك العلم أعطاه الله للملائكة، وهم العالم الأعلى الأشرف.

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾، و لم يقل بعضها، وقال: (عرضهم) و لم يقل: (عرضها)، فدلَّ على أنه عرض المسميات لا الأسماء انتهى.

قال في الباب التاسع عشر وثلاثمائة ما نصه:

ولما أوجد الله العالم أوجده إنسانًا كبيرًا، وجعل آدم وبنيه مختصر هذا العالم، ولهذا أعطاه الأسماء كلها: أي كل الأسماء المتوجهة على إيجاد العالم، وهي الأسماء الإلهية التي يطلبها العالم بذاته إذ كان وجوده عنها انتهى.

وقال في «جواهر المعاني» وكذا في «الجامع» نقلاً عن شيخهما أبي العباس التيجاني وأما الأسماء الخارجة عن الكون فلا تمكن الإحاطة بها، ولا نهاية لها.

قال سبحانه وتعالى ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

قال: فإن العارفين والأقطاب والنبيين والمرسلين من فتحهم في المعرفة ينكشف لهم في كل مقدار طرفة عين من أسماء الله الباطنة أمر لا حد له ثم يبقون على هذا الحال أبدًا سرمدا في طول عمر الدنيا وفي طول عمر البرزخ وفي طول عمر يوم القيامة وفي طول عمر الأبد في الجنة بلا نهاية في كل مقدار طرفة عين ينكشف لهم من أسماء الله الباطنة ما لا حد له ولا غاية له في طول هذه المدة، ولا نهاية لانكشاف الأسماء على طول أبد الأبد، فكيف يُقال: أحاط بها كلها، وإنما الكلية في الأسماء التي يطلبها الكون فقط انتهى منه بلفظه.

وقد ذكره صاحب «الجواهر» في الفصل الأول من الباب الخامس.

ونحوه قوله في «الإبريز» نقلاً عن شيخه بعد تخصيصه لأسماء آدم بالتي يطيقها آدم ويحتاج إليها البشر أو لهم بها تعلق ما نصه:

وإنما خصصناها بما يحتاج إليه وذريته وبما يطيقونه لئلا يلزم من عدم التخصيص الإحاطة بمعلومات الله تعالى انتهى.

فإن قلت: يلزم مما ذكرته علم آدم عليه السلام بالأسماء والمسميات معًا، كما وقع ذلك لنبينا ﷺ، فما وجه الخصوصية لنبينا؟

قلت: آدم عليه السلام أوتي الأسماء التي هي كالقشر، والغلاف الصائن للشيء بطريق الأصالة، فكان مظهرها، وحطت له المسميات بطريق التبع، ونبينا ﷺ أوتي المسميات التي هي اللب والمقصود بطريق الأصالة، والأسماء تابعة لها، وكان مظهرًا للكل، وأيضًا فالرسوخ التام والتنـــزل الحقيقي إنما هو له ﷺ، وفيه دون غيره، فإنه لم يحصل له من الرسوخ والتمكن فيها مثل، ولا مقارب ما حصل له ﷺ، ولذا عجز الخلائق كلهم آدم وغيره فافهم.

وأمهات الحقائق هي أصولها وأئمتها التي ترجع إليها، والحقائق الإلهية هي مسميات الأسماء الإلهية: أي مفهوماتها بخصوصياتها الامتيازية، والمراد بها هنا خصوص التي يفتقر العالم إليها، وأمهاتها سبعة: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والكلام، والجود، والأقساط، والحقائق الكونية هي مسميات أسماء الموجودات كلها، وهي مع ما ذكر الحقائق الإلهية كلمات الله التي لا نفاد لها المشار إليها بقوله تعالى: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي**﴾ [الكهف:١٠٩].

وقوله: ﴿**وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ**﴾ [لقمان:٢٧].

فإن المراد بها هنا على ما ذكره المحققون أمران:

أحدهما: الحقائق الإلهية الأسمائية والصفاتية وإن كانت الحقائق الإلهية قد تطلق أيضًا على ما هو منه ﷺ وبسببه من أسرار الحق التي فرقها في خلقه، وهي ثلاثمائة وستة وستون

سرًّا، ظهرت في الحيوانات والجمادات وسائر المخلوقات على ما أراده الحق تعالى، وهي ما جعله فيهم من المنافع والعلوم والأسرار وأوصاف الكمال من الصدق والتحمل وغير ذلك.

ثانيهما: الحقائق المظهرية الكونية، وهي الموجودات كلها محسوسة كانت أو معقولة أو موهومة، أو تقول: روحانية كانت أو مثالية أو جثمانية، سُمِّيت هذه بكلمات الله؛ لصدورها عن الله تعالى بــ (كن) لكل شيءٍ منها فيكون، و (كن) كلمة الله فسمي ما صدر عنها باسمها تسمية للمسبب باسم السبب.

وفي «الفتوحات المكية» في الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة ما نصه:

فآدم ومن دونه إنما هو وارث محمد ﷺ؛ لأنه كان نبيًّا وآدم بين الماء والطين لم يكن بعد موجودًا، فالنبوة لمحمدٍ ﷺ ولا آدم، والصورة الطبيعية لآدم ولا صورة لمحمد ﷺ، وعلى آدم وجميع النبيين فآدم أبو الأجسام الإنسانية، ومحمد ﷺ أبو الورثة من آدم إلى خاتم الأمر من الورثة، فكل شرعٍ ظهر، وكل علمٍ إنما هو ميراث محمدي في كل زمانٍ ورسول ونبي من آدم إلى يوم القيامة، ولهذا أُوتي جوامع الكلم.

ومنها علم الله آدم الأسماء كلها فظهر حكم الكل في الصورة الآدمية والصورة المحمدية، فهي في آدم أسماء، وفي محمد ﷺ كلمات، وكلمات الله سبحانه لا تنفد، وموجوداته من حيث جوهرها لا تنفد، وإن ذهبت صورها وتبدلت أحكامها فالعين لا تذهب ولا تتبدل انتهى منه بلفظه.

وفيها أيضًا في الفصل الثاني من الباب الثاني ما نصه:

نكتة وإشارة: قال رسول الله ﷺ: «**أُوتيت جوامع الكلم**».

وقال تعالى: ﴿**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**﴾ [النساء:١٧١].

وقال: ﴿**وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ**﴾ [التحريم:١٢].

ويُقال: قطع الأمير يد السارق، وضرب الأمير اللص، فمن ألقي عن أمره شيء فهو ألقاه، فكان الملقي محمد ﷺ، ألقى عن الله كلمات العلم بأسره من غير استثناء شيء منه

البتة، فمنه ما ألقاه بنفسه كأرواح الملائكة وأكثر العالم العلوي، ومنه أيضًا ما ألقاه عن أمره، فيحدث الشيء عن وسائط كبرة الزراعة ما تصل إلى أن تجري في أعضائك روحًا مسبحًا وممجدًا إلا بعد أدوار كثيرة، وانتقالات في عالم، وتنقلب في كل عالم من جنسه على شكل أشخاصه، فرجع الكل في ذلك إلى من أُوتي جوامع الكلم انتهى المراد منه بلفظه أيضًا وراجعه.

وفيها أيضًا في الباب السابع والثلاثين وثلاثمائة ما نصه:

وأما منــزلته ﷺ في العلوم خاصة، فأحاطه بعلم كل عالم بالله من العلماء به تعالى متقدميهم ومتأخريهم، ثم ذكر أن من كماله ﷺ أنه خُصَّ بست لم تكن لنبيٍّ قبله.

ثم قال: والخصلة الثانية: أُوتي ﷺ جوامع الكلم، والكلم: جمع كلمة، وكلمات الله لا تنفد، فأُعطي علم ما لا يتناهى، فعلم بما لا يتناهى ما حصره الوجود، وعلم ما لم يدخل في الوجود، وهو غير متناه، فأحاط علمًا بحقائق المعلومات، وهي صفة إلهية لم تكن لغيره انتهى المراد منه بلفظه أيضًا.

وقال الأمير عبد القادر الجزائري في «مواقفه» في الموقف السادس والثمانين ومائتين أثناء كلام له ما نصه:

وكما أن الحق تعالى علم كل شيءٍ من علمه بنفسه؛ لأن جميع الأشياء كذلك هو ﷺ علم جميع الأشياء إجمالاً وتفصيلاً من علمه بذاته وحقيقته التي هي حقيقة الحقائق، ومصدر كل كائن ومبدأ الكل وخزانة العلوم الإلهية والكونية منه تخرج وعلى يديه تقسم فالقلم الأعلى وهو العقل الأول والنفس الكلية وهي اللوح المحفوظ وسائر الأرواح العلوية والسفلية من ذواته تكتب وبعينه تبصر ومن مشكاته تنظر فهو بكل شيء عليم بيده مفاتيح الخزائن الإلهية وكل ما ظهر في العالم مطلقا فلا يظهره الاسم الإلهي إلا عن إذن محمد ﷺ.

فإن قيل: ما الفرق بين علمه ﷺ وبين علم الحق تعالى في مقام الفرق؟

قلنا: هو أنه تعالى علم الأشياء وهي في العدم لا عين لها في الوجود بوجه من الوجوه وهو ﷺ إنما علم الأشياء بعد أن صار لها ضرب من الوجود وهو الوجود العلمي فإنه ما

علمها إلا وهي موجودة في علم الحق تعالى.

ثم قال: أما علمه ﷺ بربه فإنه عَلم عِلم الأولين قبله: أي قبل اتصال روحه بجسمه الشريفين ﷺ، والآخرين بعده من كل ما خلق الله تعالى، كما أخبر بذلك عن نفسه في حديث الضربة، وأما علمه ﷺ بالعالم، وهو كل ما سوى الحق تعالى، فالعالم على ضربين: ضرب وجدت أجناسه وأنواعه وبعض أشخاصه وأفراده ولأفراده نهاية، كالنوع الإنساني مثلاً، فهذا الضرب يعلمه ﷺ تفصيلاً؛ لأنه ﷺ علم جميع الأسماء المتوجهة على إيجاد العالم كلياتها وجزئياتها، وما من حقيقة كونية إلا وهي مرتبطة بحقيقة جزئية الإلهية، ومستندة إليها، لا بدَّ من ذلك، وقد علم ﷺ الأسماء فأحرى آثارها، فإن آدم عليه السلام الذي هو قطرة من بحره، وجزء من كله، علمه الله الأسماء كلها، فكيف به ﷺ، والضرب الآخر من العالم، وجدت أجناسه وأنواعه وبعض أشخاصه، ولا نهاية لأفراده وأشخاصه، فهذا الضرب الذي لا تتناهى أفراده أبد الآبدين ودهر الداهرين، يعلمه ﷺ غير متناه، فإنه أخبر أنه أُوتي جوامع الكلم، وكلمات الله لا تنفد، بمعنى مقدوراته ومراداته، فقد أعطي ﷺ ما لا يتناهى إجمالاً، كما أعطى علم ما يتناهى تفصيلاً خصوصية له ﷺ، فإنه ما أعطي مخلوق علم جميع العالم أجناسه وأنواعه وأشخاصه ما يتناهى منه وما لا يتناهى غيره ﷺ ثم قال: فأحاط ﷺ علمًا بحقائق المعلومات المتناهية وغير المتناهية، وعلم أجناسها وأنواعها على التفصيل وبعض شخصياتها وجزئياتها كذلك، وعلم ما لا يتناهى من الأفراد والجزئيات على الإجمال، وهذه صفة إلهية لم تكن لغيره ﷺ.

النور الثاني والعشرون

وهو النور الذي سميته نور المقايسة:

فهو كشف له أنه إذا جمع في الذهن جميع الأنبياء والرسل في تقديره لفضلهم ودليله أنه أعلم الخلق بالله، والدرجة التي هناك لا تقاس بما بعدها، وإن تعددت فإن المجموع لا يقوم منه ما يساوي، فإن الذوات لا تتحد- فاعلم.

وأيضًا إذا قلنا أنه أفضل من إبراهيم فالمرتبة أو الدرجة التي يفضله بها أي شيء يقاس بها لا بدَّ لها من تنظير تنظر معها.

ثم سلمنا أنه أرفع الأنبياء منـــزلة في الجنة، والكل دونه فلا ينفع ما عظم واجتمع فإنه مع ما هم فيه ينظر إليهم من تحت.

فاعلم ذلك ولا تَقِس الأمر فيه بالمحسوس فتقول: هو صاحب ألف درهم في التمثيل وهم من مجموعِ الكلِ منهم وإن كان لكل واحد منهم مائة جملة قيل لك: ما الأمر الذي نحن فيه، هذا يشابهه، فإنك هناك تقيس الأمر بقدره وهي درجة عند الله. فاعلم.

❁ قلت: قال الشيخ الكتاني: ومقام الوسيلة قيل: إنه مقام حسي وأنه علم على أعلى منـــزلة ودرجة في الجنة وهي منـــزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش وقيل: إنه معنوي وهو أنه يكون في الجنة في قربه من الله القرب المعنوي بمنـــزلة الوزير من الملك من غير تشبيه ولا تمثيل يتوسل ويشفع في قضاء الحاجات ورفع الدرجات ونيل المطالب وحصول جميع الرغبات ولا يصل لأحد شيء إلا بواسطته وعلى يديه والمعنيان معا صحيحان في حقه ﷺ وحينئذ فهما وسيلتان إحداهما حسية والأخرى معنوية وكل منهما مختص به ﷺ.

وفي «شفاء السقام» لتقي الدين السبكي في الباب العاشر في الشفاعة أثناء كلام له ما نصه: لكن الشيخ عبد الجليل القصري في كتاب «شعب الإيمان» له ذكر في تفسير الوسيلة التي اختص بها النبـــي ﷺ أنها التوسل وأن النبـــي ﷺ يكون في الجنة بمنـــزلة الوزير من الملك من غير تمثيل لا يصل إلى أحد شيء إلا بواسطته ﷺ انتهى.

وقال العارف بالله أبو يزيد الفاسي قدس الله سره في حواشيه على «دلائل الخيرات» وهي المسماة: بالأنوار اللامعات في الكلام على دلائل الخيرات ما نصه: الوسيلة قال السيوطي في خصائصه: هي أعلى درجة في الجنة.

وقال عبد الجليل القصري في شعب الإيمان: الوسيلة التي اختص بها هي التوسل وذلك أن النبـــي ﷺ يكون في الجنة بمنـــزلة الوزير للملك بغير تمثيل لا يصل لأحد شيء إلا بواسطته انتهى.

ونصه في «الشعب» وأما المقام الثالث من شفاعته ﷺ فإنها في الجنة وهي دائمة وهي مقام الوسيلة التي لا تنبغي إلا لمحمد ﷺ روى أبو سعيد الخدري ﷺ كما في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن وصلوا عليَّ فإن من صلى عليَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منــزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة».

وهي مشتقة من التوسل الذي هو الطلب والدعاء والتشفع فالنبــي ﷺ في الجنة في قربه من الله بمنــزلة الوزير من الملك في درجة الوسيلة يتوسل ويشفع في قضاء الحاجات ورفع الدرجات، ويستأذن في الزيارة العلية، والنظر إلى الوجه الكريم، وفتح أبواب حضائر القدس وغير ذلك، وهو أول من يتقدم للزيارة، وأول من ينظر إلى الله تعالى، وأول في كل شيء، فيتوسل لنفسه ولغيره، فلا يرد على الخلق في الجنان خير إلا على يديه ﷺ؛ لأنه أول من يرتقي في الدرجات، فيرتقي بارتقائه، ويزيد بزيادته كل من في الجنة، فافهم فهمنا الله وإياك، انتهى منه بلفظه.

قلت- الكتاني في الجلاء-: وحديث: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن» أورده هكذا في الجامع الصغير من غير زيادة وعزاه لأحمد ومالك والستة من حديث أبي سعيد، ثم أورده بلفظ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلُّوا عليَّ.. الحديث» كما تقدم وعزاه لأحمد ومسلم والثلاثة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

وحينئذ فهما حديثان دخل له أحدهما في الآخر، والله أعلم.

ومن كتاب «نقد النصوص» للعارف بالله المنلي الجامي قدس سره ما نصه:

وفي كتاب «الفكوك» يعني للشيخ الكبير صدر الدين أبي المعالي محمد بن إسحاق القونوي: الإنسان الكامل الحقيقي هو البرزخ بين الوجوب والإمكان، والمرآة الجامعة بين صفات القدم وإحكامه، وبين صفات الحدثان، وهو الواسطة بين الحق والخلق، وبه ومن مرتبته يصل فيض الحق والمدد الذي هو سبب بقاء ما سوى الحق إلى العالم كله، علوًّا وسفلاً، ولولاه من حيث برزخيته التي لا تغاير الطرفين لم يقبل شيء من العالم المدد الإلهي

الوجداني؛ لعدم المناسبة والارتباط، ولم يصل إليه، فكان يفنى وأنه عمد السماوات والأرض، ولهذا السر برحلته من مركز الأرض التي هي صورة حضرة الجمع وأحديته، ومنـــزلة الخلافة الإلهية إلى الكرسي الكريم، والعرش المجيد، المحيطين بالسماوات والأرض، ينخرم نظامها، فبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

إلى أن قال: فإذا انتقل انشقت السماء، وكُوِّرت الشمس، وانكدرت النجوم وانتثرت، وسُيِّرت الجبال، وزُلزلت الأرض، وجاءت القيامة، ولولا ثبوته من حيث مظهريته في الجنة التي محلها الكرسي والعرش المجيد لكان الحال فيهما كالحال في الأرض والسماوات، وإنما قيدت ثبوته بقولي: (من حيث مظهريته) من أجل ما أطلعنا الله عليه من أن الجنة لا تسع إنسانًا كاملاً، وإنما يكون منه في الجنة ما يناسب الجنة، وفي كل عالم ما يناسب ذلك العالم، وما يستدعيه ذلك العالم من الحق من حيث ما في ذلك العالم من الإنسان.

بل أقول: ولو خلت جهنم منه لم تبقَ وبه امتلأت، وإليه الإشارة بقدم الجبار المذكور في الحديث انتهى المراد منه بلفظه راجعه في الكلام على الفص الآدمي.

وفي عبارة لبعضهم قال: لولا ثبوت الإنسان الكامل في الجنة وعدم زواله منها لكان الحال فيها كالحال في الأرض والسماوات من زوالهما عند زواله منهما وكذا لو خلت منه جهنم لزالت، بل إذا زال عن دار أي دار كانت فإنها تـــزول بزواله، وإذا ثبت فيها فإنها تثبت بثبوته، وكذا جميع الأمكنة، ومنه تعلم أن العوالم كلها لا تخلو منه؛ لأنها لو خلت منه لتلاشت واضمحلت؛ لكونها ليس لها قيام ولا قوام إلا به، ولجمعيته للأسماء الإلهية والإمكانية، ومظهريته للطرفين، وكونه برزخًا جامعًا بين قوسي الوجوب والإمكان، لم تسعه الجنة ولا عالم من العوالم، وإنما يكون منه في الجنة ما يناسب الجنة، وفي كل عالم ما يناسب ذلك العالم، وفي جهنم ما يناسب جهنم؛ إذ لو خلت جهنم منه لم تبقَ وبه امتلأت، أعني بما يناسبها منه، وإليه الإشارة بقدم الجبار المذكور في الحديث الشريف فلتفهم والله أعلم انتهى.

وقال الشيخ شرف الدين القيصري في «شرح الفصوص» لدى ما ذكره الشيخ من أن

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٢٥

الأمر إذا انتقل إلى الآخرة يكون الإنسان الكامل ختما على خزائنها ختما أبديًا ما نصه:

و كون الكامل ختما على خزانة الآخرة دليل على أن التجليات الإلهية لأهل الآخرة إنما هي بواسطة الكامل، كما في الدنيا، و المعاني المفصلة لأهلها مفرغة من مرتبته، و مقام جمعه أبدا، كما تفرع منه أزلا، و ما للكامل من الكمالات في الآخرة، لا يقاس على ما له من الكمالات في الدنيا؛ إذ لا قياس لنعم الآخرة على نعم الدنيا، و الله أعلم.

النور الثالث و العشرون و هو نور التفضيل:

فهو يكشف له صلى الله عليه و سلم على قدره بالنظر إلى الرسل عليهم السلام و مقر له بأنه سيد ولد آدم عليه السلام.

و قول الله تعالى: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً فنحن في الأمم مثله هو في الأنبياء و الرسل عليهم السلام.

قلت: و الجملة فيه أن أفضل الخلائق سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم، و بعده أفضل الخلائق غيره من الأنبياء و المرسلين، و بعد الأنبياء و المرسلين صلوات الله تعالى عليهم أجمعين أفضل بني آدم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم.

و أدلة تفضيله صلى الله عليه و سلم على غيره من جميع الخلق، و الكلام على ذلك طويل منتشر جدا، و قد قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي:

ثبوت شرفه صلى الله عليه و سلم و أفضليته على جميع المخلوقات يكاد أن يكون معلوما من الدين بالضرورة بحيث لا يحتاج إلى مزيد دليل.

و قال المحققون: هو أفضل من كل واحد من الأنبياء و الملائكة و جميع الخلق على حدته، و أفضل من مجموعهم، و أفضل من جميعهم، و الموجودات و إن تفاوتت في الدرجات فهو في الدرجة التي لا درجة فوقها، و الآيات و الأخبار و أقاويل العلماء و الآثار الدالة على ذلك كثيرة.

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٢٦

و لله در البوصيري إذ يقول:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر و أنه خير خلق الله كلهم

النور الرابع و العشرون و هو نور الإحاطة:

فهو يكشف له أنه عين المعنى المجموع الذي إليه تصل العناية العلمية و العملية، و مع كل محمود محترم يشار إليه، فهو الذي أحاط بها، و جميع ما تفرق في الأنبياء اجتمع به و له و لأمته و في ملته صلى الله عليه و سلم.

قلت: قال سيدنا الكتاني: اعلم هداك الله، و لكل رشد و فلاح أهلك و أرشدك أنه لا خلاف بين أهل العلم كلهم في أنه عليه السلام كان معلما من قبل الله تعالى بالمغيبات الكثيرة، التي لا تنحصر كثرة و عددا، و لا ينقضي ظهورها مدى الدهور أبدا، و في أنه أوتي من علوم الكوائن الماضية و الحاضرة و المستقبلة ما تعجز عنه عقول البشر، و لم يؤته نبي و لا رسول قبله، و وقع نزاع عظيم و خبط شديد و هيم بين المتأخرين من المشارقة و المغاربة في أن علمه عليه السلام كان محيطا بالأشياء كلها حتى الخمس و الروح، و ما هو في معناهما، أو غير محيط بها، و الإحاطة بالأشياء جميعها إنما هي لله تعالى وحده، أو محيطا بها و لكن لا كإحاطة علم الله، بل إحاطة ما لا تخلو عن شيء مخصوص منها، استأثر الله به، أو متوقف فيه فلا يقال فيه: إنه محيط و لا غير محيط؛ لتعارض الأدلة، و عدم وجود قاطع، أقوال أربعة:

القول الأول: في بيان إحاطة الذات المحمدية بالعلوم الجديدة الكونية، فممن أفتى بالأول- و هو القول بالإحاطة- من المغاربة قاضي سجلماسة و أعلمها في وقته الفقيه العلامة المشارك المحقق أبو مروان عبد الملك بن محمد السجلماسي التاجموعتي المتوفى في صفر سنة ثمان عشرة و مائة و ألف، لما سأله عن هذه المسألة جدنا للأم المحب في الجانب النبوي المداح له العلامة المؤلف الناظم الناثر الصوفي الولي الصالح أبو العباس أحمد بن عبد الحي الحلبي الشافعي نزيل فاس و دفينها.

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٢٧

و قال في جوابه له: إن النبي صلى الله عليه و سلم لم يفارق الدنيا حتى علم كل شيء.

و لما بلغ جوابه هذا لعلماء فاس و ما هو في حكمها أنكروه، و بالغوا في التشنيع عليه حتى إن بعضهم نسب معتقده هذا إلى الكفر، فلما بلغه هذا الإنكار رد عليهم أبلغ رد في جواب له كتبه في هذه المسألة، و قال فيه: و إني لأقضي العجب من المنكرين لذلك مع ورود الأحاديث الصحيحة به.

ففي «كبير» الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما عنه صلى الله عليه و سلم قال: «أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس «١»». و عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه مثله.

و قد تقرر أن الاستثناء معيار العموم، و عليه فعلمه صلى الله عليه و سلم محيط بكل شيء سوى الخمس، و الخمس قد علمها صلى الله عليه و سلم بعد على ما عليه المحققون؛ إذ هو صلى الله عليه و سلم من لدن بعثه الله إلى أن قبضه في الترقيات و التجليات فبحسبها ورد: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل».

«لا تفضلوا بين الأنبياء».

ثم ورد بعد أنه علم الخمس، و أنه سيد ولد آدم يوم القيامة و لا فخر، و ما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائه.

و قال الحافظ السيوطي: أوتي صلى الله عليه و سلم علم كل شيء إلا الخمس.

و قيل: إنه أوتيها أيضا و أمر بكتمها، و الخلاف جار في الروح.

و إذا تقرر هذا علم أنه صلى الله عليه و سلم أحاط بكل شيء علما فضلا من الله تعالى فما يقال لفضل الله ذا فكم؟ و قال البوصيري:

دع ما ادعته النصاري في نبيهم و احكم بما شئت مدحا فيه و احتكم «٢»

---

(١) رواه الطبراني (١٢/ ٣٦٠) (١٣٣٤٤)، و قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٦٣): رجاله رجال الصحيح.

(٢) البيت للبوصيري في البردة (ص ١١٢) طبع دار المصطفى.

و في «الصحيح»· أنه صلى الله عليه و سلم قال: «سلوني عما شئتم «١»».

و لا شك أنه كالنص في التحدي بهذه الخصوصية، فتلحق بالمعجزات، و ما في الكتاب العزيز من الآي الدالة على أنه لا يعلم الغيب إلا الله محمول على العلم بغير واسطة.

و أما الاطلاع على ذلك بإعلام الله فأمر متحقق؛ لقوله: عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً. إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ [الجن: ٢٦- ٢٧]

و في «الطبراني» عن ابن عمر مرفوعا: «إن الله قد رفع لي الدنيا، فأنا أنظر إليها و إلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كأنما أنظر إلى كفي هذه «٢»».

و القول الفصل: إنه صلى الله عليه و سلم أوتي علم كل شيء قبل أن يفارق الدنيا، و قد اتضح أن المنكر إما جاهل فيعلم، أو ملحد فيؤثم، ثم ليت شعري ما وجه الإنكار؟ فإن مسألة لم تخرج عن دائرة الإمكان، و كل ما كان سبيله ذلك، و أخبر الصادق المصدوق بوقوعه وجب المصير إليه اعتقادا و اعتمادا، و الله يقول الحق و هو يهدي السبيل، و حسبنا الله و نعم الوكيل، انتهى باختصار.

و قد كتب بعده موافقا عليه الفقيه الأوحد سيدي مسعود جموع مستدلا على الموافقة بحديث أحمد و الترمذي عن معاذ في وضع الرب تعالى كفه بين كتفيه في المنام فتجلى له بها كل شيء، ثم إن التاجموعتي ألف في المسألة رسالة سماها: «ملاك الطلب و جواب أستاذ حلب»، و في «نشر المثاني في أهل القرن الحادي و الثاني» في ترجمته كلاما آخر له في هذه المسألة في بعض رسائله، يصحح فيه القول بما رآه فيها و يرد القول بخلافه، راجعه.

و ممن أفتى به من المشارقة الفقيه الأريب المشارك الأديب: أبو عبد الله محمد بن أحمد المنوفي المصري الشافعي نزيل مكة المشرفة، المتوفى سنة أربع و أربعين و ألف، ذكر ذلك المحبي في «خلاصة الأثر في أعيان أهل القرن الحادي عشر» في ترجمته، و نصه:

---

(١) رواه البخاري (١/ ٤٧)، و مسلم (٤/ ١٨٣٤).

(٢) رواه نعيم بن حماد في الفتن (١/ ٢٧)، (٢).

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٢٩

و مما اتفق له أنه سئل: هل كان النبي صلى الله عليه و سلم يعلم السحر و يعرفه على التعميم؟

فأجاب عنه: إنه كان يعلم كل شيء منه و من غيره من غير شك انتهى.

و انظر هل أرادوا بهذه الإحاطة، و هذا العلم علوم الكائنات خاصة كما هو الظاهر المتبادر، أو ما يشمل علوم الذات العلية، كما فهمه من رد كلامهم و اعتمد ملامهم، فإن كان الأول فلا ملام على ما نفصله، و إن كان الثاني فهو بعيد من المقام، و الله أعلم.

القول الثاني في بيان إحاطة الذات المحمدية بالعلوم الجديدة الكونية:

و ممن أفتى بالثاني، و هو القول بعدم الإحاطة، من المغاربة العلامة الأشهر و المحرر الأكبر أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، و الكثير من علماء المغرب، و خصوصا أهل فاس، و قالوا: إن الإحاطة بالأشياء كلها إنما هي لله، و القائل بالإحاطة لغيره إن كان يعتقد و يرى مساواة علم غيره تعالى لعلمه فهو كافر، و بعض المعاصرين للتاجموعتي من علماء فاس ألف في رد كلامه مؤلفا سماه: «المنهج القويم في قصر الإحاطة على العلم القديم».

و استدل بآيات و أحاديث و نصوص، كقول الشيخ علي الأجهوري في شرحه لمختصر خليل في باب مصرف الزكاة: إن القائل بأن الأنبياء يعلمون ما كان و ما يكون مبتدع يكفر ببدعته اتفاقا انتهى.

قلت: و عبارة الشيخ إبراهيم بن مرعي الشبرخيتي في شرحه: و لا يعطي منها- يعني الزكاة- إجماعا من يكفر ببدعته اتفاقا، كالقائل بنبوة علي رضي الله عنه و أن جبريل غلط، و القائل بأن في الأئمة رسولين: ناطق، و صامت، فالناطق: محمد صلى الله عليه و سلم، و الصامت: علي، و القائل بأن الأنبياء و الأئمة يعلمون ما كان و ما يكون و شبههم، انتهى منه بلفظه.

و مثله للشيخ عبد الباقي الزرقاني، و أشار محشيه البناني إلى أنه وقع في كلامهم خلل و تحريف، فكتب على كلام الزرقاني ما نصه:

عبارة ابن رشد في رسم العتق من سماع عيسى: و من يقول أن الأئمة أنبياء يعلمون ما كان و ما يكون إلى يوم القيامة انتهى.

أي فهذا هو الذي يكفر ببدعته، كما في النص دون ما ذكره هؤلاء، و كيف يقال

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٣٠

بتكفير من يقول أن الأنبياء و الأولياء يعلمون ما كان أو يكون من قبل الله تعالى، و هؤلاء جماعة من الصحابة يقولون: إن رسول الله صلى الله عليه و سلم أعلمهم بما كان و يكون إلى يوم القيامة.

و هذا علي رضي الله عنه يقول كما تقدم: سلوني فو الله لا تسألوني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا حدثتكم به، و هو واضع علم الجفر المحتوي على علم ما كان و يكون.

و هذا ابنه الحسن يقول فيه حين قتل: لقد فارقكم بالأمس رجل ما سبقه الأولون بعلم و لا أدركه الآخرون. أخرجه أحمد «١».

و هؤلاء جماعة من الأولياء الكبار أخبروا عن انفسهم بأنهم يعلمون ما كان و يكون بإعلام الله، أفيقدر أحد على أن يعممهم بشيء فضلا عن أن يكفرهم، إلا إن كان و العياذ بالله تعالى ممكورا به ممن سبقت له من الله الشقاوة الكبرى و الخزي الدائم، فالاستدلال بكلام علي الأجهوري هذا و بكلام أتباعه فيه ساقط.

ورد كلامه أيضا- أعني كلام التاجموعتي- الشيخ أبو علي اليوسي المذكور و كان معاصرا له- برسالة لطيفة، قال فيها:

ينبغي أن نعتقد تعظيم نبينا صلى الله عليه و سلم و نعتقد أنه أعطي العلم و النور و سائر مراتب الكمالات اللائقة به ما لم يعط أحد من العالمين؛ لأنه خير الخلق أجمعين.

ثم نكتفي بهذا و ما أشبهه، و لا نطالب بالبحث من إحصاء ما علم، فإنه أمر لا تبلغه عقولنا، و ليس مطلوبا منا، فالاشتغال به فضول من ثلاثة أوجه، ثم بينها، و محصلها أن هذا أمر غير مطلوب منا، و إنا لا نبلغ إلى إحصائه و لو اجتهدنا، و أن الباحث فيه إما أن يقع في استنزال صفوة الله من خلقه عن مرتبته الرفيعة، أو في سوء الأدب مع الله تعالى في تشبيه خلقه به، ثم ذكر أن القائل بالتعميم في حقه عليه السّلام إن أراد الحقيقي بحيث يكون علمه على حد علم الله تعالى، فلا فرق بينهما، فقد وقع في الورطة العظمى و الشرك مع الله مخسرة، و ما يوجد من حديث أو أثر من علمه عليه السّلام كل شيء على الإجمال لا يفيد شيئا؛ لأن العمومات تقع حقيقية و إضافية بحسب صنف الوقوع.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ١٩٩).

و قد قال الله في حق سيدنا موسى: وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ [الأعراف: ١٤٥].

ثم قال له مع ذلك: عبد لنا بمجمع البحرين هو أعلم منك.

و لما لقي الخضر قال له: يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه أنت. و قال له:

ما نقص علمي و علمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من البحر.

و قال تعالى في القرآن: ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ [الأنعام: ٣٨].

و قال: تبيانا ما لكل شيء.

ثم قال له: وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [طه: ١١٤].

و إن أراد الإطلاق فعليه بيانه ليستفاد الحكم على الكلية بحسبه، و إلا فهو كلام محمول لا تحصل منه فائدة.

ثم ذكر إن شئنا عبرنا في حقه عليه السلام بالكلية، و لكن مع إرادة التقييد بجنس أو نوع أو صنف كأن نقول: يعلم جميع ما ينبغي لمثله أو كل ما تبلغه عقول البشر، أو كل ما لم يستأثر الله بعلمه أو نحو هذا مما نجزم بصحته و نعتقد أن كل علم فرآته نقص غير لائق به في حاله فهو حاصل له؛ لأنه في عين الكمال إلى غير هذا من كلامه، فليراجع في رسالته المذكورة، و هي في نحو من ثلاثة أوراق، و له في هذه المسألة رسالة أخرى كبيرة لم أقف الآن عليها.

و قد أشار إليها في «نشر المثاني» في ترجمته فقال: و له كلام في كراريس مع قاضي سجلماسة الشيخ أبي محمد عبد المالك التاجموعتي في قوله صلى الله عليه و سلم: «أوتيت علم كل شيء» انتهى.

و ممن أفتى به من المشارقة الشيخ نجم الدين محمد بن محمد بن محمد الغزي الدمشقي الشافعي محدث الشام و مسندها و شيخ الإسلام بها، و الأستاذ الكبير العالم الصوفي الشهير صاحب التحريرات و الرسائل التي لا حصر لها الشيخ أيوب بن أحمد بن أيوب الحنفي الخلوتي الصالحي المتوفى في صفر الخير سنة إحدى و سبعين و ألف، و ذلك أن المتوفي السابق

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٣٢

لما قال مقالته السابقة، و هي أنه عليه السّلام كان يعلم كل شيء من السحر و غيره من غير شك.

نقل جوابه هذا إلى الشيخ نجم الدين الغزي السابق فغضب غاية الغضب و قال: إنه افتراها.

قال في «خلاصة الأثر»: و أخذ النجم يقيم عليه الحدود في درسه كل ليلة و يقول:

إنه إن أصر على ذلك كفر، و نطلب من أقرانه عمل رسالة على وفق مراده فامتنعوا من ذلك و قالوا: إنه أخطأ حيث قالها للعوام.

و منهم من أحجم و لم يتكلم، و قال: قد وقع فيها خلاف و ما رجحوا منها قولا ينقل، و طال التنقيب على هذه المسألة.

قال في «الخلاصة»: حتى ألف الشيخ أيوب الخلوتي المتقدم ذكره في ذلك رسالة سماها «الصك الموفي على رقبة المنوفي»، و هي رسالة جامعة لكل منثور و منظوم، فكف بعد المنوفي عن الدرس انتهى. راجعها في ترجمة المنوفي المذكور.

قلت: و لا أدري إنكارهم عليه هل هو من جهة نسبته إلى النبي صلى الله عليه و سلم العلم بعلم السحر، أو من جهة ما تضمنه كلامه من أنه كان يعلم كل شيء، أو من جهتيهما معا، فإن كان الأول فإنما يتوجه إنكارهم لو أراد أنه كان يعلمه بالتعلم من السحرة و نحوهم؛ إذ هذه رذيلة لا تليق بآحاد المسلمين فضلا عن جنابه صلى الله عليه و سلم، و ليس في كلامه ما يفيد هذا أو يشعر به، أما لو كان أراد أن الله تعالى أعلمه به و بكيفيته من جملة العلوم التي أعلمه اياها و أمده بها معجزة له- كما هو المتبادر من المقام- فلا إنكار.

و قد ذكر في «الفتوحات» في الباب الثالث و السبعين و مائتين أنه اطلع في جملة ما أطلعه الله عليه في بعض الحضرات على خزائن العلوم المهلكة، و رأى فيها علوما ما انشغل بها أحد إلا هلك من علوم العقل المخصوصة بأرباب الأفكار من الحكماء و المتكلمين، و رأى منها ما يؤدي صاحبه إلى الهلاك الدائم، و ما يؤدي صاحبه إلى هلاك ثم ينجو غير أنه ليس لنور الشرع فيه أثر البتة من علوم البراهمة كثيرا، و من علوم السحر و غير ذلك، قال: فحصلت جميع ما فيها من العلوم لتجنبها، و هي أسرار لا يمكن إظهارها، و تسمى علوم السر. انتهى راجعه.

و إن كان الثاني، فلا إنكار أيضا إلا إن كان يريد العموم الحقيقي اللازم منه مساواة

:

علمه صلى الله عليه و سلم لعلم الله تعالى، و ليس في كلامه ما يعين هذه الإرادة.

و إن كان الثالث فجوابه يعلم من جواب هذين فليتأمل، و الله أعلم.

و مما يؤيد فتواهم- أعني فتوى أصحاب هذا القول الثاني- كلام عياض في «الشفا» في القسم الثالث في الباب الأول منه في فصل حكم عقود الأنبياء في غير التوحيد و الإيمان، و نصه:

و أما ما تعلق بعقده يعني بجرم قلبه من ملكوت السموات و الأرض و خلق الله تعالى و تعيين أسمائه الحسنى و آياته الكبرى، و أمور الآخرة، و أشراط الساعة، و أحوال السعداء و الأشقياء، و علم ما كان و ما يكون مما لم يعلمه إلا بوحي، فعلى ما تقدم من أنه معصوم فيه لا يأخذه فيما أعلم به منه شك و لا ريب، بل هو فيه على غاية اليقين، لكنه لا يشترط له العلم بجميع تفاصيل ذلك، و إن كان عنده من علم ذلك ما ليس عند جميع البشر؛ لقوله عليه السلام: «إني لا أعلم إلا ما علمني ربي «(١)».

و لقوله حكاية عن ربه: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت و لا أذن سمعت، و لا خطر على قلب بشر، بل ما اطلعتم عليه و اقرؤا إن شئتم: فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ [السجدة: ١٧] «(٢)».

و قول موسى للخضر عليهما السلام: هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً [الكهف: ٦٦].

و قوله عليه السلام: «أسألك بأسمائك الحسنى ما علمت منها و ما لم أعلم «(٣)».

و قوله: «أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك».

و قد قال تعالى: وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ [يوسف: ٧٦].

---

(١) رواه أبو الشيخ في العظمة (٢/ ١٤٦٨).

(٢) رواه البخاري (٣٠٧٢)؛ و مسلم (٢٨٢٤).

(٣) رواه أحمد في المسند (١/ ٣٩١).

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٣٤

قال زيد بن أسلم و غيره: حتى ينتهي العلم إلى الله تعالى.

و هذا مما لا خفاء به؛ إذ معلوماته لا يحاط بها و لا منتهى لها، انتهى منه بلفظه.

و قد ترى أنه يلزم مما قاله التاجموعتي و من وافقه إن قلنا: إنهم أرادوا بالإحاطة الإحاطة الكاملة- و هي الحقيقية- مساواة العلم الحادث للعلم القدين في العموم، و الإحاطة و المساواة فيهما تستلزم المماثلة في الحقيقة و الذات، و هي مستلزمة لحدوث العلم القديم، بل و لسائر لوازم العلم الحادث من العرضية و الافتقار و غيرهما، و اعتقاد ذلك و القول به كفر، و ممن أشار إلى هذا الشيخ الأستاذ شهاب الدين أحمد الملوي المصري في شرحه الكبير لسلم الإمام الأخضري في علم المنطق «١» لدى قوله:

صلى عليه الله ما دام الحجا يخوض في بحر المعاني لجحا

نصه فيه: قال المصنف يعني الأخضري و في هذا: أي في قوله: (يخوض في بحر المعاني لجحا) تنبيه على أنه لا يحتوي على جميع المعاني إلا الله تعالى، كما قال: وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما [البقرة: ٢٥٥].

و قال تعالى: وَ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ [يوسف: ٧٦].

و قال تعالى: وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [طه: ١١٤].

قلت- أي: قال العلامة الملوي- و هو صريح في الرد على من ادعى أن النبي صلى الله عليه و سلم علمه مساو لعلم الله تعالى، محيط بكل شيء من كل وجه إحاطة كإحاطة علم الله تعالى فإنه ما توفي حتى أعلمه الله بكل شيء.

و قد ألف شيخ شيوخنا العلامة اليوسي تأليفا في الردّ على من زعم ذلك و تكفيره، و استدلّ على ذلك بأدلة عقلية و نقلية، كيف و هو مصادم أيضا؛ لقوله تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ [الأنعام: ٥٩].

و قوله تعالى: وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً [طه: ١١٤].

---

(١) انظر فيه: (ص ٨٦).

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٣٥

و قوله تعالى: وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ [الأعراف: ١٨٨] الآية.

و قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ [لقمان: ٣٤] الآية.

و على القول بأن الله تعالى أعلمه صلى الله عليه و سلم مفاتيح الغيب فليس علم إحاطة كعلمه تعالى، و هو مصادم أيضا للإجماع على أن سرّ القدر لم يعلمه و لا يعلمه نبي مرسل و لا ملك و لا غيرهما من هو من مواقف العقول، و يلزم أن يكون علمه صلى الله عليه و سلم مساويا لعلم الله تعالى، و مماثلا له في الإحاطة و الحقيقة، فلزم حدوث علمه تعالى للمماثلة؛ لأنه يجب لأحد المثلين ما وجب للآخر، بل و يلزم سائر لوازم العلم الحادث من العرضية و الافتقار و غيرهما، و لا يجاب بالاختلاف بالقدم و الحدوث؛ لأن القدم و الحدوث خارجان عن حقيقة العلم، و الحقيقة لا تختلف بالعوارض، و أما الأحاديث الموهمة خلاف تلك القواطع فمؤولة، أما عدم ادعاء المساواة لعلم الله كأن يقال: إن النبي صلى الله عليه و سلم علم علم الأولين و الآخرين فلا يمتنع؛ لأن ذلك ليس مستلزما لمساواته لعلم الله تعالى و الإحاطة من كل وجه.

و من أقوى ما يرد به على هذا القائل أيضا ما ورد في الحديث من أنه صلى الله عليه و سلم يلهم في الآخرة محامد يحمد بها الله عزّ و جلّ لم يكن ألهمها قبل، لكن شيخ شيخنا بالغ في القول بتكفيره.» و الذي يظهر عدم التكفير؛ لأن هذه اللوازم بعيدة لا يقول بها هذا القائل مع أن لازم المذهب ليس بمذهب، خصوصا إذا كان اللازم بعيدا. انتهى منه بلفظه.

و قد نقل تلميذه العلامة الصبان أوله و آخره و حذف وسطه من قوله: كيف و هو مصادم أيضا إلى قوله: لكن شيخ شيخنا و ذلك في حاشيته على الشرح الصغير للملوي على السلم المذكور و أقره.

و القدر: قال الشيخ الكتاني: و فيه بحثان: أحدهما: في قوله: و هو مصادم أيضا للإجماع على أن سر القدر لم يعلمه و لا يعلمه نبي مرسل و لا ملك و لا غيرهما، فإنه مخالف كما في نصوص الناس من أن الذي لم يعلمه و لا يعلمه أحد القدر لا سره.

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٣٦

قال النووي في «شرح مسلم» في كتاب القدر ما نصه «١»:

القدر سرّ من أسرار الله التي ضربت من دونها الأستار، اختص الله به وحجبه عن عقول الخلق و معارفهم لما علمه من الحكمة، و واجبنا أن نقف حيث حد لنا و لا نتجاوزه، و قد طوى الله تعالى علم القدر عن العالم، فلم يعلمه نبي مرسل و لا ملك مقرب، و قيل:

إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، و لا ينكشف قبل دخولها، و الله أعلم انتهى منه.

و في «فصوص الشيخ الأكبر» في فص الحكمة الشيثية وقوف بعض أصناف أهل الله أي: اطلاعه على سر القدر.

و في كلام الشيخ أبي حامد في «إحيائه» أن سر القدر من الخفيات التي يعلمها الأنبياء و الصديقون إلا أنهم منعوا من إفشائها.

و في الفصل الثاني من كتاب «قواعد العقائد» عندما تعرض فيه لذكر الأسرار التي تختص المقربون بدركها، و لا يشاركهم الأكثرون في علمها، و يمنعون من إفشائها إليهم، و قسمها إلى خمسة أقسام ما نصه:

القسم الثاني من الخفيات التي تمتنع الأنبياء و الصديقون عن ذكرها، ما هو مفهوم في نفسه لا يكل الفهم عنه، و لكن ذكره يضر بأكثر المستمعين و لا يضر بالأنبياء و الصديقين، و سر القدر منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم انتهى المراد منه بلفظه «٢».

و قال أيضا في كتاب الرجاء و الخوف عند تعرضه للسؤال عن السبب الموجب لإكرام هذا و تخصيصه بسليط إرادة الطاعات عليه، و إماتة الآخر، و إبعاده بتسليط دوام المعصية عليه، و أنه كيف يحال ذلك على الضد و الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جناية و لا وسيلة ما نصه: و وراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يجوز إفشاؤه انتهى.

---

(١) انظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٩٦).

(٢) انظر: لطائف الأعلام للقاشاني (ص ٢٤٧).

قال شارحها: و قد جاء في الخبر: القدر سر الله فلا تفشوه.

فهذا خطاب لمن كوشف به.

و في لفظ آخر: «ستر الله». و هذا خطاب لمن لم يكاشف به، و قد نهي عن السؤال عنه انتهى.

قلت في الجامع: «القدر سر الله»، و لم يذكر له مخرجا و لا راويا على خلاف عادته.

و قد خرجه أئمة مشاهير منهم أبو نعيم في «حليته»، و ابن عدي في كامله، عن ابن عمر، و له تتمة عند مخرجه و هي: فلا تفشوا سره.

و يخالفه أيضا ما ذكره الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه «الجواهر و الدرر» و نصه:

سألت شيخنا- يعني الشيخ سيدي عليّا الخواص- عن سر القدر المتحكم في الخلائق، هل اطلع عليه أحد من الأولياء المحمديين؟ فقال رضي الله عنه: نعم، لكن بحكم الإرث لرسول الله صلى الله عليه و سلم لا بحكم الأصالة، و لم يعط علمه لأحد من الأنبياء غير نبينا صلى الله عليه و سلم انتهى المراد منه، و راجعه.

و ما ذكره السيد الجرجاني في «تعريفاته «١»» و نصه:

المستريح من العباد من أطلعه الله على سر القدر؛ لأنه يرى أن كل مقدور يجب وقوعه في وقته المعلوم، و كل ما ليس بمقدور يمتنع وقوعه، فاستراح من الطلب و الانتظار لما لم يقع، انتهى منه بلفظه.

و ما ذكره القاشاني في لطائفه في ترجمة سر القدر و نصه «٢»:

فسر القدر من أجل العلوم و ما يفهمه الله إلا لمن اختصه بالمعرفة التامة، فالعلم به

---

(١) انظره فيه: (٦٥٣).

(٢) انظر: لطائف الأعلام (ص ٢٤٧).

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٣٨

يعطي الراحة الكلية للعالم به: و يعطي العذاب الأليم للعالم به أيضا إلا لمن أشهده الله عينه الثابتة؛ لأنه من أكابر السعداء، فهذا الشخص يسميه شيخنا صفاء خلاصة خاصة الخاصة، كما ذكر ذلك في الفصل الشيثي من كتاب «فصوص الحكم» انتهى.

ثم وجدت الشيخ الأكبر في «فتوحاته» في الباب الثالث و السبعين في الكلام على السؤال الثالث و الثلاثين من أسئلة الحكيم الترمذي، و ما سبب طي علم القدر الذي طوي عن الرسل فمن دونهم ذكر أنه ليس ثمّ من يعلم علم القدر، و أن من علم الله علم القدر، و من جهل الله جهل القدر، و الله سبحانه مجهول، فالقدر مجهول.

قال: و لكن قد يعلم سره و تحكمه على هذا القبل المماثلة في الحقيقة و الذات، و ذلك أن إحاطة علمه عليه السّلام على تقدير القول بها عارضة و طارئة مستفادة و مكتسبة منه تعالى فضلا منه عليه و منا، فهي حادثة و هي من حيث ذاتها و نفس حدوثها قابلة لطروء النسيان و العدم، و نحوهما من جميع التغيرات، و إحاطة علمه تعالى متأصلة ذاتية، غير مكتسبة و لا مستفادة في شيء، فهي قديمة و لا تقبل التغير بحال لقدمها و الاختلاف بينهما بهذه الأوصاف يدل على الاختلاف بينهما بالحقيقة و الذات، كما هو الواقع؛ لأن الاختلاف في اللوازم يدل على الاختلاف في الملزومات، و إن عجزنا نحن عن بيان وجه الاختلاف فيها لجهلنا بالحقيقة، و عدم علمنا بها، و لا نقول أن الاختلاف بينهما إنما هو بالقدم و الحدوث خاصة حتى يقال إنهما خارجان عن حقيقة العلم و الحقيقة لا تختلف بالعوارض بل نقول بشيء آخر لا نعلمه نحن و لا نفهمه، و لا يدخل تحت عقولنا، و القدم و الحدوث و إن اختلافهما بذلك يدل على اختلافهما في الحقيقة لا أن الاختلاف في الحقيقة وقع بهما كما فهم الملوي فافهم.

و مما يؤيد هذا و يرشحه ما في العهود المحمدية في عهد لا يدعي العلم إلا لغرض شرعيّ أثناء كلام له و نصه:

و معلوم الله هو العلم الذي يبثه في قلوب عباده، و هو غير علمه الأزلي الخاص به؛ لأن علم الخلق و إن كان من جملة علم الله، ففيه رائحة الحدوث من حيث إضافته إلى الخلق.

فافهم و إياك و الغلط. انتهى منها بلفظها فتأمله.

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٣٩

و يزيده أيضا ما في الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي و نصه:

إن علم الأنبياء و الأولياء إنما هو بإعلام من الله لهم، و علمنا بذلك إنما هو بإعلامهم لنا، و هذا غير علم الله تعالى الذي تفرد به، و هو صفة من صفاته القديمة الأزلية الدائمة الأبدية المنزهة عن التغير، و سمات الحدث و النقص و المشاركة و الانقسام، بل هو علم واحد علم به جميع المعلومات كلياتها و جزئياتها، ما كان منها و ما يكون أو يجوز أن يكون ليس بضروري و لا كسبي و لا حادث بخلاف علم سائر الخلق. انتهى منها بلفظها أيضا.

و عليه فما ألزموه على القول بالإحاطة الحقيقية في علمه صلى الله عليه و سلم من حدوث علمه تعالى و غير ذلك لا يلزم.

و قد نقل غير واحد عن الأستاذ الكبير، و العارف الشهير الغوث الرباني، و الهيكل الصمداني شيخ الإسلام على الإطلاق، و علامة الزمان بالاتفاق شمس الدين أبي المكارم أبيض الوجه، محمد بن الأستاذ الأعظم، المجتهد المطلق، الولي المفسر، تاج العارفين، أبي الحسن محمد بن جلال الدين أبي البقاء محمد بن عبد الرحمن البكري الصديقي الشافعي المصري قطب دائرة السادات البكريين، و صاحب الصلوات النبوية التي منها صلاة الفاتح لما أغلق ذات الفضائل الجمة و الحاوية لاسم الله الأعظم المولد ليلة الأربعاء ثالث عشر ذي الحجة ختام سنة ثلاثين و تسعمائة أنه ذكر أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يعلم جميع علم الله تعالى.

قلت: و الأستاذ المذكور كان نظير الشيخ عبد القادر الجيلاني في عصره من حيث الناطقين في الخلائق، و قد أعلمنا به فعلمناه بحمد الله، انتهى المراد منه.

فتبين أن الذي لم يعلمه و لا يعلمه نبي مرسل و لا ملك و لا غيرهما هو القدر لا سره، و الفرق بينهما أن القدر صفة نفسية للذات بها يتخصص المعلوم بما يكون عليه من الاستعدادات، فهو مما لا يمكن أن يعرف، و لا أن يطلع عليه أحد بوجه قط؛ لأنه لو عرف لعرف كنه الذات، و ذلك محال، و سره ما هو عليه المعلوم في نفسه من الاستعدادات الثابتة في العلم، فهو مانع للقدر، و تحكمه هو حكمه في الأشياء و عليها بها: أي بما أعطته المعلومات مما هي عليه في نفسها، فهو مانع لعين الشيء الذي يحكم فيه، و عليه بما تقتضيه ذاته، و بذلك كانت لله تعالى على خلقه الحجة البالغة؛ إذ ما أعطاهم إلا ما طلبوه منه

بالسر استعداداتهم، فكان إيجاده للأشياء كلها، و إفاضته لصورها و لوازمها بحسب القوابل و الاستعدادات لا غير، فإن قلت: الأعيان الثابتة و استعداداتها فائضة من الحق، فهو جعلها كذلك.

قلت: الأعيان نسب مجعولة مجعل الجاعل، و إنما هي صور علمية للأسماء و الصفات الإلهية، فهي بظاهرها و أسمائه تعالى و صفاته، غير ذاته عند العلماء بالله، و ليست بشيء زائد على الذات، إلا بالاعتبار و التعقل و الذات أزلية أبدية، لا تتغير و لا تتبدل، و أحكامها قديمة لا تعلل، راجع «الفصوص» و شروحها في فص الكلمة العزيزية.

و الثاني: في قوله: إنه يلزم إذا قلنا: إن علمه عليه السلام مساو لعلم الله أن يكون مماثلا له في الإحاطة و الحقيقة، فإنه قد يقال: لا يلزم من المساواة في الإحاطة و العموم الذي هو المدعى.

عن المرتبة، و هو الذي تكلم على نقطة البسملة في الجامع الأزهر في ألفي مجلس، و في ألف التي في افتتاح الاسم الجامع من آية الكرسي أكثر من ذلك، و له مناقب مشهورة و كرامات عجيبة مأثورة.

و قد ذكروا عنه أنه بلغ درجة القطبانية العظمى و هو القائل: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله تعالى مشرقا كان أو مغربا، و هو لسان حال القطب الأعظم، و القائل:

تألت مرآة العز ألايرى فيها سوانا و جاءتنا عليها مواثق

و ما فخرنا بأشياء بقين و إنما بها و بهم دارت علينا المناطق

و القائل:

و لم يبق ما بين الأثير إلى الثرى مقام و لم يزهو لنا فيه موكب

و لو رام قوم قربهم لإلههم و لم يخدموا أعتابنا لم يقربوا

و القائل:

لئن كان فخر الأقدمين صحائفا فإنا لآيات الكتاب فواتح

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص: ٢٤١

لیعتز من یهوي هوانا فإننا لنا العز ما غنت بأیك صوائح

عقم الزمان مقدما و مؤخرا و القائل: عن أن تحیط بمثلي الأفاق

و القائل:

و قام یرفض ناسوت الوجود بنا كشفا فنظهر و اللاهوت یخفینا

و القائل:

فإن شئت أن تلقى المحبین كلهم فحسبك من كل الورى أن ترانیا

و القائل:

و ها أنت طفت شرق الوجود فلا تلق لي مثلا و لا تلق لي شكلا

و القائل:

و اجمع صحابي و المحبین كلهم فلن یروا مثلي من الناس حامیا

فجاهي جاه لم یخطر بحضرة و في كل وقت یعظم الله جاهیا

و القائل:

فانهض إلى قبلة العرفان حافیا و مرغ الخد في أعتابنا حینا

و نادنا للذي ترجوه و نزهنا من ریب الزمان فلا رد لراجینا

انظر: «الكوكب الدري في مناقب الأستاذ محمد البكري» لأبي السرور البكري، و «عمدة التحقیق في بشائر آل الصدیق» للشیخ إبراهیم بن عامر بن علي العبیدي المالكي، فأشكل علیه في هذه المقدمة جماعة من المنكرین علیه في عصره و بعده، و قالوا: إنها تشمل بظاهرها جمیع الواجبات و المستحیلات و الجائزات، الموجودات و المعدومات، الحاضرات و الماضیات، و الثابتات جملة و تفصیلا، كما في علمه تعالى، فیلزم منه مساواة علم غیره تعالى لعلمه، و هو خلاف العقل و النقل، أما العقل فلأنه لا یتصور شرعا اشتراك المخلوق مع الخالق في نعت من النعوت بحسب الوصف الحقیقي أبدا، لما یلزم علیه من حدوث ذلك الوصف المستلزم لحدوث الذات العلیة، تعالى سبحانه عن ذلك علوا كبیرا.

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٤٢

و أما النقل فلقوله: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: ١١] يعني ذاتا و صفاتا و أفعالا.

و قوله: وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً [الإخلاص: ١] يعني مثلا: أَحَدٌ: أي لا في ذات و لا في صفة و لا في فعل، بل ادعاء المساواة في العلم و نحوه عدّه جماعة من المكفرات لمن اعتقده، بل ذكر علي القاري في «موضوعاته الكبرى» أنه كفر إجماعا.

و في بعض العبارات المنسوبة لبعض الأئمة المتأخرين قال: قد جاهر بالكفر بعض من يدعي العلم في زماننا، و هو متشبع بما لم يعط، فزعم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم كان يعلم الخمس و غيرها، و كل ما يعلمه الله تعالى و هؤلاء الغلاة عندهم علم رسول الله صلى الله عليه و سلم منطبق على علم الله تعالى سواء بسواء، فكل ما يعلمه الله تعالى يعلمه رسول الله صلى الله عليه و سلم، و من اعتقد تسوية علم الله تعالى و علم رسوله صلى الله عليه و سلم يكفر إجماعا كما لا يخفى انتهى.

و أجاب بعضهم عنه بأنه لا يدعي مشاركته صلى الله عليه و سلم لربه تعالى في علمه الحقيقي الذاتي حاشا و كلا، و لا مساواة علمه لعلمه في الحقيقة و الذات، و لا يلزم من علمه جميع علمه على ما قاله الشيخ أو غيره، ذلك لأن علمه تعالى واجب، و هو صفة من صفاته الأزلية الأبدية القائمة بذاته العلية، المنزهة عن التغير و النقص و الزيادة و المشاركة و الانقسام و المحو و الإثبات، و غيرها من سمات الحدوث، ليس بضروري و لا كسبي و لا دفعي و لا تدريجي، و لا مستمد من شيء، بل من ذاته العلية، بخلاف علمه صلى الله عليه و سلم، فإنه جائز و ليس بواجب، حادث لم يكن ثم كان، و يجوز عليه بالنظر لذاته طروء العدم و نحوه، و يوصف بالضرورة و بالكسب و بكونه دفعيا أو تدريجيا، و هو مستمد من الله تعالى لا من ذاته؛ لأنه بإعلامه تعالى و اطلاعه، و قد قال: فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً. إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ [الجن: ٢٦- ٢٧] و هذا رسول، بل أعظم الرسل و أفضلهم، فلا بعد في أن يطلعه الله تعالى على جميع معلوماته، و لا محذور في ذلك عقلا، فإن الاختلاف المذكور قاطع بأن الحقيقة غير الحقيقة، و بأنه لا مشاركة بينهما في الذات أصلا، بل بأن بينهما غاية التباين.

و بنحو من هذا الجواب أجاب عن العارف المذكور الفقيه الكبير، مفتي حلب المحدث الواعظ أبو حفص عمر بن عبد الوهاب بن إبراهيم الحلبي الشافعي القاضي، المتوفى سنة أربع و عشرين و ألف حين سئل، و هو في مجلس درسه عن مقالة الأستاذ المذكور حسبما ذكره في «خلاصة الأثر» و نصها:

و من تعليقاته جوابه عن مقالة الأستاذ محمد البكري أن النبي صلى الله عليه و سلم كان يعلم جميع علم الله تعالى، و قد سئل عنها في مجلس درس فأجاب بأن مقالة الشيخ هذه صحيحة، و لا إنكار عليه فيها؛ إذ يجوز أن الله تعالى يفيمه علمه و يطلعه عليه، و لا يلزم من ذلك أن يدرك سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم مقام الربوبية؛ إذ العلم المذكور ثابت لله تعالى، و اصطفى بتعليم الله تعالى إياه، و إلى مثل ذلك أشار البوصيري بقوله «١»:

فإن من جودك الدنيا و ضرتها   و من علومك علم اللوح و القلم

و في الحديث: «قال لي ربي ليلة الإسراء: فيم يختصم الملأ الأعلى يا محمد؟ قلت: لا أدري فوضع يده بين كتفي فوجدت بردها في ثديي، فعلمت علم الأولين و الآخرين، ثم قال: فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: في الوضوء على المكاره ... «٢»» إلى آخر الحديث، انتهى منها بلفظها.

و في شرح صلاة أبي الفتيان سيدي أحمد البدوي للعارف بالله تعالى سيدي عبد الرحمن العيدروس لدى قوله فيها: و خزائن العلوم الاصطفائية بعد كلام له ما نصه: لطيفة:

وقفت بعد كتابتي هذه التعليقة في كلام أبيض الوجه البكري تحت قوله صلى الله عليه و سلم، فتجلى لي كل شيء و عرفته ما حاصله أنه يمكن أن يكون ذلك التجلي ما هو الآن واقع بل وقع، ثم ألقى الله سبحانه عليه أستار العزة الإلهية، و أذهب بقاء ذلك منتقشا بصورته في لوح القوة الذاكرة النبوية أمامه لنواميس الربوبية، و إرجاعا إلى منازل العبودية، فيكون الكشف الأول لتكرمته صلى الله عليه و سلم، و الحجب بعد ذلك لما قررناه الآن، على أنما أشرنا لعدم بقائه في الذاكرة فقط انتهى الغرض منه.

و قد ذاكرني بعض الأصحاب في أنه يلزم أن يساوي علمه صلى الله عليه و سلم علم الله تعالى إذا قلنا:

إنه يعلم كل شيء. فأجبته بأنه لا يلزم شيء من ذلك؛ لأن ذلك لله تعالى بالأصالة، و له صلى الله عليه و سلم بالتبعية، و كذا من علم شيئا و أحاط به، فإنه بإعلام الله تعالى و تحويطه، فأعجبه هذا الجواب انتهى منه بلفظه.

---

(١) انظره في (ص ١٣٩)، الفصل العاشر في المناجاة.

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٣٦٦).

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٤٤

و في كلام جامع ديوان الشيخ العالم العارف المحقق شرف الدين أبي حفص عمر بن علي السعدي المعروف بابن الفارض المصري نقلا عن الشيخ الإمام برهان الدين ابراهيم ابن عمرو الجعبري، و هو من تلامذة ابن الفارض المذكور، و كان معه بمصر وقت احتضاره و انتقاله إلى الله تعالى قال: كنت سألت جماعة من الأولياء عن مسألة فلم يجبني أحد منهم عنها، فسألته- يعني ابن الفارض- فقلت له: يا سيدي هل أحاط أحد بالله علما؟ قال: فنظر إلى نظر تعظيم لي و قال: نعم إذا حيطهم يحيطون يا إبراهيم و أنت منهم، انتهى.

و ظاهر هذا حصول العلم بذاته تعالى بوصف من أوصافه على وجه الإحاطة حتى لغيره صلى الله عليه و سلم من أعاظم الأولياء و الصديقين، و هو مشكل مع قوله سبحانه: وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [طه: ١١٠]، و قد اختلفوا في فهمه، فمنهم من قال: إنه محمول على الإحاطة الفرضية التقديرية على ما يأتي نقله عن العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني، بناء على أن وقوع هذا ممكن لا الوقوعية؛ لأنه لم يسمع وقوع ذلك لأحد بوجه من الوجوه، و لا في حال من الأحوال.

و لكن النصوص الشرعية قاضية بالمنع من وقوع هذا و إمكانه مع ما يأتي عن الشيخ الأكبر في «فتوحاته» أنه لم يكن في الإمكان أن يخلق الله تعالى فيما خلق قوة في موجود يحيط ذلك الموجود بالله علما من حيث قيامها به.

و عليه فالأحسن حمله على الإحاطة النسبية المجازية، و هي المعرفة الكاملة كمالا يليق بحال المخلوق لا الحقيقية، تعالى الله عنها علوا كبيرا، فإن الإجماع ممن يعتد به من المتكلمين و الفقهاء، و معهم جميع العارفين و الأولياء، على أنها لم تقع و لا تقع لأحد مطلقا، و لو لأشرف الخلق صلى الله عليه و سلم، لا في الدنيا و لا في الآخرة، كما يأتي بسطه إن شاء الله تعالى.

و قال بعض الإخوان في مذاكرة وقعت له معنا في هذا: إنه يمكن حمل الإحاطة في كلامه هذا على حصول الشبيه؛ إذ هي التي يقصدها الصوفية كثيرا في كلامهم دون حضرة التنزيه؛ لأنه لا علم لأحد بها فضلا عن الإحاطة، و هو كلام حسن.

و قال النابلسي في شرح هذا الديوان المسمّى ب «كشف السر الغامض في شرح ديوان

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٤٥

ابن الفارض» جواب آخر نصه: نعم إذا حيّطهم بالتشديد جعلهم محيطين به علما سبحانه و تعالى بأن أبهاهم في ظهور وجوده الحق بحيث لا يبقي منهم عندهم بقية، و تضمحل رسومهم في حقيقته النورية بالكلية، فعند ذلك يحيطون به علما، و إنما المحيط به مولاهم، و أما أنهم يبقون موجودين، فالوهم عند نفوسهم، و مع ذلك يحيطون به علما، فذلك من أعظم المحال، و ليس لأحد أصلا في ذلك مجال، و لا يتصور عنه جواب و لا سؤال؛ لأن الموجود عند نفسه قائم بالوهم المجرد، فلا يعرف نفسه، و إذا لم يعرف نفسه فلا يعرف ربه، و إذا لم يعرف ربه فليس بوليّ لله، و هذا السؤال سؤال الأولياء لبعضهم بعض، لا سؤال الغافلين للغافلين. انتهى المراد منه بلفظه.

قلت: في شرحه اللامية نقل كلام ابن الفارض هذا ثم قال: و لا يمنع من قولهم: إذا حيطهم يحيطون قوله تعالى: وَ لا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً [طه: ١١٠]، و قوله سبحانه: وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ [البقرة: ٢٥٥]، يعني ما لم يحيطهم فيحيطون، كما قال تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

و أيضا فإن المفهوم من قوله: إذا حيطهم بتشديد التحتية أنه إذا خلق لهم الإحاطة اللائقة بهم المخلوقة له اتصفوا بها فأحاطوا به، لا كإحاطته تعالى بنفسه؛ لأن إحاطته بنفسه قديمة، و إحاطتهم حادثة، و القديم منزّه عن مشابهة الحوادث.

و إذا علم هذا كله فالأظهر هو تأويل كلام الأستاذ البكري أيضا إما بمثل ما ذكره مولانا عبد الغني في جوابه أو لا عن التحييط بأن يقال: إن الحق تعالى تجلى عليه بذاته و أفناه عنه و عن فنائه و جميع صفاته، حتى اضمحلت رسومه، و ذهبت آثاره و علومه، و غرق في أنوار ذات الحق، فصار عند ذلك مظهرا له تعالى، عالما بمعلوماته، و إنما العالم بذلك هو سبحانه لا غيره، و هذا التجلي كما سبق في كلام الأستاذ أبيض الوجه يمكن أن يكون ما هو واقع الآن، بل وقع تكرمة له صلى الله عليه و سلم، ثم ألقيت عليه أستار العزة الإلهية إقامة لنواميس الربوبية، و إرجاعا إلى منازل العبودية، و إما بأن يقال: إنه أراد به أنه عليه السّلام كان يعلم جميع علم الله تعالى في خلقه، أو نقول في مكوناته، لا أنه أراد جميع علمه مطلقا حتى يشمل علوم الذات العلية بأسرها؛ ليكون كلامه هذا موافقا لكلام غيره من الأولياء.

إن الله تعالى أطلعه على جميع علمه في مكوناته لا مطلقا كما يأتي عنهم، و ليسلم من الاعتراض السابق عليه بلزوم التساوي بينه و بين علم الله تعالى، و إن أجيب عنه كما مرّ، فإن الحق الذي عليه المعول أنه لا مساواة في شيء و بين الحادث و بين القديم الأول.

و أما قوله في الحديث: فتجلى لي كل شيء و عرفته. فيمكن تخصيصه أيضا بالمكونات، و إذا عمم فيه فيحتمل في الذات العلية و أوصافها على ما مرّ، أو على ما يليق أن يعلمه أفضل مخلوق، و أكمله من الخالق، و الله أعلم.

و أما التكفير في هذه المسألة- أعني مسألة ادعاء الإحاطة في علمه صلى الله عليه و سلم- فيبعد، و لا سيما في حق من أجمل في الكلام و لم يصرح بما يفيد العموم الحقيقي و المساواة؛ لعلم الله تعالى و على فرض التصريح، فإنما يظهر لو ادعى أن ذلك حاصل له صلى الله عليه و سلم من ذاته و بطريق الاستقلال، أو ادعى قدم علمه صلى الله عليه و سلم، أو حدوث علم الله تعالى، أو تماثلهما في الحقيقة و الذات، و هذا لا يدعيه أحد ممن ذكر، و لا يتفوّه به، بل ينكره أشد الإنكار، و يكفر القائل به إذا عرض عليه، فإن قيل: بعض هذا لازم من قولهم.

قلنا: لا نسلم اللزوم كما سبق بيانه، و على تسليمه فهو بعيد لمن قال و لازم القول لا يعد قولا إلا إذا كان اللزوم بيّنا، و هو هنا غير بين، و حينئذ فلا يكفر في هذه المسألة بالنسبة لما ذكر أصلا، فاعرف ذلك و تبيّنه، و أعرض عما سواه، و ربنا سبحانه و تعالى يمن علينا و عليك برضاه، آمين.

و أفتى بالثالث- و هو أن علمه صلى الله عليه و سلم محيط بالأشياء و لكن لا كإحاطة علم الله تعالى- جماعة ممن نحا نحو التوسط و الجمع بين النصوص و الأدلة، و قالوا: إن هذا هو التحقيق و ما سواه خلافه.

و مما يدل له ما ذكره الشيخ الأكبر في فتوحاته في الباب الخامس و الستين و ثلاثمائة و نصه:

و ما ذكر عن أحد من نبي و لا حكيم أنه أحاط علما بما يحوي عليه حاله في كل نفس إلى حين موته، بل يعلم بعضا و لا يعلم بعضا إلى أن قال: فلا يعلم الأمور على التفصيل

إلا الله وحده: وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ [البقرة: ٢٥٥] انتهى منه بلفظه.

و ما ذكره في الباب التاسع و الستين و ثلاثمائة و نصه:

لا يعلم الشيء من جميع وجوهه إلا الله، المحيط علمه بكل شيء سواء كان الشيء فانيا أو موجودا، متناهيا أو غير متناه انتهى.

و ما ذكره في الباب الرابع و التسعين و ثلاثمائة و نصه:

ثم إنك إذا أخذت تفصل بالحدود أعيان الموجودات وجدتها بالتفصيل نسبيا، و بالمجموع أمرا وجوديا لا يمكن لمخلوق أن يعلم صورة الأمر فيهما، فلا علم لمخلوق مما سوى الله، و لا للعقل الأول أن يعقل كيفية اجتماع نصب يكون عن اجتماعها عين وجودية مستقلة في الظهور، غير مستقلة في الغني، مفتقرة بالإمكان المحكوم عليها به، و هذا علم لا يعلمه إلا الله تعالى، و ليس في الإمكان أن يعلمه غير الله تعالى، و لا يقبل التعليم- أعني أن يعلمه الله مرسلا من عباده- فأشبه العلم به العلم بذات الحق، و العلم بذات الحق محال حصوله لغير الله تعالى، فمن المحال حصول العلم بالعالم أو بالإنسان نفسه، أو بنفس كل شيء لنفسه بغير الله تعالى فتفهّم هذه المسألة، فإني ما سمعت و لا علمت أن أحدا نبه عليها، و إن كان فهمها مما يستصعبه التصور، مع أن فحول العلماء يقولون بها و لا يعلمون له سر كبلقيس تقول: كَأَنَّهُ هُوَ [النمل: ٤٢] و هو هو. انتهى منه بلفظه.

و ما ذكره في الباب الثامن و السبعين و مائة في الفصل الحادي عشر في الاسم الإلهي عند تعرضه لآية: وَ شاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ [آل عمران: ١٥٩] و نصه:

و السبب الموجب للمشورة كون الحق له وجه خاص في كل موجود لا يكون لغير ذلك الموجود، فقد يلقي إليه الحق سبحانه في أمرها ما لا يلقيه لمن هو أعلى منه طبقة، كعلم الأسماء لآدم مع كون الملأ الأعلى عند الله أشرف منه، و مع هذا فكان عند آدم ما لم يكن عندهم.

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٤٨

إلى أن قال: و سبب ذلك قومية الألوهية ما تستحقه لما علم أن لله تعالى في كل موجود وجها خاصا، يلقي إليه منه ما يشاء مما لا يكون لغيره من الوجود، و من ذلك الوجه يفتقر كل موجود إليه و إن كان عن سبب انتهى.

و ما ذكره العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني في «المنن الكبرى» أخر الجزء الأول في منة كثرة تصديقه للأولياء فيما يدعونه من الاطلاع على المغيبات في آخرها و نصه:

و بالجملة فلله تعالى في كل علم و عمل و غيرهما من سائر المخلوقات علم خاص لا سبيل لأحد من المخلوقين إلى الوصول إليه؛ لأنه من صفات الألوهية انتهى.

و ما ذكره أيضا في «العهود المحمدية» في عهد أن نميط الأذى عن طريق المسلمين بعد ما ذكر أنه لا بدّ من السلوك على يد شيخ عارف بالله إلى أعلى معرفة منه؛ لإزالة الشبهة العارضة لسالك طريق الآخرة في عقائده و نصه:

و قد وضعت في ذلك ميزانا نحو كراسة أزلت به غالب الإشكالات التي في مذاهب الفرق الإسلامية كالجبرية و المعتزلة، و وضعت ميزانا أخرى تزيل الشبه التي تعرض للعبد في طريق المعرفة بالله تعالى، حاصلها أن الله تعالى لم يكلف عبدا بأن يعرف الله تعالى كما يعرف الله نفسه أبدا، و إن لله تعالى بنفسه علما اختص به لا يعلمه ملك مقرب و لا نبي مرسل؛ لأنهم لو علموه لساووه في العلم، و لا قائل بذلك من جميع الملل فضلا عن دين الإسلام، و ذلك أن الله تعالى لا يتحد مع عبده في حدّ و لا حقيقة و لا فصل و لا جنس.

فرد يا أخي جميع ما ورد في الآيات و الأخبار من التنزيه إلى مرتبة علمه تعالى بنفسه، ورد جميع ما ورد في الآيات و الأخبار من الصفات التي ظاهرها التشبيه إلى مرتبة علم خلقه تعالى به، فما أحوج الناس إلى التأويل إلا ظنهم بأن الله تعالى كلفهم بتعقل مرتبة التنزيه التي لا يتعقلونها، و إلا فلو علموا أنها خاصة به تعالى ما أولوا شيئا، و كان يكفيهم الإيمان بأنه ليس كمثله شيء انتهى منه بلفظه.

و أفتى بالرابع- و هو التوقف- جماعة من المتورعين ممن تعارضت عندهم الأدلة في

هذه المسألة، و لم يقفوا فيها على نصّ غير محتمل يقطع النزاع و يرفع الخلاف.

و قالوا: إن القطع فيها بأمر يخاف أن يوقع في أحد شيئين: إما في استنزال سيد الكائنات صلى الله عليه و سلم عن قدره الرفيع، و جنابه العلي المنيع، و إما في سوء الأدب مع الله تعالى بتسوية بعض مخلوقاته به، و ذلك أيضا يسوء المصطفى صلى الله عليه و سلم و يؤذيه، و لذا حذر من مثله في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله و رسوله» «١».

و حينئذ فالتوقف و تفويض الأمر إلى الله تعالى فيها أولى و أسلم في عاقبة المرء، ورد الأمر إلى الله تعالى في مواطن الاشتباه من العلم، و من الرأي السديد في الدين.

هذا مع اعتقاد أنه عليه السّلام نال من ربه المكانة التي لا مكانة فوقها، و الرتبة التي لا يمكن أن ينالها بشر و مخلوق سواه، و أنه سيد الكائنات، و مفخر أهل الأرض و السموات، و نقطة الكون، و عروس المملكة، و أصل الوجود، و مادة كل موجود صلى الله عليه و سلم، و ممن نحا إلى هذا صاحب «نشر المثاني في أهل القرن الحادي و الثاني»، و هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن الطيب القادري الحسيني الفاسي، و ذلك في ترجمة التاجموعتي بعدما ذكر كلاما له في هذه المسألة يصحح فيه رأيه فيها و يرد القول بخلافه و نصه:

و لا خلاف بينه و بين من حاجه من أهل فاس في أنه صلى الله عليه و سلم يعلم كثيرا من الغيب مما يتعلق بالدنيا و الآخرة، و يعلم جميع ما دلت على علمه هذه الأحاديث-: أي المذكورة في كلامه- و أكثر من ذلك؛ لأنها لا تدل على الإحاطة بالمعلومات، ثم قال: و إنما نزاع من نازع في القدر الزائد على ذلك، و الله أعلم.

ثم الإمساك عن الخوض في هذا الزائد أحسن؛ لأنه لم ينقل لنا كلام عن أسلافنا فيه، و الله أعلم، مع اعتقاد أنه صلى الله عليه و سلم بأعلى درجات الكمال في الدرجة التي لا درجة فوقها، و أنه صلى الله عليه و سلم سيد الأولين و الآخرين، و لا يعلم قدره إلا خالقه رب العالمين، قال في «محصل المقاصد»:

---

(١) رواه البخاري (٣٢٦١).

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص: ٢٥٠

نبينا أفضل بالإطباق من كل مخلوق على الإطلاق

فهذه أقوال أربعة، و هي وقفنا عليها لساداتنا العلماء رضوان الله عليهم في هذه المسألة، و الأخير منها و هو الوقف أحوط و أورع و أسلم، و الثالث بالتوسط أحسن و أبين و أقوم، و الثاني بعدم الإحاطة لأحد إلا لله تعالى أجرى على ظواهر أكثر النصوص الشرعية و أوفق، بقاعدة سد الذرائع المرعية، و الرابع بالإحاطة محتمل لوجوه:

أحدها: أن يريد قائله الإحاطة الحقيقية الكلية في كل شيء حتى في الذات العلية، و هذا هو محط التهويل و الإنكار، و محل اختلاف الأذهان و الأفكار.

الثاني: أن يريد به الإحاطة المجازية الإجمالية دون الحقيقة التفصيلية، و هذا يرجع للقول الثالث.

الثالث: أن يريد به الإحاطة الإضافية باعتبار نوع أو جنس من الأجناس الكونية، إلا أنه لم يقع منه له بيان اتكالا على الأذهان، و لا بدّ حينئذ من معرفته؛ ليقع الحكم بحسبه على كليته، و إلا فهو كلام مجهول، لا يرجع منه إلى شيء محصول، و لكل أناس مشربهم، و كل و ما اختار بحسب ما أودعه الله في قلبه من الأنوار.

قال تعالى: كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً [الإسراء: ٢٠].

و قد بقي في المسألة قول آخر خامس لم يذكره أهل الظاهر، و ذكره جماعة من الأفراد الأكابر، و هو أن علمه صلى الله عليه و سلم يحيط بجميع المكنونات، و سائر ما أوجده الله من الذوات، فالذوات من الأزل إلى الأبد عرشا و فرشا و ما فوقهما و ما تحتهما و ما بينهما لا يشذ عن علمه شيء من ذلك، و لا ما يعرض له من ابتدائه إلى انتهائه، و أما الذات العلية و أوصافها و أسماؤها فما حصل له صلى الله عليه و سلم من العلم بها لم يحصل لبشر و لا مخلوق سواه، و لم يشم أكابر الأنبياء و الرسل و المقربون من الملائكة رائحته، فضلا عمن دونهم.

و أما معرفة كنهها أو الإحاطة بها أو بشيء مما لها فليست لأحد أصلا، و لا مطمع لمخلوق فيها بوجه من الوجوه، و لا باعتبار من الاعتبارات، لا في الدنيا و لا في الآخرة،

و مستندهم في هذا الكشف و البصيرة، و ما أمدّهم الله به من الفراسة و صدق السريرة، مع ما يؤيد ذلك من الأحاديث و الأخبار، و يؤكده من الإشارات الجليلة المقدار.

و قد خرج أنها أقاويل خمسة، و أن الثلاثة المتوسطة منها مقبولة عند العلماء، و الأول مردود عند أكثر العارفين و الفقهاء، و الأخير هو المعول عليه عند كثير من أهل الله، كما يأتي بسطه بحول الله.

و إذا تقرّر هذا و علم، و تأمل و فهم، فلنذكر بعده لما عثرنا عليه في المسألة من الآيات و الأخبار و الآثار، و ما يتعلق بها من كلام الأئمة النظار، حتى تتبين أدلتها و تتضح لكل ذي بصر محجتها، و تزداد الأقاويل بها بيانا و القوة فيها قوة و برهانا، و نختم بكلام أهل البصائر من الأولياء و الصلحاء الأكابر؛ لأن كلامهم في هذا الباب هو الذي عليه المدار، و هو أولى بالاعتماد عليه و التعويل و الاعتبار؛ لصدق فراستهم و نورانية بصيرتهم.

النور الخامس و العشرون و هو نور الحصر:

فهو النور الذي يكشف له عن الخواص عن المراتب و عن المنامات حتى عن أقصر ما يمكن، فإذا قدرنا أنه نالها لا يجد أحد بعده ما يطلب، مثل ما تقول يتيمة الدهر عند الملك لا يملكها أحد معه- كذلك القول فيه، فله الوسيلة و الدرجة الرفيعة، فهذا هو الحصر، فإنه الذي ملك الأوفى من الكل.

* قلت: فهو الإنسان الكامل، و ليس لأكمليته نظير صلى الله عليه و سلم. و فيما تقدم ما يشير إلى توضيح ذلك.

النور السادس و العشرون و هو نور العلامة و الدلالة:

فهو الذي كشف له صلى الله عليه و سلم صورة منتظرة و معتبرة، فإن الكتب نطقت به، و كذلك الصنائع العلمية كلها حتى الكهانة.

و من علاماته أيضا صلى الله عليه و سلم ما ظهر عليه صلى الله عليه و سلم حتى خاتم النبوة الذي بين كتفيه صلى الله عليه و سلم، و ما كان قط لأحد؛ ثم علامات صدقه المتأخرة.

و هذا يكشف له أنه كذلك وحده.

و مما ينبغي أن يقال لأهل الكتاب: هذا نبينا صلى الله عليه و سلم قد أخبرنا عن أمور قد ظهرت بعده، حتى إن من بعض أتباعه لو تحدى بها لم يعلم حدود رسوله وجد الصواب في قطع الخصم، و أنتم ما الذي أخبركم به، هذه أنوارده.

* قلت: قال ابن طولون: خصّ صلى الله عليه و سلم بأنه أول النبيين في الخلق و تقدم نبوته، فكان نبيّا و آدم منجدل في طينته، و بتقدم أخذ الميثاق عليه، و أنه أول من قال: (بلى) يوم: أ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ [الأعراف: ١٧٢]، و خلق آدم و جميع المخلوقات لأجله، و كتابة اسمه الشريف على العرش و كل سماء و الجنان و ما فيها و سائر ما في الملكوت، و ذكر الملائكة له في كل ساعة، و ذكر اسمه في الأذان في عهد آدم و في الملكوت الأعلى، و أخذ الميثاق على النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به و ينصروه، و التبشير به في الكتب السابقة، و نعته فيها، و نعت أصحابه و خلفائه و أمته، و حجب إبليس عن السموات لمولده، و شق صدره في أحد القولين و هو الأصح، و جعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان، و سائر الأنبياء كان الخاتم في يمينهم، و بأن له ألف اسم، و باشتقاق اسمه من اسم الله، و بأنه سمي من أسماء الله بنحو سبعين اسما، و بأنه سمي بأحمد، و لم يسمّ به أحد قبله، و قد عدت هذه من الخصائص في حديث مسلم، و بإظلال الملائكة له في سفره، و بأنه أرجح الناس عقلا، و بأنه أوتي كل الحسن و لم يؤت يوسف إلا شطره، و بغطه ثلاثا عند ابتداء الوحي، و برؤية جبريل في صورته التي خلق عليها، عدّ هذه البيهقي.

أنوار النبي أسرارها و أنواعها ،ص:٢٥٣

و بانقطاع الكهانة بمبعثه، و حراسة السماء من استراق السمع و الرمي بالشهب، عد هذه ابن سبع، و بإحياء أبويه حتى آمنا به، و بوعده بالعصمة من الناس و بالإسراء، و ما تضمنه من اختراق السموات السبع و العلو إلى قاب قوسين، و وطئه مكانا ما وطئه نبيّ مرسل و لا ملك مقرب، و إحياء الأنبياء له و صلاته إماما بهم و بالملائكة، و اطلاعه على الجنة و النار، عد هذه البيهقي، و رؤيته من آيات ربه الكبرى، و حفظه حتى ما زاغ البصر و ما طغى، و رؤيته للباري تعالى مرتين، و بركوب البراق في أحد القولين، و قتال الملائكة معه و سيرهم معه حيث سار و يمشون خلف ظهره، و بإتيانه الكتاب و هو أميّ لا يقرأ و لا يكتب، و بأن كتابه معجز و محفوظ من التبديل و التحريف على ممر الدهور، و مشتمل على ما اشتملت عليه جميع الكتب و زيادة، و جامع لكل شيء، و مستغن عن غيره، و ميسر للحفظ، و نزل منجما، و على سبعة أحرف، و من سبع أبواب، و بكل لغة، عد هذه ابن النقيب.

و قال صحاب التحرير: فضّل القرآن على سائر الكتب المنزلة بثلاثين خصلة لم تكن في غيره.

و قال الحليمي في المنهاج: و من عظم قدر القرآن أن الله خصه بأنه دعوة و حجة، و لم يكن مثل هذا لنبيّ قط، إنما كان يكون لكل واحد منهم دعوة ثم يكون له حجة غيرها، و قد جمعها الله لرسوله صلى الله عليه و سلم في القرآن فهو دعوة بمعانيه، حجة بألفاظه، و كفى الدعوة شرفا ألا تنفصل الدعوة عنها انتهى.

و أعطي من كنز العرش، و لم يعط منه أحد، و خصّ بالبسملة و الفاتحة و آية الكرسي و خواتيم سورة البقرة و السبع الطول و المفصل، و بأن معجزته مستمرة إلى يوم القيامة و هي القرآن، و معجزات الأنبياء انقرضت لوقتها، و بأنه أكثر الأنبياء معجزات، فقد قيل بأنها تبلغ ألفا، و قيل ثلاثة آلاف، سوى القرآن؛ فإن فيه ستين ألف معجزة، قال الحليمي:

و فيها مع كثرتها معنى آخر هو: أنه ليس في شيء من معجزات غيره ما ينحو اختراع الأجسام، و إنما ذلك في معجزات نبينا صلى الله عليه و سلم خاصة، و بأنه جمع له كل ما أوتيه الأنبياء من

معجزات و فضائل، و لم يجمع ذلك لغيره، بل اختص كل بنوع، و أوتي انشقاق القمر «١» و تسليم الحجر «٢» و حنين الجذع «٣» و نبع الماء من بين أصابعه «۴»، و لم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك، ذكره ابن عبد السلام.

و قال بعضهم: خص تعالى بعضا بالمعجزات في الأفعال كموسى، و بعضا بالصفات كعيسى، و نبينا بالمجموع ليميزه، و بأنه آخرهم بعثا فلا نبي بعده، و شرعه مؤيد إلى يوم القيامة لا ينسخ، و ناسخ لجميع الشرائع قبله، و لو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، و في كتابه و شرعه الناسخ و المنسوخ، و بعموم الدعوة للناس كافة، و أنه أكثر الأنبياء تابعا «۵».

و قال الحرالي: فهو خاتم ما مضى، و خاتم ما هو كائن، و خاتم ما يكون أمدا و أبدا، و كما هو خاتم الله في ذاته و خاتم كل رتبة كذلك ما اشتمل عليه إحاطة ذاته خاتم ذلك المعنى؛ فقلبه خاتم القلوب، و نفسه خاتم الأنفس، و جسمه الطاهر خاتم الأبدان، و لذلك بدأ ظهور الختم بين كتفيه إشعارا بما أودعه الله في كلية إحاطة أمره في حكمته و علمه و كتابه و معرفته و مناجاته و رؤيته و شهوده و وجوده إلى عزّه الذي لا يقال، فهو و ما نسب إليه و رجع إليه بوجه ما خاتم، حتى أن ذلك شائع في الآية، و مراكبه حتى فرسه المختصّ به هو خاتم موجود صنف الخيل، و كذلك بغلته و سيفه و قوسه و قضيبه و هراوته و كل شيء من أدواته، و لذلك كان صلى الله عليه و سلم لا يستعمل شيئا إلا سماه، فأظهر بذلك سموّه على ما سواه، يسمي كل شيء حتى قدحه و فراشه و لحاف منامه إظهارا لسموّه على ما سواه من جنسه، فكل ما له و منه خاتم لما دونه بجميع غيبه و شهادته، و هو ذو بداية كونه.

---

(١) رواه مسلم (٨/ ١٣٢).

(٢) رواه مسلم (٧/ ۵٨).

(٣) رواه البخاري (۴/ ٢٣٧).

(۴) رواه البخاري (۴/ ٢٣٣)، و مسلم (٧/ ۵٩).

(۵) رواه مسلم (١/ ١٣٠).

و قد قال صلى الله عليه و سلم: «أنا خاتم الأنبياء، و مسجدي خاتم المساجد «١»»، فكذلك يجري هذا المعنى في كل ما هو له و أضيف إليه، كما أن أمته خاتم الأمم، و له الختم نبوة في بداية يومه، و هداية في خاتمه يومه، كما قال عليّ عليه السّلام لما أنبأ بانتقال النور في الظهور الذي كان يظهر في وجوه آباء النبيّ صلى الله عليه و سلم من لدن آدم إليه: «إنه لما توفي النبيّ صلى الله عليه و سلم انتقل ظهور النور إلى آله و ذريته، فقال: ثم انتقل النور إلى غرائزنا و لمع مع أئمتنا، فنحن أنوار السماء، و أنوار الأرض، فينا النجاة، و فينا مكنون العلم، و بمهدينا تنقطع الحجج «٢»»، خاتم الأئمة و منقذ الأمة، فهو صلى الله عليه و سلم و ما له و ما منه كل خاتم لما هو أصله و ما يرجع إليه مما سواه، و بما أن الخاتم زينة و حلية فهو صلى الله عليه و سلم زينة الكون و حليته، الذي به علن أمر الله، و أضاء نور الله، و أنقذ الله به خواتم أمره و بدايته، فلذلك ما جعل الله له لإنقاذ أوامره خاتمه الذي اتخذه فكان يلبسه في يده اليمنى تارة و في يده اليسرى تارة؛ إشعارا باستواء أمره ميمنة و ميسرة، كما أن كلتا يدي ربه يمين مباركة، فلذلك كلتا يديه صلى الله عليه و سلم يمين مباركة، و كان ذلك أيضا باد في آله.

قال عليّ رضي الله عنه في أمر الوضوء: «لا نبالي بدأنا بأيماننا أو بأيسارنا إذا أسبغنا الوضوء «٣»»، و ذلك بما أن الخاتم مظهر استواء طرفي حلقته بما كمل من صورته باتصال غيبه من طرفيه سواء شهادته، و لما لآله من تحققهم بختمه أمر عليا عليه السّلام أن ينقش على فصّ خاتمه: «نحن بالله و له «٤»»؛ أداء للمعنى الختميّ، و دخولا للاسم المحمديّ في مسمى هذا الإضمار الجامع كلمة (نحن)؛ ليكون اسمه الخاتم منقوشا على خواتم آله إضمارا كما هو منقوش على خاتمه هو إظهارا، أو لما كان هو صلى الله عليه و سلم الخاتم و صورته صورة هجاء محمد كما قال صلى الله عليه و سلم: «إنّ الله خلق آدم على صورة هجاء اسمي (محمد)، فالرأس و الوجه بمنزلة الميم، و اليدان إذا مددتهما بمنزلة الحاء، و البطن بمنزلة الميم، و الرجلان بمنزلة الدال،

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (١/ ٤٥).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) تقدم تخريجه.

فهو محمد و لا فخر «(١)»، كذلك نقش صلى الله عليه و سلم على خاتمه صورته أمرا فكان عليه: (محمد رسول الله)، و بما أن الخاتم حافظ لما هو عليه لم يظهر الاختلاف في أمر الخلافة حتى سقط خاتمه صلى الله عليه و سلم من يد عثمان رضي الله عنه في بئر أريس «(٢)»، و لذلك ذكره صلى الله عليه و سلم حفيظة، و وجود آليته حفيظة كما قال تعالى: وَ ما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ [الأنفال: ٣٣].

كذلك ذكره صلى الله عليه و سلم أمان من كل مخافة كما قال صلى الله عليه و سلم: «أنا الذي من أجلي نجّى الله نوحا و من معه لما كتب حول السفينة: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، فنطقت السفينة فقالت:ألا و كل من دخل فيّ فهو في ضمان الله حتى يخرج، و لا فخر «(٣)»، كل ذلك لهيبة ظهور خاتم الملك على ما ظهر عليه بما هو خالص له لا لسواه، و مسلم ممن سواه له، مسلم ذاته لمن هو له كما قيل له: فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ [آل عمران: ٢٠].

فهو من الله بمنزلة الخاتم الذي لا حراك له و لا سكون إلا بيد من الخاتم له، فلذلك انتهى إسلامه إلى أولية الإسلام حتى لقنه الله أن يقول: قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ. لا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ [الأنعام:

١٦٢، ١٦٣]، و لذلك ما ظهر منه فهو منسوب إلى الله دونه، كما قيل له: وَ لكِنَّ اللَّهَ رَمى [الأنفال: ١٧].

و قال تعالى: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ [النساء: ٨٠].

و قال تعالى: وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ [آل عمران: ١٠١] فأجرى تعالى عليه اسمه العظيم في غير موضع من كتابه، و ذلك بما هو خاتم، و الخاتم متصل الأول بالآخر فيما هو كذلك كان وجوده له بما هو وجوده لربه في: «كان الله و لا شيء

---

(١) حديث كشفي صحيح.

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٣/ ١٣٤٣)، و في الكنى (١/ ٥٣)، و مسلم (٣/ ١٦٥٦)، و أبو داود (٤/ ٨٨)، و النسائي في الكبرى (٥/ ٤٥٧)، و ابن سعد في الطبقات (١/ ٤٧٣)، و أبو عوانة في مسنده (٥/ ٢٦٢).

(٣) حديث كشفي صحيح.

معه(١)»، وصحبة ذلك في كل رتبة، فكان خاتمًا لكل رتبة فأعلن منها بأنه خاتم النبيين، وألاح إفهامها كمال الختم، فهو الخاتم الذي ليس وراء ختمه خاتمٌ.

انتهى والله أعلم.

النور السابع والعشرون

وهو نور الخصوصية:

فهو الذي يكشف له أنه لا مقام أمامه، ولأمر ما بعده، والسعادة الإلهية، فإنه نال ما منعه الغير في السعادة.

. قلت: فهو ﷺ السعيد لما ورد: «**أنا سبيل الله، الداعي إليه، من صلّى عليَّ نجا وفاز، السعيد في الدنيا والآخرة، فلا سعيد مثله**(٢)».

وقيل: السعيد المفرد بالسعادة السابقة، وقيل: السعيد لتوليه أسباب السعادة.

النور الثامن والعشرون

وهو نور الخير المحض:

فهو الذي يكشف له عن كمال ما ظهر منه وما بطن له، فإنه في نومه معصوم الخيال، وفي ذلك العلوم، وفي قيامه ويقظته لا ينطق عن الهوى، وفي عقله فلم تغلب قط شهوته عقله: فإن عَلمَ الكتاب والفضائل على ما ينبغي، وعلم إذا أفرط في ذلك حتى قال الله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ قيل: من السُّنَّة.

❁ قلت: قال الشيخ العطار: أحواله ﷺ لا يُقاس عليها حال؛ فإنه مرسلٌ بالمقامين، مقام الظاهر ومقام الباطن، والمخاطب بالأول عموم الخلق، وبالثاني خواص الخواص، ويكفيهم الإشارة بخلاف الأول، فرجع ذلك إلى ما قلنا من أن أحواله لا يُقاس عليها غيرها.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره الأبشيهي في المحاسن (ص٢٢٢) بتحقيقنا.

واعلم أنه ﷺ من حين نشأته الروحية أزلاً إلى تنــزله إلى الحس، ومنه إلى البرزخ، ومنه إلى الدار الآخرة، لم يحجبه عن مشاهدة ربه حجاب وغفلة أصلاً، بل هو كل آن ملتفت إلى ربه، قال ﷺ: «**كنت نبيًّا وآدم بين الماء والطين**(١)».

فأعلمه تعالى بنبوته، واستصحب ذلك بالالتفات إليه تعالى إلى حين خلق جسمه ببلد لم يكن فيها موحد غيره، ثم صار يتحنث بغار حراء إلى أن أرسله الله تعالى إلى كافة خلقه، وقد قال مشيرًا إلى استصحاب هذه المشاهدة: «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**(٢)».

فهو نائمٌ حسًّا ليس نائمًا معنى كما أن موته كذلك، وهذا مقام ما ناله بشرٌ سواه، مع أنه ببشريته قد وقع له تخلل بهذا المقام دون روحانيته.

واعلم أن الكامل إذا تخلق بالأسماء الإلهية وتحقق بها يصير ملحوظًا من جانب الأزل محفوظًا بالكلية عن أن يلم به الخطأ أو يعرض له الزلل لكونه تخلق في جميع حركاته وسكناته بأسماء الحق، وتحقق في ذاته وصفاته بطهارته عن أحكام ما سوى الحق بحيث لم يبقَ له فعل سوى فعل حق بحق لحق.

قال تعالى: ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**﴾ [الأنفال:١٧].

وقال: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ**﴾ [الفتح:١٠].

وقال: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾ [النجم:٣]؛ لتحققه بجميع ذراته وسائر حالاته بالحق تعالى، ومن وصل لهذه المرتبة لا تكون له إرادة ممتازة عن إرادته تعالى، بل هو مرآة إرادة ربه وغيرها من الصفات، وحينئذ لا تخرج أحكامه عن أحكامه، ولا تصرفاته الباطنية عن تصرفه، ويقع ما يريده من غير احتياج إلى قول ولا دعاء لموافقة إرادته لإرادة ربه وهو تعالى فعال لما يريد.

وقال العارف بالله سيدي عبد الوهاب الشعراني في كتابه: «كشف الغمة» في الباب

---

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/٥٤)، والعجلوني في كشف الخفا (٢/١٦٩).

(٢) رواه أبو داود (١/٥٢)، والترمذي (٤/٥١٨)، وأحمد في المسند (١/٢٢٠).

الأول من أبواب النكاح في بيان جملة من خصائصه ﷺ مما ذكره في آخره أنه نقله عن خط شيخه السيوطي في القسم الثامن مما اختص به من الكرامات والفضائل ما نصه:

وكان له أن يخص من شاء بما شاء من الأحكام كجعله شهادة خزيمة بشهادة رجلين، وكما رخص في النياحة لخولة بنت حكيم، وفي الإحداد: أي في تركه لأسماء بنت عميس، وأسلم رجل على أنه لا يصلّي إلا صلاتين، فقبل منه ذلك، وخص نساء المهاجرين بأن يرثن دور أزواجهن؛ لكونهن غرائب لا مأوى لهن، كما تقدَّم في كتاب الفرائض بيانه، وكان أنس يصوم من طلوع الشمس لا من طلوع الفجر، فالظاهر أنها خصوصية له، وأصام أطفال بيته وهم رضع، انتهى منه بلفظه.

النور التاسع والعشرون

فهو نور اللواء:

وهو النور الذي يكشف له أنه ينشر مجده في القيامة.

۞ قلت: اللواء: علم أجلّ من يتقدَّم بالجيوش من نبيٍّ في زمان النبوة، أو خليفةٍ في حضرة الخلافة، أو أميرٍ في موقع الإمارة، أو ملكٍ في زمن الملك، وهو ما يرجع إليه الأتباع من علمٍ مشهود يجمعهم إلى واحدٍ من أعلامٍ متفرقة، فهو علم الأعلام الذي تجتمع إليه الأعلام الجامعة، فهو ﷺ في ذاته لواء حمد ربِّه، واسمه أحمد ومحمد لواء الأسماء، وهو صاحب اللواء يوم القيامة كما قال ﷺ: «أنا صاحب لواء الحمد يوم القيامة، ولوائي يبلغ المشرق والمغرب، والأنبياء والمرسلين كلُّهم تحت لوائي، ولا فخر[(١)]».

وإنما اختصَّ ﷺ بلواء الحمد بما أشهده الله من كلية أمر الله وخلقه جمعًا، لا مذمَّة فيه، ولا عيب يلحقه، ولا نقص يتطرق إليه من حيث إنه ينظر إليه من هو قائمٌ بقيوميَّة الله حمد في جمعه وبفضله ورتقه وفتقه ووصله وفصله، وإنما يفقد الحمد من ينظر إلى التفضيل

---

(١) رواه الترمذي (٥/٣٠٨)، وأحمد (١/٢٨١)، والحاكم في المستدرك (١/٨٣)، والبيهقي في الشعب (٢/١٨١)، وأبو يعلى في مسنده (٤/٢١٥)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (١/١٦)، والمناوي في فيض القدير (٦/٣٦٤).

والتفريق غير ناشئ عن وحدة جمع، ولا مفروج عن جمع إحاطة، وأصل منفرد واحد، فيتفضّل له الكون في مدح وذمّ من حيث ينحجب عن مجرى القيومية فيه وسوائها في تكوينه، فلا يكون ذا حمد ولا يزال صاحب مدح أو ذمّ مفترق ولا منفرج.

واعلم أن نباء المعاد نباءٌ بواسطة ملكوتي بين بادية كائن يوم الملوك وغاية مما وراء عالم الملك والملكوت جمعًا، فهو ﷺ صاحب الحمد في الدنيا، وصاحب لواء الحمد في يوم المعاد، ومشهد الحمد لأهل الحمد، الذي إليه الانتهاء شهادة اللواء للجمع في عقبى نهاية العود إلى الله، الذي إليه المنتهى وليس وراءه مرمًى، فذلك كمال الحمد الآلي في يوم الملك، ولمن شاء الله أن يلحق بهم فيما وراء ذلك إلى أن يرضى ﷺ الرِّضا الموعود الذي قيل له فيه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى:٥].

وروى أحمد في المسند، والترمذي وقال: حسن صحيح.

عن أبي سعيد الخدرى مرفوعًا: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدى لواء الحمد ولا فخر، ما من نبـــي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأنا أول شافع ومشفع ولا فخر[1]».

وذكر الشيخ الأكبر في الفتوحات المكية في الباب الثالث والسبعين في الجواب عن السؤال السادس والسبعين من أسئلة الحكيم الترمذي وهو: ما لواء الحمد بعد أن ذكر أنه حمد الحمد وهو أتم المحامد وأسناها وأعلاها مرتبة وإنه سمى لواء لأنه يلتوى على جميع المحامد فلا يخرج عنه حمد، وإنه لا يكون إلا بالأسماء، وآدم عليه السلام عالم بجميعها كلها في المقام الثاني من مقامه ﷺ ما نصه:

فكان قد تقدم لمحمد ﷺ علمه بجوامع الكلم، والأسماء كلها من الكلم، ولم تكن في الظاهر لمحمد ﷺ عينًا، فيظهر بالأسماء؛ لأنه صاحبها، فظهر ذلك في أول موجود من البشر، وهو آدم عليه السلام، فكان هو صاحب اللواء في الملائكة بحكم النيابة عن محمد ﷺ؛ لأنه تقدم عليه بوجوده الطيني فمتى ظهر محمد ﷺ كان أحق بولايته ولوائه، فيأخذ اللواء

(١) رواه أحمد في المسند (٣/٢)، والترمذي (٥/٥٨٧).

من آدم يوم القيامة بحكم الأصالة، فيكون آدم فمن دونه تحت لوائه ﷺ، وقد كانت الملائكة تحت ذلك اللواء في زمن آدم فهم في الآخرة تحته، فتظهر في هذه المرتبة خلافة رسول الله ﷺ على الجميع انتهى.

النور الثلاثون

وهو نور الانفراد:

فهو الذي يكشف أنه ﷺ خير متبوع قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فمتبوعها خير متبوع.

❁ قلت: وهو كما قال ﷺ: «**شَرَفُ أُمَّتِي بِي؛ فِي يتشرَّفُون، وهُمْ خيرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**(1)»؛ فهو أشرف الخلائق الإنسانية بدليل الكتاب والسنَّة، ومجمع الحقائق الإيمانية التي لا تلبُّس فيها. وأمته أشرف الأمم.

وفي حديث أبي هريرة ﷺ: «صار حتَّى بيت المقدس، فنـزل، وربط فرسه إلى صخرة، فصلَّى مع الملائكة، فلما قُضيت الصلاة قالوا: يا جبريل، من هَذَا الذي معك؟ قال: هَذَا مُحَمَّدٌ رسول الله، خاتم النبيين. قالوا: أوَقد أُرسل إليه؟! قال: نعم. قالوا: أحياه الله تعالى من أخٍ وخليفة، فنعم الأخ! ونعم الخليفة! ثم لقوا أرواح الأنبياء عليهم السلام، فأثنوا على ربِّهم، وذكر كلام واحد منهم، وهم إبراهيم ﷺ، وموسى، وعيسى، وداود، وسليمان عليهم السلام، ثم ذكر كلام النبي ﷺ، فقال: وإن مُحَمَّدًا ﷺ أثنى على ربِّه ﷻ، فقال: كلكم أثنى على ربِّه، وأنا أثنى عليَّ ربِّي، الحمد لله الذي أرسلني رحمةً للعالمين كافَّةً، وللناس بشيرًا ونذيرًا، وأنزل عليَّ الفرقان فيه تبيانٌ لكل شيء، وجعل أُمَّتي خير أمةٍ، فجعل أُمَّتي أُمَّةً وسطًا، وجعل أُمَّتي هم الأولون، وهم الآخرون، وشرح لي صدري، ووضع عنِّي وزري، ورفع لي ذكري، وجعلني فاتحًا وخاتمًا. فقال إبراهيم: بِهَذَا فضلكم مُحَمَّدٌ، وإنه واسطة عقد النبيين ورفيعهم(2)».

---

(١) ذكره الأبشيهي في المحاسن (ص٣٢٩) بتحقيقنا.
(٢) رواه الطبري في تفسيره (٨/١٥)، وذكره الهيثمي (٦٨/١) وابن كثير (١٩/٣).

وقال بعضهم: قد يحصل للورثة من هذه الأمة من العلوم التي اقتبسوها من مشكاة نبوته عليه الصلاة والسلام بالمتابعة له والاقتداء ما لم يحصل للأنبياء الماضين عليهم السلام بسبب عدم كونهم من هذه الأمة والورثة من هذه الأمة ما نالوها من جهة أنفسهم وإنما نالوها من نبوة نبيهم ولا يلزم من ذلك تفضيلهم على الأنبياء الماضين؛ لأن حصول العلم من الغير السابق إليه لا تلزم الفضيلة به وإنما الفضيلة لمتبوعهم في حصوله وهو سيدنا محمد ﷺ لأن الحاصل له ﷺ من نبوته الكاملة.

قال الشيخ سيدي عبد الغني النابلسي في «شرح الفصوص» في الكلام على الفص اليوسفي:

ومن هنا: أي من هذا المذكور وهو أن الورثة من هذه الأمة قد يحصل لهم من العلوم ما لم يحصل للأنبياء الماضين، قول - المصنف- يعني الشيخ الأكبر قدس سره، خضنا بحرًا وقفت الأنبياء بساحله.

النور الواحد والثلاثون

وهو نور العبودية:

فهو يكشف له عن الإضافة الخاصة التي هي نفس المنعم فقط.

قال الله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾.

❁ قلت: قال الشيخ الحرالي في شرح اسمه ﷺ (عبد الله): العبد: المتخلّي عن ذاته لسيده، فبحسب التخلّي تتحقق العبودية، وبما هو متخلٌّ هو متنـــزِّلٌ إلى أدنى رتب التصرفات، بما أن العبد هو المعدُّ للمهنة، والسيِّد هو المحاط للعلوِّ والرفعة، ولما كان تجلّي الحقِّ تعالى بالتعالي والجلال كان التقرب إليه بتحقق ما يقابل علوَّه من الدنوِّ وعزَّته من الذلّة ورفعته من المهانة، فكان أقرب القرب إلى الله العليِّ أبعد البعد في الدنوِّ والتذلل والضِّعة.

قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد**[١]»، فبحسب ظهور التذلل في التصرفات والأوصاف والأحوال تتحقق العبودية، فيتحقّق القرب والدنوُّ لمقابلة من العلوّ، من حيث إن أقرب قريب لا طرف منظرٍ فيما يقابله من الطرف الآخر؛ ليظهر معنًى من الختم لالتقاء الطرفين.

قال ﷺ: «لا يزال الله من العبد والعبد من الله ما لم يخدم، فإذا أخدم وقع عليه الحساب[٢]»، ولذلك كان رسول الله ﷺ يخدم في مهنة أهله، ويقم البيت، ويرقّع القميص، ويخصف النعل، ويتولّى علف فرسه بيده، ويناول السائل بيده، ويضع يده مع الخادم في الطحين، ويجلس للأكل جلوس العبد كجلوسه في الصلاة؛ لتكون هيئته في تعبُّده في صلاته وفي أكله هيئةً واحدةً، فيكون دائم العبودية غير منصرفٍ عنها، ولما قيل له في ذلك قال: «إنما أنا عبدٌ، آكلُ كما يأكلُ العبد[٣]».

وقيل له مرة: أتأكل كما يأكل العبد؟! فقال: «وأيُّ عبدٍ أعْبد منِّي[٤]».

فكان ﷺ يتخلّى عن وجوه الترفعات كلها في ملبسه ومطعمه ومشربه ومبيته ومسكنه؛ إظهارًا لظاهر العبودية فيما يناله العِيان منه صدقًا عمّا في باطنه من تحقّق العبودية لربّه بما هو بمعنى الذي جاء بالصدق وصدق به، وكان يظهر ذلك في أحوال ما يغلب عليه وصف العزة تحقيقًا للعبودية وتخليًا للعليِّ الحقّ.

دخل ﷺ مكة عام الفتح حين أحلَّ الله له ما لم يحل لأحدٍ قبله ولا يحله لأحدٍ بعده بما

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٠)، وأبو داود (١/ ٢٣١)، والنسائي في الكبرى (١/ ٢٤٢)، وأحمد (٢/ ٤٢١)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٧١)، وابن أبي عاصم في الزهد (١/ ١٩٦).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٣/ ٩٢)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٨٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٥)، ومعمر بن راشد في مسنده (١١/ ٩٧).

(٣) رواه البيهقي في الكبرى (٧/ ٢٨٣)، وهناد في الزهد (٢/ ٤١١)، والديلمي في الفردوس (١/ ٣٤١)، وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٧١).

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٠٠)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٢١).

حلَّ له من حُرمَة حرَمه، فدخل وعلى رأسه المغفر حربًا، وهو ﷺ قد وضع ذقنه الكريمة على مقدمة رحله؛ تواضعًا لله ﷻ[1]، فتخلَّى عن أسوأ الجلسة؛ إظهارًا لهيئة التواضع لصورة العبودية، ولما خُيِّر بين أن يكون نبيًّا عبدًا أو يكون نبيًّا ملكًا اختار أن يكون نبيًّا عبدًا؛ بما أن العبودية للخلق حقٌّ متحققٌ دائمٌ خاصٌّ، لم يتصف به الحقُّ تعالى، فكل اسم تسمَّى به الحقُّ فحقُّ العبوديَّة التخلِّي عنه؛ لأن ما تَحلى به السيد فحقٌّ على العبد التخلِّي عنه، فالملك اسم تعالى لا يتحقَّق للعبد، فاختار ما هو دائمٌ ثابتٌ عمَّا هو زائلٌ ذاهبٌ، حتى أن وصف الملك إنما يبدو أمره وكثره ساعةً من نهار.

كما قال الصادقون: إن ربَّنا غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله[2]، فلم يكن في الأسماء ما يتحقَّق للعبد دوامًا وثباتًا إلا العبد، وما سواه اسمٌ لظهور أمرٍ في وقتٍ من أيام الله، كما أن الاسم العظيم (الله) الاسم الدائم القائم الذي لا يختصُّ بمثلٍ من الخلق، وسائر أسمائه أسماءٌ تظهر أمد الوقت.

كما قيل: رحمان الدنيا ورحيم الآخرة ملك يوم الدين.

فلما كان اسم (الله) العظيم هو الدائم تعين لإضافة ما هو به من أسماء الخلق، وهو اسم العبد فكان اسم العبد راتبًا له دائمًا عليه، وكل اسمٍ سواه خاصٌّ بحالٍ أو وقتٍ، فكانت العبودية للعبد مورد متقابلاته، فكان الماحي لاسمائه الثابت له دوامًا، كما كان اسم الله المحيط بأسمائه الدائم له كمالاً، فالبادي عبدٌ كما قال ﷺ: «وكلنا لك عبدٌ[3]».

وهو ﷺ قلب ذلك العبد الذي منه مدده ظاهر جسمانيته وباطن روحانيته، بما هو النور الأول الذي خُلق من نوره كل كائنٍ، ولسانه المعبر عنه، وإمامه المتقدم به، وشفيعه الموصل إليه، وجميع أسمائه متشعبةٌ من أصل عبدانيته التي أُختص بها اختصاص ربِّه بالإلهيَّة

---

(١) رواه البخاري (٢/٦٥٥)، وأبو داود (٣/٦٠)، والترمذي (٤/٢٠٢)، والنسائي في الكبرى (٥/١٧١)، وأحمد (٣/١٨٥).

(٢) رواه البخاري (٣/١٢١٥)، ومسلم (١/١٨٥)، والترمذي (٤/٦٢٢).

(٣) رواه الدارمي في السنن (٢/٤١٢)، وأبو يعلى في مسنده (١/١٤٢).

واللاهوتيَّة، فلم يكن أثبت له في الأسماء من هذا الاسم ولا أتم إحاطةً، فالعبد بالله قائمٌ، كما كان يقول ﷺ: «أإنا بك!(١)».

وكما قال لعليٍّ ﷺ في نقش خاتمه: «نحن بالله(٢)».

فإذا نطق الناطق بهذا الاسم: (عبد الله) أحاط إحاطة كمالٍ بالبادي العبدانيِّ، فدخل كل تفصيلٍ في ضمن نطقه ومعناه وحقيقته، كما انتظم اسم العظيم (الله) جميع أسمائه مما لا يناله الإحصاء، كذلك اسمه (العبد) ينتظم من أسمائه ﷺ مما لا يناله الإحصاء.

كذلك كان يقول ﷺ: «قولوا: عبد الله(٣)»؛ ولأن سائر الأسماء التي هي من أوصاف تجلّيات الله عن اسمه مما يسلمها العبد إلى ربِّه؛ لأنها مشتقوقةٌ من أسماء الله وأوصافه، كما قال ﷺ: «أنا الذي شقّ الله اسمي من اسمه، فالله محمودٌ وأنا محمدٌ ولا فخر(٤)»، وسائر أسمائه تفاصيلٌ من معنى ما يجمعه له (محمد) إلا اسم (العبد)؛ فإنه ليس له بمشوقٍ من اسمٍ من أسماء الله تعالى، فكان أصل كل اسمٍ له، فأسلم الله ما سواه آداءً لأمانته، فكذلك كان يقول ﷺ: «لا تضرُّوني كما أضرّت النصارى عيسى، ولكن قولوا: عبد الله(٥)»، فاستثبت ما هو ثابتٌ، وأسلم لله ما هو له لا لسواه، وليس للعبد إلا اسم العبد ولله كل شيءٍ، فعبد الله اسم ملءٍ وإحاطةٍ لا يدعُ شيئًا، ولذلك أحبُّ الأسماء إلى الله (عبد الله)، و(عبد الله) لا يتطرق إليه تعبد لشيءٍ سواه بما حجب الخلق وأبقّ بهم عن استخلاص العبودية لله، حتى لم يصحُّ كمالاً إلا لعبد الله محمد رسول الله؛ لأن من رغب في شيءٍ فقد عبده وصار عبده، والمرء رقُّ ما استولى عليه أمرٌ من أمر الدنيا أو أمرٌ من أمر الآخرة أو أمرٌ مما سوى الله، فهو عبد ذلك الشيء لا عبد الله، حتى يكون كما قال ﷺ: «تعِسَ عبد الدينار وعبد الدِّرهم وعبد الخميصة(٦)».

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده (١/٤٣٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) رواه البخاري (٣/١٠٥٧)، وابن ماجه (٢/١٣٨٦)، والبيهقي في الشعب (٤/٤١).

وكذلك يصير المرء عبد أمله وعبد سلطانه وعبد ماله وعبد ولده، فما تحقق بالعبودية لله إلا من استخلص قلبه له، فكان قلب المؤمن الذي وسعه، كما قال تعالى: «ووسعني قلبُ عبدي المؤمن[١]»، فذلك عبد الله الذي منه كل شيءٍ، وهو من لي كل شيءٍ، ووليُّ كل شيءٍ، والله وليه ومولاه، وهو العبد الذي يذهبه الله عنه فيجري عليه أمره كما فعل لعبد الله حبيبه حيث أجرى عليه اسمه العظيم في كتابه المبين فيما لا يكاد يُحصى ولا يُهتدى إليه إلا بعناية إفهامٍ من الله إلا ما هو بادٍ نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، حتى يجري ذلك على حواسه، كما قال في قوله: «فأكون سمعه وبصره[٢]» الحديث.

فذلك عبد الله إذا ذكرت اسمه لم يبق من ورائه ذكرٌ، فكان مضمنًا لكل حمدٍ، هو لعبد الله بما هو لله بما العبد من طينة سيده، والله الوليُّ الحميد.

وقال الشيخ العطار في شرح الصلاة للشيخ الأكبر: (الجامع بين العبودية والربوبية): فمظهره ﷺ وسع الحق بجميع أسمائه وصفاته، وكل من هو كذلك كان مظهره جامعًا لكل مظهرٍ من مظاهر الحق تعالى، حيث أن كل واحدٍ منها مظهر اسم من الأسماء، وكل الأسماء كانت بمظهره ﷺ، فكان جامعًا بين العبودية، أعني من حيث أن مظهره جمع كل مظهر؛ إذ المظهر خاضع لمن ظهر به عبد له.

والربوبية من حيث أن اسمه الظاهر به جمع كل الأسماء، وهو الاسم (الله) رب الأرباب، فعبوديته أحاطت بكل عبودية، وربوبيته أحاطت بكل ربٍّ.

فقد جمع ﷺ بحقيقته الظاهرة بين العبودية والربوبية، كما جمع ذلك بباطنه وقد تقدَّم ذلك، ولم تكن هذه الجمعية لغيره أبدًا؛ لعدم الحيطة التامة في غيره.

فهو العبد حقيقة، من أجل هذا ذكر في القران بلفظ العبد كقوله تعالى:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الحكيم الترمذي في النوادر (١/٢٦٥)، وذكره ابن حجر في فتح الباري (١١/٣٤٤)، وفي لسان الميزان (٤/٨٣).

﴿أنــزلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [الأنفال: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

وقد قال ﷺ: «أنا عبد الله ورسوله[1]».

وإذا جمع بين العبودية والربوبية جمع الجميع؛ إذ الحال دائر بين عبد ورب ولا ثالث لهما، وفي هذه الجملة من الاصطلاحات المظهر والعبودية والربوبية، وقد مضى شرح ذلك إلا العبودية، وهي انتساب العبد إلى مظهره، مثل أن تقول: قاموا بين يدي ربهم، والعبودة هي نسبة العبد إليه تعالى لا إلى أحدٍ سواه.

وقد قال حضرة الشيخ في الفتوحات المكية: إن عباد الله منسوبون إلى العبودة لا إلى العبودية؛ لأنهم لو نُسبوا إليها لانتسبوا إلى الصفة لا إليه.

النور الثاني والثلاثون

وهو نور التزكية:

فهو يكشف له كونه ﷺ حجة الله على العالمين.

❁ قلت: قال الحرالي: هو حجة الله على الخلائق، والحجَّة عليه أعلى الرتبتين في حكمة الله لأدناهما قولاً وجدلاً، ولما كان ﷺ أعلى في كل رتبةٍ من رتب الحكمة كما هو أعظم في بادئ كل كلمة كان علوُّه على أعلى الحكمة حجةٌ على ما دونه، وكل شيءٍ من الخلائق منه فهو حجةٌ على ما كان منه، كما أن الأصل حجةٌ على فرعه لا الفرع ثمرة أصله، ولما كان ﷺ متنـــزلاً مع كل رتبةٍ خلقًا وأمرًا كان حجةً في كل رتبةٍ دنيا أو عليا على الرتبة التي دونها بما له في تلك الرتبة العليا على الدنيا من الأحمدية فيها، ولأنه رسول الله للخلق من أنفسهم؛ فهو حجةٌ على كل نفسٍ من حيث مسرى أحمديته إليها، من حيث ما أوتيت واتَّسعت.

قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

---

(١) رواه البخاري (٤/١٥٧٥)، ومسلم (٢/٧٣٥).

وقال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

فمن تفضيل ذلك أنه في أمور الطبع حجةٌ على ذي طبعٍ: غدرٍ أو كذبٍ كان عليه حجةً بما هو حكم بشرٍ في حكم البشرية، وآدميٌ في حكم الآدمية، ويشارك الخلق في ذات طباعهم مع علوِّه في رتبة أحمدية ذلك الطبع، فلذلك ألزم كافة الخلائق برسالته من حيث إنه في الطباع رسولٌ بكرم طبعه، كما هو في الديانة رسولٌ بعلوِّ ديانته، كذلك هو في رتب المعقولات والنظر في الدلالات والتفكُّر في الآيات؛ فهو حجَّة الله على كل ذي عقلٍ في عقله، وعلى كل ذي دينٍ في دينه، وعلى كل ذي طبعٍ في طبعه، كما هو كاملٌ جامعٌ، له في كلِّ ما في الفطرة والجبلة علوُّ الأحمدية لذلك، بوجد سنته ﷺ وحلمه وأفعاله وأحواله في جميع تصرفاته الطبيعيَّة والعقليَّة والدينيَّة وجميع ما يشاركه فيه خلقٌ منبئةٌ ومظهرةٌ لأعلى رتبةٍ فيما فيه بادئها بين ذلة النفس إلى العزَّة بالله فما بينهما من الأحوال والتصرفات، فهو من حيث علوُّ المشاركة في كل رتبةٍ حجَّةٌ على أهل تلك الرتبة بتنـــزله إلى كل رتبةٍ وتحققه في أحمديَّة تلك الرتبة، فهو بما له من شكر العبادة حجَّة الله على كل عابدٍ، وبما له من مزيد العلم وإحاطته حجَّة الله على كل عالمٍ، وبما له من علوِّ الإيمان حجَّة الله على كل مؤمنٍ، وبما له من كمال الإسلام حجَّة الله على كل مسلمٍ، وبما له من تمام الإحسان حجَّة الله على كل محسنٍ، وبما له من صفاء الإيقان حجَّة الله على كل موقنٍ، كذلك في جميع رتب الديانة، ولذلك هو ﷺ في جميع الأحوال النفسية، فهو بخلقه العظيم حجَّة الله على كل ذي خلقٍ وتخلُّقٍ، كذلك في تفاصيل أحوال الأخلاق كلها من الصبر والشكر والرضا والطمأنينة وجميع الأحوال والأخلاق النفسانيَّة، كذلك هو في الأمور الطبيعيَّة في اقتناعه ﷺ لنفسه ولآله بغير الوقت في مطعمٍ أو مشربٍ أو ملبسٍ أو مأوًى، كما قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اجعلْ رزقَ آل محمد قوتًا[1]»، «اللَّهُمَّ اجعلْ رزقَ آل محمد كفافًا[2]».

وكان ﷺ بذلك حُجَّةٌ على جميع رتب الخلائق في بادئ خلقهم وباطن أمرهم.

(١) رواه البخاري (٢٣٧٢/٥)، ومسلم (٧٣٠/٢)، والترمذي (٥٨٠/٤)، وأحمد (٤٤٦/٢)، وابن ماجه (١٣٨٧/٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٨٤/٧)، والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٣٥١/٢)، والبيهقي في الشعب (١٦٨/٢)، وفي الكبرى (٤٦/٧)، وذكره المناوي في فيض القدير (٤٧٩/٥).

(٢) رواه ابن حبان في الصحيح (٢٥٤/١٤)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (٤٧١/١).

قلت: وهو أيضًا: (لسانُ الحجَّة) في جميع الكتب المنـــزَّلة؛ فهو حُجة الله تبارك وتعالى على سائر المخلوقات، اندرج كل شيءٍ في فضله، خُلُقُه القرآن العظيم، حُجَّة المتكلِّمين في مدار الأزمنة، ولسان حجَّة المقام العلوي والسفلي.

وقد كرَّر بعض العلماء أن الحجَّة من حيثية الدين قوة تمكين العبد فيما أقامه فيه، وتعريفها: ذكر الشيء المنعوت به، المتَّصف على ما قرَّر.

قال بعض العلماء: الحجَّة المعرفة القائمة بكيفية العلوم الإلهية: من وهبيٍّ، وكسبيٍّ، وهَذَا أحسن ما قال أهل التفسير.

وقال التيفاشي: الحجَّة القاطعة لجميع المخلوقات ما جاء به مُحَمَّدٌ ﷺ؛ فهو قائمٌ بسائر ما قامت به العباد والزهَّاد والملائكة وغيرهم: من سائر الوظائف؛ اطِّلاعا من الله تبارك وتعالى.

وقال الإمام المنذري: جميع أعمال العباد اندرجت في عمله، فما هيأ الله تبارك وتعالى لعبد سببًا من أسباب السعادة إلا وهو منه مأخوذٌ، وله فيه أجرٌ، فهو لسان الحجَّة ﷺ. قاله الشيخ الأبشيهي.

وبالجملة: فهو ﷺ ثابت الحجة، وصاحب الحجة البالغة القاطعة، والحجة على سائر العباد، وحجة الله على أعدائهﷺ.

* * *

النور الثالث والثلاثون:

وهو نور المكانة الكبرى:

فهو الذي يكشف له عن جلاله ﷺ في التكميل وفي التحديد وفي التتميم وعوالم غير هذه ومعنى غير هذا كله.

وأيضًا كون بعض أمته يتجلى الله خاصة وللناس عامة، وهذه مرتبة أعلى مما ذكر؛ وبهذا يكشف له ﷺ عن أمر ما عند العقول منه ما تفرض مقدمة، ولا تضع قضية، ولا تنقل مخاطبة صناعية، وهنا يجب الإمساك عليه فاعلم ذلك كله.

وكيف كشف له حتى إن أمورًا قلّ وجودها في الملائكة، فكيف في غيرهم! وهذا كشف لنا أنه في عوالم غير هذه، وبقي في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

فاعلم ولا تقل يا من هو من أهله إلا أنه هو النور المحض، وله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

كملت والحمد لله رب العالمين

❁ قلت: قال الغوث سيدي محمد وفا قدس الله سره: اعلم وفّقك الله أن العوالم[(١)] الثلاث: وهو عالم العقل وبما فيه من أسرارٍ ذاتية، لاهوتية وصفات قدوسية واجبية، ومعان نورانية، هي أقوية التفرد والتحكمات.

وموضع إبداء الأسرار والصفات بالتجليات.

(١) قال سيدي ابن ناصر الكيلاني: العالم مأخوذ من العلامة، وهو عبارة عن كل ما سوى الله، والعوالم كثيرة جدًا، وأمهاتها هي الحضرات الوجوديَّة، وأول العوالم المتعيِّنة من العماء عالم المثال المطلق، ثم عالم الرسم، ثم عالم القلم واللوح، ثم عالم الطبيعة من حيث ظهور حكمها في الأجسام تحقيقي الهيولي، والجسم الكل، ثم العرش، ثم هكذا على الترتيب إلى أن ينتهي الأمر إلى الإنسان في عالم الدنيا، ثم عالم البرزخ، ثم عالم الحشر، ثم عالم جهنم، ثم عالم الجنان، ثم عالم الكثيب، ثم حضرة أُحديَّة الجمع والوجود الذي هو ينبوع جميع العوالم كلها، هكذا كاشفه صاحب الكشف الأتم، فافهم والله الهادي والمفهم. وانظر: مجمع البحرين شرح الفصين (بتحقيقنا).

كان هذا عالم الجبروت، مفارقًا لما سواه بذاته وصفاته وإياه، وبما تنـزَّه عن الزمان والمكان، والأين والمثل والكيف، والإطعام والأذواق، والألوان، وكانت النفس الناطقة وهي العالم القريب بالتجريد من صفاته المحققة بالتوحيد، هي عرشه وفرشه، وحضرته وقدسه، وهي عالم الملائكة العظام، والحجب المقدسة الكرام، ثم إن عالم الكون والفساد والطباع الأربعة الأكوان، وبما انحصروا في القوة الحيوان، ولذلك كان النتاج من حيث هذه الروح الحيوانية عن الكل بالجزء، تبرز نوادرًا من القوة للفعل، ثم تـتطور وتـنتـقل من الاستعداد المعدني، ثم استعداد النبات، ثم استعداد الحيوان، ثم تـتـنـزل الروح من العالم المشترك البرزخي، الذي هو الفصل بين العالمين، والوصل بين المتباعدين، عالم الروح الأمين بالاستعدادات الإنسانية إلى الكُمَّل من الأشخاص الحيوانية، وبما نزفت الممكنات الكونيات بتـنـزل الواجبيات الآمريات، حكمةٌ كحكمة، وسنةٌ كسنة.

واعلم أنه ما خلف حجاب هذه الأكوان الحيوان غير عالم الجان، ونهايتها الإنسان، كما أن غاية الإنسان الرحمن، وما بين الإنسان والرحمن إلا الملائكة المقرَّبون، والأرواح القدسيون المكرمون، وما نزفت من الأرواح الحيوانية تكون بالملائكية، وإن عكست انتقلت إلى الشيطانية، ومهما نزفت من الإنسانية إلى الملائكية فإلى النبوية، فإن أحجمت وقفت مع الملائكية، وإن نفدت فإلى الحضرات الرحمانية.

هذا فيما يُعطى الترقي والتلقي مع الجاذب الملكي، والدليل النبوي.

وأما فيما تُعطى التـنـزلات الربَّانية بالبطانات السريانية، فتخصيصٌ لا يُعقل سره ولا يُدرك كنهه.

واعلم أن الاسم الذات المتَّصف بجميع الصفات بالذات يتجلَّى على أسماء الصفات الذات الوجودية، فيستغرقها في الذات، فإذا صارت ذوات وكلمات تامات تجلَّت على ما يليها من أسماء الأفعال، فرقتها إلى مقاماتها التي عنها انتقلت، فإذا كانت الأفعال صفات للذات نقلت المفعولات بالتجليات إلى مقام الأفعال، ثم يبرز الحيوان من أفلاكه الأربعة الطباع لإحكام الترتيب للأوضاع، والأمر كذلك ولا نهاية لذلك، أسرارٌ تـتنـزل بالإلهية إلى الحيوانية، وترقَّى بالروحانية إلى الرحمانية، وما بين هذا التنـزل والترقي

فقعرات سجينيات أرضيات، ودرجات رضوانيات سماويات، وحضرات وغير حضرات، وعوالم مفترقات، فسبحان من لا يُدرك كنهه، ولا يُبلغ شأوه، ولا ينفد أمره انتهى.

وقال الشيخ الكتاني: وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] فإن العالمين هم جميع الخلق من إنس وجن وملك وحيوان ومعدن ونبات وعرش وما فوقه وما تحته إلى ما لا يعلمه إلا الله تعالى فيكون رحمة للكل ومأمورا بإنذار الكل والكل مأمور باتباعه وطاعته والإيمان به والانقياد إليه والخضوع والذل بين يديه وما ذاك إلا لأنه خليفة الله عليهم الممد جميعهم والمصرف بأمر الله فيهم، فإن من شأن خليفة الملك المستخلف على كل مملكته أن يتصرف فيها كلها بأمره وينقاد له من فيها بأسره ويخضعوا له كما يخضعون للملك وتنفذ فيهم أوامره كما تنفذ أوامر الملك.

ومثل الآية الأولى حديث: «**إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين**[1]».

أخرجه أبو نعيم في دلائله عن أبي أمامة.

وحديث: «**إن الله بعثني رحمةً للعالمين كافة**».

أخرجه الديلمي عن المسور بن مخرمة.

وأخرج أبو نعيم في «الدلائل» عن أبي أمامة مرفوعًا: «**إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين**».

وأخرج ابن منده في «الصحابة» عن أنس مرفوعًا: «**بعثني الله هدى ورحمة للعالمين**».

وأخرج أحمد، وأبو داود، والطبراني، عن سلمان مرفوعًا: «**أيما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي، أو لعنته لعنة إنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنما بعثني رحمة للعالمين**» فاجعلها عليه صلاة يوم القيامة[2].

---

(١) ذكره ابن حزم في المحلى (٩/٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/٢١٥)، وأحمد في المسند (٥/٤٣٧)، والطبراني في الكبير (٦/٢٥٩).

ومن أسمائه أيضًا عين الرحمة ورحمة العالمين قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]: أي رحمة شاملة لكلهم عامة في جميعهم مفاضة على سائرهم من جن وإنس، وملك وغيرهم، إيجادًا وإمدادًا، وامتنانًا وإسعادًا.

وقال الشيخ أبو العباس المرسي ﷺ: جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة ونبينا ﷺ هو عين الرحمة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وإذا كان عين الرحمة فهو أصل الرحمات وينبوعها، وليس شيء منها خارجًا عنه بل كل مرحوم مسهوم منه وآخذ لحصته من جنابه.

وقال الشيخ عبد الجليل القصري في «شعب الإيمان» له في الشعبة الموفية خمسين وهي شعبة حب الرسول ﷺ بعد ذكره لهذه الآية ما نصه:

فهو ﷺ المرحوم به العالمون بنص هذه الآية، ثم قال بعد كلام في بيان ذلك فإذا فهمت هذا كله علمت أنه رحمة للعالمين وبركة شاعت وظهرت في الوجود أو تظهر من أول الإيجاد إلى آخره إنما ذلك بسببه ﷺ انتهى.

أخرج أبو عبد الله محمد الترمذي الحكيم في «نوادر الأصول» جعل الله تعالى للجنة بابًا زائدًا، وهو باب محمد ﷺ، وهو باب الرحمة وباب التوبة، فهو منذ خلقه الله مفتوح لا يغلق، فإذا طلعت الشمس من مغربها أغلق، فلم يفتح إلى يوم القيامة وسائر أبواب الأعمال مقسومة على أعمال البر.

ثم قال: فأما باب التوبة من الجنة الزائد على الأبواب، فليس هو باب عمل إنما هو باب الرحمة العظمى، إليه تدخل توبة العباد إلى الله تعالى، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«أنا نبيُّ التوبة وأنا رحمةٌ مهداه»**.

فنفس محمد ﷺ رحمة للعالمين وسائر الأنبياء مبعثهم رحمة، فلذلك سعد من أجاب ما بعثوا به من الهدى وعُوجل بالعذاب، من أعرض عنهم ومحمد ﷺ مولده ونفسه رحمة وأمان، وكذا مدفنه إلى نفخ الصور، فحرمة تلك الرحمة وأمانه قائم انتهى.

وقيل في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] إنها سيدنا محمد ﷺ، وإنه الرحمة التي وسعت العالمين كلهم مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، حيوانهم ونباتهم وجمادهم، أرضهم وسماءهم، عرشهم وفرشهم، دنياهم وأخراهم.

وقيل في قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس:٥٨]: إن الرحمة هو سيدنا محمد ﷺ، والفضل من الله، إبرازه للعالمين والهداية والتوفيق للإيمان به والمجيء إليه، والزيادة له، والاستغفار عنده انتهى.

وأما ما يتعلق بكونه ﷺ النور المحض:

ففي «جواهر المعاني» نقلاً عن شيخه أبي العباس التيجاني في «شرحه لجوهرة الكمال» لدى قوله فيها عين الرحمة قال ما نصه:

اعلم أن الحق سبحانه وتعالى اقتطع قطعة من النور الإلهي في غاية الصفاء والتجوهر، ثم أبطن في تلك القطعة ما شاء أن يقسمه لخلقه من العلم بصفات الله تعالى وأسمائه وكمالات ألوهيته، وبأحوال الكون وأسراره ومنافعه ومضاره، وبالأحكام الإلهية أمرًا ونهيًا، وجعل تلك القطعة من النور مقر الانصباب، كل ما قسم لخلقه في سابق علمه من الرحمة الإلهية، ثم صار يفيض على خلقه، ما أقره في الحقيقة المحمدية من العلم والرحمة، فكان بهذه المثابة هو عين الرحمة ﷺ، وكان ذلك النور هو الحقيقة المحمدية، وتلك الرحمة المفاضة في ذاته هي التي يفيضها على الوجود من ذاته الكريمة، فلا يصل شيء من الرحمة إلى الوجود إلا من ذاته ﷺ، فذاته الكريمة بمنـــزلة المقر للمياه الذي تجتمع فيه وتتفرق من ذلك المقر سواقي للسقي والانتفاع، ولذلك قال ﷺ: «إنما أنا قاسمٌ والله معطي[1]».

أي ينظر إلى ما سبق في العلم الأزلي من الاقتطاع، ثم يفرق ﷺ تلك الرحمة على حسب ذلك الاقتطاع، فلهذا سمي عين الرحمة ﷺ، ثم ذكر لتسميته بعين الرحمة نسبة أخرى ووجه آخر، وهو أنه الأنموذج الجامع في إفاضة الوجود على جميع الوجود، فإنه لولا وجوده ﷺ ما كان لموجود أصلاً من غير الحق سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١).

وأطال في بيان هذا ثم قال: فبان لك أن الفيض من ذاته ينقسم إلى رحمتين:

الرحمة الأولى: إفاضة الوجود على جميع الأكوان حتى خرجت من العدم إلى الوجود.

والرحمة الثانية: إفاضة فيض الرحمات الإلهية على جميعها من جملة الأرزاق والمنافع والمواهب والمنح، فإنه بذلك يدوم تمتعها بالوجود، قال: فإذا علمت هذا علمت أنه ﷺ عين الرحمة الربانية؛ لأنه رحم جميع الوجود بوجوده ﷺ، ومن فيض جوده أيضًا رحم جميع الوجود، فلذا قيل فيه: إنه عين الرحمة الربانية ﷺ انتهى المراد منه.

وفي جواهر المعاني ما نصه: أول موجود أوجده الله من حضرة الغيب هو روح سيدنا ﷺ، ثم نسل الله أرواح العالم من روحه ﷺ، والروح هنا هي الكيفية التي بها مادة الحياة في الأجسام وخلق من روحه ﷺ الأجسام النورانية كالملائكة ومن ضاهاهم.

وأما الأجساد الكثيفة الظلمانية، فإنما خلقت من النسبة الثانية من نسبتي روحه ﷺ، فإن لروحه ﷺ نسبتين أفاضهما على الوجود كله، فالنسبة الأولى نسبة النور المحض، ومنه خلقت الأرواح كلها والأجسام النورانية التي لا ظلام فيها.

النسبة الثانية نسبة الظلام، ومنها خلق الله الأجسام الظلمانية كالشياطين والجحيم وسائر دركاتها، فهذه نسبة العالم كله إلى ﷺ انتهى.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن الظل موجود بلا ريب في الحسِّ تابع في الوجود للشخص، لكن لا يظهر إلا إذا كان ثمة من يظهر فيه، وكذا محل ظهور هذا الظل لا يظهر إلا به، وذلك لأن النور المحض لا يدرك ما لم يمتزج بظلمة ما، وكذا الظلمة الصرفة لا بدَّ لها في الإدراك من النور.

والأرواح المودعة في ذوات الموجودات، هي لطائف اختص كل موجود منها بلطيفة، وهي السر الذي بين الحق والعبد لا يطَّلع عليه ملكٌ مقربٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ؛ لأنه من أمر الله، وأمر الله مجهول.

وقد قال الله تعالى آمرًا إلى رسوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥].

وعلى التقدير لا يرى ولا يشهد ذوقًا ووجدانًا لطائف الأرواح أحد من أهل العقول

إلا الرجل الذي تصفّى: أي صار صافيًا من كدورات الأشباح الكثيفة؛ لأنه لا يرى النور إلا بالنور، ولا اللطيف إلا باللطيف؛ إذ الكثيف ظلمة، والظلمة عدم، والعدم غير مدرك، ومع هذا لا يرى النور المحض ما لم يمتزج بظلمة ما، كما أن الظلمة لا تُدرك إلا بالنور فافهم.

فبتأمل هذا كله ونظره بعين الاعتبار والاستبصار فيه بشيء ما من الاستبصار تفهم من فحواه أنه ﷺ النقطة التي عليها المدار، والفائز من ربه تعالى بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على سرٍّ من الأسرار، وتعلم أنه المحبوب من الأزل، والمخصوص بالخلافة العظمى فيما لم يزل، فضلاً منه تعالى عليه، ومنّة سابقة من جنابه لديه.

بل قلت: إنه ﷺ مقامه أعلى من مقام ما لا عين رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

حيث هو كما أخبر عن نفسه الشريفة المقدسة: «لا يعرف قدري غير ربي»، والجنة ما خُلقت إلا من نوره، فهو النور المحض ﷺ.

خاتمة الشرح:

تم الشرح بفضل الله وعونه، على يد الفقير إلى ربه: أبو الحسن أحمد فريد المزيدي الشافعي الأكبري القادري المصطفوي، بداره الحقيقة المحمدية لتراث السادة الصوفية.

kitabweb-2013.forumaroc.net

فهرس الموضوعات

مقدمة التحقيق ٥

ترجمة المصنف ٧

كتبه ورسائله ١٤

دفع الاعتراض على الشيخ ١٥

الرد على من رمى أهل الحق بالزندقة والكفر ١٦

بطلان دعوى وحدة الوجود ٢١

بيان مسألة وحدة الوجود ٢٢

مراد أهل الله بوحدة الوجود والوحدة المطلقة ٢٨

مراتب الإيمان والتصديق ٣١

مسألة الحلول والاتحاد ٣٥

نصوص القوم في نفيهم للحلول والاتحاد المتوهم في حقهم ٣٧

بحث في رد شبه المنكرين على السادة المتحققين ٤١

رسالة في أنوار النبي ﷺ ٦٩

القول على أنواع أنوار رسول الله ﷺ ٧٣

شرح أنواع الأنوار المحمدية ٨٢

النور الأول: نور العزة ٨٢

النور الثاني نور الغاية الإنسانية ٨٥

النور الثالث نور الإدراك ١٠٢

فائدة في رؤية الشيء وسماعه قبل وجوده للأنبياء والأولياء ١١١

النور الرابع وهو نور النبوة ١٣٥

النور الخامس وهو نور النشأة ١٤٠

النور السادس وهو نور السابقة ١٤٢

النور السابع وهو نور التشريف ١٤٩

النور الثامن وهو نور التدلل ١٥٣

النور التاسع وهو نور التركيب ١٥٥

النور العاشر وهو نور المولد ١٥٧
النور الحادي عشر هو نور الخلقة ١٥٩
النور الثاني عشر هو نور التربية ١٦٢
النور الثالث عشر هو نور الانتقال ١٦٥
النور الرابع عشر هو نور النهاية ١٦٨
النور الخامس عشر هو نور التضمن ١٧٠
النور السادس عشر هو نور التسخير ١٧١
النور السابع عشر هو نور العادة ١٧٥
النور الثامن عشر هو نور الأتباع ١٧٨
النور التاسع عشر هو نور اللواحق ١٨٢
النور العشرون نور الجاه ٢١٣
النور الحادي والعشرون نور الخطابة ٢١٤
النور الثاني والعشرون نور المقايسة ٢٢١
النور الثالث والعشرون نور التفضيل ٢٢٥
النور الرابع والعشرون نور الإحاطة ٢٢٦
النور الخامس والعشرون نور الحصر ٢٥١
النور السادس والعشرون نور العلامة والدلالة ٢٥٢
النور السابع والعشرون نور الخصوصية ٢٥٧
النور الثامن والعشرون نور الخير المحض ٢٥٧
النور التاسع والعشرون نور اللواء ٢٥٩
النور الثلاثون نور الانفراد ٢٦١
النور الواحد والثلاثون نور العبودية ٢٦٢
النور الثاني والثلاثون نور التزكية ٢٦٧
النور الثالث والثلاثون نور المكانة الكبرى ٢٧٠

خاتمة نص الشيخ ابن سبعين في الأنوار ٢٧٠
خاتمة الشرح للمزيدي ٢٧٦
فهرس الموضوعات ٢٧٨

هذا الكتاب

بين يدي القارئ الكريم كتاب «أنواع أنوار النبي ﷺ» لواحد ممن كان لكلامه وعقيدته الأثر الواضح في عقيدة المسلمين قديمًا وحديثًا.

وحق للمسلمين أن يفتخروا بمؤلفاته التي لم يصنف غيره مثلها.

فقد ذكر أنواع الأنوار المحمدية؛ لأن للنبي أنوارًا تختلف باختلاف متعلقاتها ومضافاتها.

وعدة أنواره التي يعددها ابن سبعين: ثلاثة وثلاثون نورًا.

فبيَّن أنه ﷺ كثير الأنوار؛ لأن الأنبياء من نورهِ، والأولياء من نوره، وكل نورٍ أتى من عملٍ صالحٍ من نوره؛ فأنواره لا تُحصى.

وقام الشيخ أحمد فريد المزيدي بشرح هذه الأنوار من كلام السادة العارفين، والعلماء المحققين.

فجاء مشتملاً على أسرارٍ من النور المحمدي، لو أُدركت حقيقته لخرَّت العقول، فضلاً عن القلوب والأرواح ساجدة بين يدي هذا الكمال المحمدي.

فهذا الكتاب لم ترَ المكتبة الإسلامية مثله من قبل، حيث أنه من أفضل ما صُنِّف في نوعه.

الناشر